رشحات ولائيّة

شفيق جرادي

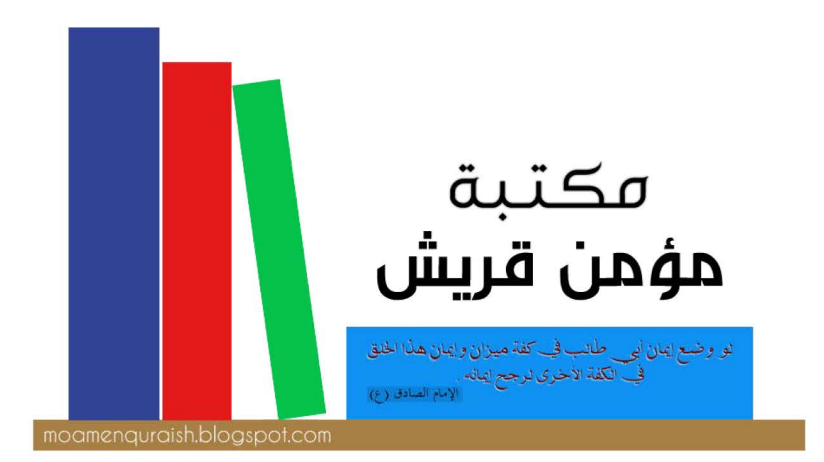
دروس في رسالة الولاية

للشيخ العارف أحمد الأشتياني

تقرير وتحقيق

إنعام حيدورة




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

رشحات ولائية

اســم الكـتــاب: رشحات ولائية

تقرير وتحقــيق: إنعام حيدورة

النــــــــاشر: **معهد المعارف الحكمية** (للدراسات الدّينية والفلسفيّة).

تصميم الغلاف: IDEA CREATION

عــدد النــسخ: 1000

عدد الصفحات: 245

القيـــــــاس: 14.5 x 21

تــاريخ الطبــع: ك٢ 2006


رشحات ولائية

الطبعة الأولى

1426هـ - 2006 م

إن الآراء والإتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذه السلسلة، لا تعبّر بالضرورة عن رأي معهد المعارف الحكمية، وإن كانت في سياق اهتماماته المعرفية.



معهد المعارف الحكمية

بيروت - حارة حريك - قرب البنك اللبناني الفرنسي - سنتر صولي

هاتف: 544622 -01 ص .ب الشياح 20

Email:almaaref@shurouk.org - mahaad@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

الحمد لله حمداً كما هو أهلٌ له، وأشهد أن لا إله إلاّ هو وحده وحده، هو الواحد القهّار، العزيز الجبّار، منزل الملائكة وسائط فيض جوده، غاية العارفين، ومنى قلوب المحبين. والصلاة والسلام على من اصطفى واجتبى من عباده المرسلين والصديقين والنبيين، وأوليائه الكاملين، لا سيّما أشرف الخلق وسيّد الأنبياء وحبيب ربّ العالمين محمد خاتم الأولين والآخرين، وعلى آله الكرام الميامين، الأخيار المطهرين، صلاة دائمة وتسليماً كثيراً.

قد يظنّ البعض أنّ وصوله إلى مرتبة الإنسان الكامل قد يتمّ بالدرس والتحصيل للعلوم المكتسبة والعرفان النظري، وتعلّم الدين والقرآن، وغيره من المعارف الدينية.

فنجد الكثير من الناس الذين ينشدون العرفان يسارعون إلى التعرّف على هذه العلوم بتمام الجدّ والكدّ والتّعب، إلا أنّهم بسرعة يتخاذلون ويتراجعون عن هذا المقصد، وذلك لكونهم قد تفاجأوا بأمر كانوا يظنون أنه أمر آخر، أو لاعتقادهم أنّ هذا الطريق سهلٌ متيسّر، ويمكنهم الوصول إلى مرادهم بمجرّد تحصيل العلوم النظرية، لكنهم لم يقدروا على إخلاص النيّة وصدق القصد إلى الله تعالى، فتراهم يشبعون من هذا الفن بسرعة، لعدم وجدانهم فيه، ولكون أهدافهم فاسدة وأغراضهم باطلة.

وآخرين أعجبهم هذا الفن من العلوم لكونه يعظم حامله ويزيده سمعة وجاهاً بين الناس، فيتعلّم قشوره وألفاظه وعباراته ليجذب بها قلوب العطاشى، ويجعل من نفسه مثالاً أعلى يقتدي به ولم يدرِ أنه اقتدى بفرعون الذي قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾[1].

ومثل هؤلاء انسدّت عنه أبواب السموات وانقطع عنه الإلهام والمعارف والعلوم الحقيقية عن النزول فيه، فهو لم يطلب فيها للحقيقة إلاّ دنياه الخسيسة، ولم يبتغِ لقاء الله تعالى والتقرّب إليه ورضوانه لعدم الأنس بالفيض العلوي، فهو لم يزل أعمى وأصمّ عن السمع العقلي بسبب انسداد باب المعرفة الحقيقية عن قلبه وسمعه وبصره. فقد أخلد إلى الأرض الظالم أهلها واحتجب عن ملاحظة ومعاينة الجمال السرمدي.

وقد تحققّ عند أهل العلم والعرفان أنّ أقصى ما يمكن للإنسان الوصول إليه هو كماله المختص به، والملائم لنوعه الذي به سعادته ، وبه يستحق خلافة الله على الأرض وفي السماء. فله في الوجود أطوار ونشآت، تبدأ من أدنى مراتب الوجود إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه فيه، ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾[2].

وهذا الكمال الخاصّ بالإنسان هو الإحاطة بالعلم الحقيقي والتجرّد عن المادة وتخليص نفسه من الشرّ والظّلمات. فكلما نزل عن مرتبة كماله بارتكاب الذنوب والمعاصي كلما فقد استعداده ورأس ماله ليوم الآخرة، فهو أضلّ من الأنعام والحشرات والدّواب لكونه من المردودين إلى أسفل سافلين بعد أن خسر قابليته في الارتقاء إلى أعلى عليين.

وليس العرفان الحقيقي ما يمكن الحصول عليه من دراسة الكتب وحفظ القواعد النظرية، وإنما نجده ظاهراً في آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبيﷺ، ونهج البلاغة، والصحيفة السجادية، والحصول عليه يتم من خلال التقرّب إلى الله، وكل ما ذكرناه وسائل لهذا التقرب، وبواسطة العبادة والتعمّق بهذه الوسائل والتقوى والورع يسعى السالكون للوصول إلى كأس العشق الإلهي.

وأمام جماعة من الناس في زماننا هذا ادّعوا المعرفة والعرفان وهم

أهل الجهل والنقصان والعماء، ويظنّون بأنهم أرباب الشهود والتوحيد، وقد جعلوا حولهم بعض المغررين بهم، وما ذلك إلا لأنهم تركوا تعلم القرآن والحديث، وأغفلوا العقل والعلم، ورفضوا العمل بمقتضى ما يأمر به الشارع تعالى.

وهؤلاء أصبحوا سبب بعض العقائد الفاسدة، وادعوا معرفة الحق الأول ومجاورة الملائكة المقربين والوصول إلى المعبود. وهم لا يعرفون من هذه المعارف غير قشورها وألفاظها وأساميها. وقد يقول بعضهم: "لا يجب التعلم وإعمال العقل وإنما يجب فقط الاستماع إلى صوت القلب وتلقي المعارف منه"، واعتبروا هذا الامر عين الوحي وجهل المسكين أنه قد يكون ما يستمع إليه هو صوت الشيطان والوسواس الخنّاس. ولا يمكن التمييز بين الوحي الحقيقي والإلهام الصادق إلا بميزان الشرع والعقل الذي به تميز العلوم والأعمال من ما هو حق إلى ما هو باطل.

أهمية كتاب شرح رسالة في الولاية:

تكمن أهمية هذا الكتاب من خلال الموضوعات التي تّمت معالجتها فيه وهذه الموضوعات في غاية الدقة والخطورة، إذ يتعامل معها الناس عن جهل وتكبّر فهي لا تقتصر على الفرد وإنما تنطلق منه لتؤثر على المجتمع ونظام العلاقات فيه.

ولا يخفى على أحد أنّ اكثر من حمل في عقله وقلبه العرفان الأصيل، كان له تأثير فعالٌ ودور بارز في التاريخ الإسلامي. من هنا فإنّ الحديث عن هذا الموضوع يعتبر قضيّة بالغة الأهمية. وهذا ما تصدّى له سماحة الشيخ شفيق جرادي في كتاب "شرح رسالة في الولاية" لأحمد الإشتياني.

وفي طيات هذه الأوراق القليلة بين يدي القارئ، يجد أنّ الهاجس الذي يحكم الشرح الذي يقدمه سماحة الشيخ شفيق جرادي هو ميزان العلم والمعرفة، والعمل بما يرتضيه الحق سبحانه وتعالى من خلال القرآن والسنة والعقل، و ذلك بأسلوب سهل ومبسّط يتناسب مع كل الأفهام والأذواق.

وهذا الكتاب هو مجموعة محاضرات ألقيت على طلاّب معهد المعارف الحكميّة (للدراسات الدينية والفلسفيّة)، ويتضمّن هذا الشرح إحدى أهمّ الرسائل المكتوبة في العرفان وأوضحها وأبينها وأكثرها بساطة وهي "رسالة في الإنسان الكامل والولاية التكوينية" لأحمد بن محمد حسن الإشتياني. ومع هذه الرسالة نجد أنّ الإشتياني يتوجه إلى مسألة الولاية كما هي عند ابن عربي فهو يأخذ بأقواله ويفسّر بعضها ليثبت من خلالها أن خاتم الولاية المحمدية هو علي بن أبي طالب عليه السلام من جهة، ومن جهة أخرى هو قائم آل محمد عليه السلام؛ لأنهما، بل لأنهم (عليهم السلام) نور واحد بالسنخ، والاختلافات بالشؤون والظهورات على حسب اقتضاء الحكمة البالغة.

الموضوعات التي عولجت في هذا الكتاب:

❖ تعريف الولاية لغة واصطلاحاً.

❖ علاقة العلم بالعرفان وميزة موضوع علم العرفان عن موضوع الفلسفة، وما هو الدليل المعتمد في علم العرفان؟

❖ مراتب الولاية وتجلياتها وأقسامها، ومظهر اسم الولي في الإنسان الكامل وعلاقته بالولي الله تعالى.

❖ حقيقة القرب وملاكه ومراتبه، وعلاقته بعلم اليقين وحق اليقين وعين اليقين، وفي أيّ مرتبة من هذه المراتب يتحقق القرب، إلى أن يصل إلى أنّ روح القرب الإلهي هو الأنس بولاية محمد وآل محمد (عليهم السلام).

❖ التنزل والولاية وشروط الولاية والإيمان، مراتب الإيمان، وأنّ هناك طريقين للهداية الإلهية: الأول مباشر والثاني غير مباشر. ومن الأول الدعوة والتوفيق ومن الثاني الرسل والأنبياء.

❖ النبوة المطلقة والنبوة المقيدة والولاية المطلقة والولاية المقيدة، وأنّ النبوة التعريفية هي الإنباء عن المعارف الإلهية الثابتة للأولياء والباقية ببقاء الولاية، ولا تنقطع ما دامت الدنيا باقية. والفرق بين النبوة والولاية

وأن كل نبي ولي وليس كل ولي نبياً، وأنّ النبي يشترط فيه أن يكون معصوماً بينما الولي لا يشترط منه ذلك. فباطن النبوة الولاية، ولا يمكن للنبي أن يكون نبياً ما لم يدخل في محضر الولاية مما يعني أنّ الولاية أعلى مستوى من النبوة، وذلك يتحققّ في شخص واحد.

❖ الأسفار الأربعة وفي أيّ سفر تتحقق الولاية عند الإنسان، وما هي الشروط والأصناف التي لا بد للولي أن يتحلّى بها؟ وقد كان التأكيد على أنه لا بد من التوافق بين ظاهر الشريعة وباطنها. وشرط أن تكون خطوات العارف صحيحة هي موافقتها للجانب الشرعي بدءاً بالفقه مروراً بالمستحبات، والمناسك والشعائر وصولاً للمعتقدات الحقة.

❖ اختلاف العرفاء في تحديد صاحب الولاية المطلقة والولاية المقيدة، وإجماع العرفاء الشيعة على أنّ صاحب الولاية المطلقة هو أمير المؤمنين(ع)، وصاحب الولاية المقيدة هو الحجة المهدي المنتظر (عج). من الأسس التي يرتكز عليها الشرح مطابقة ما ورد في الرسالة مع كلام الأئمة (عليهم السلام) بدليل إتصالهم برسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، وردّ كل ما يخالف القرآن والسنة، ووجوب إتباع رسول الله(ص) بكل أعماله وأقواله والتسليم له ولآله (عليهم السلام)، فهذا المبحث قائم على حقيقة الولاية المحمدية أي على ولاية محمد وآل محمد عليهم أفضل الصلوات والتسليم.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

إنعام حيدورة (١١/١٠/٢٠٠٥ الموافق لـ ٦ رمضان ١٤٢٦ هـ.)

الهوامش

(١) - سورة النازعات، آية ٢٤.

(٢) - سورة نوح، آية ١٤.

رسالة في الإنسان الكامل
والولاية التكوينيّة

رسالة في الإنسان الكامل والولاية التكوينيّة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين، حجج الله على الخلق أجمعين، واللعنة الدائمة على أعدائهم إلى يوم الدين.

وبعد؛ فيقول العبد الفقير إلى رحمة الله الغني أحمد بن محمد حسن الإشتياني: هذه وجيزة رسمتها في الولاية مأخوذة جملة من كلمات المنتسبين إلى العرفان، ومؤلفة مما ساقوه في هذا المقام، على حسب قول بعض الإخوان، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الولاية لغة:

الولاية كما ذكرها أهل اللغة، إذا استُعملت بكسر الواو فهي الإمارة والتولية والسلطان، وإذا استُعملت بالفتح فهي المحبّة. ويقال أيضاً: إنها مأخوذة من الولي بمعنى القرب.

الولاية اصطلاحاً:

بحسب الاصطلاح "الولاية": حقيقة كلّية وصفة إلهيّة، وشأن من الشؤون الذاتيّة، التي تقتضي الظهور ﴿والله الولي الحميد﴾ (1)، ويظهر حكمها من جميع الأشياء من الواجب والممكن، فهي رفيق الوجود، يدور معه حيثما دار.

الوجود والولاية:

كما أنّ الوجود بحسب الظهور له درجات متشئنة ومراتب متفاوتة بالكمال والنقص والشدّة والضعف، ويُحمل عليها بالتشكيك، فكذلك الولاية فإنها بعدما كانت بمعنى القرب، فلها درجات متفاوتة ومراتب مختلفة بالكمال والنقص والشدة والضعف، ويقال عليها بالتشكيك، حتى تنتهي إلى قربه تعالى بالأشياء، ولا أقرب منه بها: "مع كل شيء، - أي بالمعيّة القيوميّة -، لا بمقارنة".

معنى القرب:

لمّا كان القرب أمراً إضافياً معنوياً، والنسبة دائماً بين شيئين، فالحقّ المتعال جلّ شأنه قريب من الأشياء، والأشياء قريبة منه تعالى، ولكن قربه تعالى من الأشياء، إضافة إشراقيّة محصّلة للمضاف إليه، نظير إشراق الشمس الموجب لوجود النور في مقابلها، لا إضافة مقولية متوقفة على وجود الطرفين.

ثمّ إنه ليس مجرد هذا القرب مناط صحّة إطلاق الولاية، فإنها قرب الخلاّقية له تعالى والمخلوقية للأشياء، وليس بين الخالق والمخلوق شيء، ولو ذهبت في هذا بحسب فكرك لتبلغ غاياته ما دلّتك الدلالة على: "أنّ خالق النملة هو فاطر النحلة": "استوى مع كل شيء":

تو توهم كرده اي از قرب حق
كه طبقكر دور نبود از طبق
اين ندانستي كه قرب أولياء
صد كرامت دارد وكار وكيا
آهن از داود مومى شود
موم در دست جو آهن مى بود
شاخ خشك وتر قريب آفتاب
آفتاب از هر دوكى دارد حجاب

ليك كو آن قربت شاخ طرى

كه ثمار يخته أز وى مى برى

قرب بزانوع باشد اى يسر

مى زند حورشيد بر كهسارو زر

ليك قربى هست بازر شيدرا

كه أز آن آكه نباشد بيدرا(٢).

التنزّل والولاية:

كما أنّ الوجود إذا تنزّل يبلغ في النزول إلى مرتبة تنفي أوصافه، وتختفي آثاره وأحكامه، حتى يسلب اسمه، ويزول عنه رسمه، بحيث يكون إطلاقه على المتصرّمات كالأصوات والحركات، والقوة المحضة الهيولانيّة بضرب من المسامحة والعناية، فكذلك الولاية إذا نزلت وانتهت في النزول، يزول حكمها ويسلب عنها اسمها، فلا يُقال للغواسق والظلمانيات كالأحجار والأمداد والفسقة، والفجّار أولياء الله، ذلك لانقهار نور الوجود وأوصافه وغلبة ظلمة العدم وأحكامه.

فإذا خرج الوجود عن ذلك المسكن وتنوّر بنور الإيمان، ويظهر أحكامه ويغلب أوصافه، ويصير مطهراً لصفات الجمال واللطف، ويتصف بالولاية على تفاوت الدرجات واختلاف المراتب.

أقسام الولاية:

أ- الولاية المطلقة والمقيّدة:

تنقسم الولاية إلى مطلقة ومقيّدة؛ لأنها من حيث هي صفة إلهيّة مطلقة، ومن حيث استنادها إلى الأنبياء والأولياء مقيدة، والمقيدة متقوّمة بالمطلق، والمطلق ظاهر بالمقيد، فولاية الأنبياء والأولياء كلهم جزئيات الولاية المطلقة، كما أنّ نبوّة الأنبياء جزئيات النبوّة المطلقة.

الولاية العامة والخاصة:

وتنقسم الولاية أيضاً إلى العامة والخاصة:

والأولى: هي التي تعمّ جميع المؤمنين بأصنافهم، وتشمل كل من آمن بالله تعالى وعمل صالحاً بمراتبهم كما قال الله تعالى: **﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**[٣] فإنّ الإيمان له مراتب ودرجات:

● منها: اعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع دون برهان كاعتقاد المقلّد المصيب، فإنه ليس مستنداً مأخوذاً من البرهان، إنما استناده إلى مخبر صادق وقد حصل له القطع بصدقه.

● ومنها: أنه يتصوّر الأمر على ما هو عليه، ولكنه كان مستنداً إلى البرهان المفيد للقطع، وهذا أرفع وأقوى كإيمان أصحاب الفكر وأهل النظر وكلاهما مرتبة اليقين.

● ومنها: العلم الشهودي الإشراقي المطابق للواقع المعبّر عنه بالكشف الصحيح، وهذا أقوى من المرتبتين السابقتين، كإيمان أهل السلوك وأصحاب الكشوف، ويكون كرتبة عين اليقين، وكل هؤلاء أولياؤه تعالى، والله تعالى وليهم، وتتفاوت درجاتهم على حسب درجات إيمانهم.

والثانية: وهي الخاصة، تختص بالسالكين عند فنائهم في الخلق، وبقائهم به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط، والخاصة عبارة عن فناء العبد في الحق ذاتاً وصفة، والمعبّر عنه بالمحق والطمس والمحو إشارة إلى توحيد الذات والصفات والأفعال بل أثراً أيضاً:

من همان دم كه وضوساختم از جشمة عشق

جاز تكبير زدم يكسره بر هرجة كه[٤].

ولسانها:

﴿يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[٥]

﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾. [٦]

الولي:

الولي هو الفاني فيه تعالى الباقي به، وليس المراد بالفناء انعدام

عين العبد مطلقاً، بل المراد منه فناء الجهة البشرية في الجهة الربانيّة، فإنّ العبد مبدأ لأفعاله وصفاته قبل الاتصاف بمقام الولاية من حيث البشرية، وبعد اتصافه بها هو مبدؤها من حيث الجهة الربانية، كما نقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: قلعت باب خيبر بقوّة ربانية"[٧]، وورد في الحديث: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر"[٨].

وذلك الاتصاف لا يحصل إلاّ بالتوجه التام إلى حضرة الحق المطلق المتعالي سبحانه، إذ به يقوي حقيقته فتغلب الجهة خلقيته إلى أن تقهرها وتفنيها من أصلها كالقطعة من الحديد المجاورة للنار، فإنها بسبب المجاورة والاستعداد بقبول صفات النارية والقابليّة المختفية فيه، تتسخّن قليلاً قليلاً إلى أن يحصل منها ما يحصل من النار من الإحراق والإضاءة وغيرها، وقبل ذلك كانت مظلمة كدرة باردة، فما ظنك بالروح الإنسانية والنفس الناطقة القدسيّة القابلة للخلافة الإلهيّة والوجود الحقاني بالتصفية والتسوية؟ **﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾**[٩].

وكيف لا وقد وقع في الآثار المأثورة، أنّ للمقربين إلى الملوك الظاهرية علامات وشواهد يعرفون بها، ويتميزون بها عن غيرهم ولهم جلالة وسلطان عند العساكر والجنود والرعية، وكل هذا من ناحية التقرب الذي لهم إلى هؤلاء السلاطين، فكيف لا يكون للمقربين إلى الحق المتعال آثار السلطنة الحقيقية الحقّة الإلهيّة، وقد ورد: "عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي أقول لكل شيء كن فيكون". ثم ذلك التوجه لا يمكن إلاّ بالمحبة الذاتية الكامنة في العبد، وظهورها لا يكون إلاّ بالاجتناب عما يضادها ويناقضها، وهو التقوى **﴿إنّ الله يحب المتقين﴾**[١٠]، **﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[١١] **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**[١٢]، فالمحبّة هي المركب والزاد والتقوى.

موانع تا نكردانتي زخود

درون خانه دل ناديت نور

موانع جون در اين عالم جهار است

طهارت كردن از وى هم جهار است

نخستين باكي از أحداث وأنجاس

دوم از معصيت وزشرك ووسواس

سوم باكي سراغست از غير

كه اينجا منتهى مى كرددت سير

وجود لاتوهمة خار است وخاشك

برون انداز از خود جملة راباك

وصال حق زخلقيت جدائي است

زخود بيكانه كشتن آشنائي أست

برو تو خانه دل را فروم روب

مهيا كن مقام وجاى محبوب

هرآنكو كرد حاصل اين طهارات

شود بي شك سزاوار مناجات

توتا خود رالأبكلى در نبازى

نمازت كى شود هركز نمازى

جو ذانت باك كردد از همه شين

نمازات كردد آن دم قرّة العين

كسى كو از نوافل كشت محبوب

به لاى نفي كرد أو خانه جاروب

درون جان محمود أو مكان يافت

وبى يسمع وبي يبصر نشان يات(١٣)

الولي والنبي:

الفناء المذكور موجب لأن يتعين العبد بتعينات إلهية وصفات ربانية مرة أخرى، وهو البقاء بالحق، وهذا المقام أتمّ من دائرة النبوة، ولذلك

انختمت النبوة والولاية دائمة، وجعل الولي اسماً من اسماء الله تعالى دون النبيﷺ.

فالرسالة والنبوة التشريعيتان لما كانتا من الصفات الكونية الزمانية، فتنقطعان بانقطاع زمان النبوة والرسالة. والولاية صفة إلهية لا تنقطع أبداً، ولا يمكن الوصول لأحد في الأنبياء وغيرهم إلى الحضرة الإلهية إلاّ بالولاية التي هي باطن النبوة.

نعم، النبوة التعريفية، وهي الإنباء عن المعارف الإلهية، ثابتة للأولياء وباقية ببقاء الولاية، إن لم تنقطع الدنيا باقية وعند انقطاعها ينقل الأمر إلى الآخرة.

ولما كانت الولاية أكبر حيطة من النبوة وباطنها لها، شملت الأنبياء والأولياء، فالأنبياء أولياء فانون في الحق باقون به، منبئون عن الغيب وأسراره لأنّ الولي هو الذي فني في الحق تعالى وعند هذا الفناء يطلع على الحقائق والمعارف فينبئ عنها. وهذا المقام كمقام النبوة اختصاص إلهي غير كسبي.

فأول الولاية انتهاء السفر الأول الذي هو السفر من الخلق إلى الحق بإزالة التعشّق عن المظاهر والأغيار والخلوص من القيود والأستار، والعبور من المنازل والمقامات والحصول على المراتب والدرجات.

وبمجرّد حصول اليقين للشخص لا يلحق بأهل هذا المقام، ولا بحصول الكشف الشهودي أيضاً، إلاّ أن يكون موجباً لفناء الشاهد في المشهود، ومحو العابد في المعبود.

فلا يتوهم العارف غير الواصل، والمشاهد بقوة استعداده للغيوب، والمتصف بالصفات الحميدة والأخلاق المرضية، غير السالك طريق الحق بالفناء عن الأفعال، والصفات والذات المتحقق بقرب المقام والنوافل والفرائض، أنه ولي واصل وقد قيل: العلم الحجاب الأكبر.

وقد قال صاحب كتاب الإشارات في مقامات العارفين: "من آثر العرفان فقد قال بالثاني"(١٤)، إنما يتجلى الحق لمن انمحى رسمه، وزال

عنه اسمه فالأولياء هم الذين تطهّروا من الصفات النفسيّة، وتنزهوا عن الخيالات الوهميّة، وتخلّصوا عن القيود الجزئية، وأدّوا أمانة وجودات الأفعال والصفات والذات إلى من هو مالكها بالذات، فعند فنائهم عن أنفسهم وبقائهم بالحق، يتصفون بالولاية ويحصل لهم ما هو غاية آمال العارفين:

در بيا با جون دور وديوار نيست   لا جرم در وى بجز انوار نيست
خانه درويش جون باشد خراب   بر بود از نور ماه وآفتاب[١٥]

وفي المجلد السابع عشر من بحار الأنوار عن أنس بن مالك قال: "قالوا: يا رسول الله، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال ﷺ: الذين إذا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، فاهتموا بآجلها حيث اهتم الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن يتركوه، فما عرض لهم عارض إلاّ رفضوه ولا خادعهم من رفعتها خادع إلاّ وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها وخربت بينهم فما يعمرونها، وحلّت في صدورهم فما يحبونها، بل يهدمونها فينبئون بها آخرتهم ويبيعونها يشترون بها ما يبقى لهم، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلّت بهم المثلات فما يرون أماناً دون ما يرجون ولا خوفاً دون ما يحذرون"[١٦].

النبوة المطلقة والمقيدة:

قال بعض الأعلام: لكل من النبوة والولاية اعتباران، اعتبار الإطلاق واعتبار التقييد، أي العام والخاص.

النبوة المطلقة:

والنبوة المطلقة هي النبوة الحقيقية الحاصلة في الأزل الباقية في الأبد، ولسانها: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين"[١٧]، "وحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة"[١٨]، وهي اطلاع النبي المخصوص بها على استعداد جميع الموجودات بحسب ذواتها

وماهياتها: "وإعطاء كل ذي حق حقّه"[١٩] الذي يطلبه لسان استعداده من حيث الإنباء الذاتي والتعليم الحقيقي الأزلي.

وصاحب هذا المقام هو الموسوم بالخليفة الأعظم، وقطب الأقطاب، والإنسان الكبير، والآدم الحقيقي، المعبّر عنه بالقلم الأعلى، والعقل الأول، والروح الأعظم.

وباطن هذه النبوة الولاية المطلقة، وهي عبارة عن حصول مجموع الكمالات بحسب الباطن في الأزل وبقائها إلى الأبد، ويرجع إلى فناء العبد في الحق وبقائه به، وإليه الإشارة بقوله ﷺ أنا وعلي من نور واحد"[٢٠].

النبوة المقيدة:

والنبوة المقيدة هي الإخبار عن الحقائق الإلهية، أي معرفة ذات الحق وصفاته وأحكامه، فإن ضمّ معه تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق وتعليم الحكمة والقيام بالسياسة، فهي النبوة التشريعية، وتختص بالرسالة وقس عليها بالولاية المقيدة.

فكل من النبوة والولاية من حيث كونها صفة إلهية مطلقة ومن حيث استناده إلى الأنبياء والأولياء مقيدة، والمقيد متقدم بالمطلق، والمطلق ظاهر في المقيد فنبوة الأنبياء كلهم جزئيات النبوة المطلقة وولاية الأولياء جزئيات الولاية المطلقة.

العلاقة بين النبوة والولاية:

قال بعض المتأخرين: إنّ الولاية لما كانت صفة إلهية، فهي غير منقطعة أزلاً وأبداً، ولا يمكن الوصول لأحد من الأنبياء وغيرهم إلى الحضرة الإلهية إلاّ بالولاية، التي هي باطن النبوة، وهذه المرتبة من حيث جامعيّة الاسم الأعظم للأنبياء، ومن حيث ظهورها في الشهادة لخاتم الأولياء، فصاحبها واسطة بين الحق وجميع الأنبياء والأولياء، ومن أمعن النظر في جواز كون الملك واسطة بين الحق والأنبياء، لا يصعب عليه

قبول كون خاتم الولاية، الذي مظهره الاسم الجامع أعلى مرتبة من الملائكة، واسطة بينهم وبين الحق. ثم المراد بخاتم الأولياء ليس من لا يكون بعده ولي في الزمان، بل المراد به من يكون أعلى مراتب الولاية أقصى درجات القرب مقاماً له، بحيث لا يكون من هو أقرب منه إلى الله تعالى، ولا يكون فوق مرتبته في الولاية والقرب مرتبة.

وهذه الولاية هي الخاصة التي تختص بأهل الله الفانين في ذات الله الباقين ببقائه صاحب قرب الفرائض، وهي قد تكون حالاً.

والأولى تختص بمحمد، ومحمد ﷺ نقلها إلى أوصيائه وورثته بالتابعية له، وأما الأنبياء السابقون وأوصياؤهم إن حصلت لهم، حصلت على أن يكون مقاماً.

يدل على ذلك رؤية كبرائهم في الأفلاك ليلة الإسراء، كل منهم في فلك، إما بمرتبة النفسانية أو العقلانية، والنفس والعقل وعقولها القدسية، أولياؤه تعالى بالولاية العامة، لا الخاصة، لأنّ وجوداتهم ليست وجودات حقانية، فإنّ الوجود الحقاني وجود جمعي إلهي، وهؤلاء وجوداتهم وجودات فرقية.

الولاية المحمدية:

وكلامنا في المقام لا في الحال:

فالولاية الخاصة وهي الولاية المحمدية، قد تكون مقيدة باسم من الاسماء وحدّ من حدودها، وقد تكون مطلقة عن الحدود ومعرّاة عن القيود، بأن تكون جامعة لظهورات جميع الاسماء والصفات، واجدة لأنحاء تجليات الذات.

فالولاية المحمدية قسمان: مطلقة وكلية من حيث كلية روحه المسمى بالعقل الأول، ومقيدة وجزئية من حيث روحه الجزئي المدبر لجسده، للمقيدة بالعدّة، وللمطلقة بالشدة، ويمكن أن يكون عالماً من علماء أمته خاتماً لولايته المقيدة، ووصياً من أوصيائه خاتماً لولايته المطلقة.

وقد تطلق المطلقة على الولاية العامة والولاية المقيدة المحمدية على الولاية الخاصة، وبما ذكرنا يندفع التشوش والاضطراب في كلماتهم ولا تتناقض العبارات.

الهوامش

(١) - سورة الشورى، آية : ٢٨.

(٢) - هذه الأبيات وردت في الدفتر الثالث من المثنوي. طبعة خاور. وحتى لا تفقد هذه الأبيات قيمتها الشعرية، نورد معناها نثراً: "أيها المفتكر في سر السلوك. تفكر قليلاً في حقيقة الدرب. واعلم أن الله حق يتجلى نوره في كل الوجود. وأعرف بعقل العارف أن صانع الأطباق قريب منها، فالسر يجول في كل الحدود. انظر ملياً إلى الأولياء لتدرك أن قربهم لم يكن من هباء. فهم صلّوا وصاموا وقدّموا أجسادهم هبات، ونسوا الدنيا وما فيها. وارتضوا قضاء الله وقدره دون لوم. أيها المتفكر في سر الوجود. كن على يقين واعرف أن الله يعطي الفضل لمن يريد. فالحديد في يد موسى ليّن واللين في يدك أنت حديد، فالقرب ليس بمحمد يعطى، إنما فعل العطاء من رب كريم. فالشمس تشرق على الناس جميعاً، ولكن القرب يناله الأقربون. فالنور يفيض على الناس جميعاً ولكن المدركون للحقيقة عددهم يسير".

(٣) - سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٤) - أنا عندما توضأت من يمين الغسق ناديت أربعة تكبيرات على كل شيء.

(٥) - سورة فاطر، آية ١٥.

(٦) - سورة فاطر، آية ٤١.

(٧) - الصدوق، الأمالي، تحقيق ونشر مؤسسة البعثة قم، ط١، ١٤١٧ هـ. ص ٦٠٤.

(٨) - الكليني، الكافي، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، ط ٤، ١٣٦٥ هـ، ص ٣٥٢.

(٩) - سورة الحجر، آية ٢٩.

(١٠) - سورة التوبة، آية ٤.

(١١) - سورة الحجرات، آية ١٣.

(١٢) - سورة آل عمران، آية ٣١.

(١٣) - وهنا معنى الأبيات السابقة: "وصال الإله ليس عسيراً. لكن عليك أن ترمي عنك درن الحياة. وتعود نظيف السريرة؛ لذلك أدرك أن النور لن يدخل قلبك حتى تهد الحجاب، وتهذب نفسك؛ لذلك اعلم أن الكون أضداد متتابعة نجاسة فطهر... شرك وإيمان... وإذا أدركت أن النجاسات أربعة. فاعلم أن الخير يساويها بالعدد، الأولى: الطهارة من الأحداث والأنجس. والثانية: خروج من المعصية والشرك والوسوسة. والثالثة: التخلص من الأخلاق الذميمة التي تجعل من الإنسان كالبهيمة. والرابعة: طهارة السر عن الغير وفيها تصبح مولوداً جديداً. وصاله الإله

ليس عسيراً ولكن عليك أن تصبح غريباً عن نفسك، فوجودك كله أوساخ وأدران، لذلك عليك أن تحضر منزل الروح. وتجعل منها مكاناً ومقاماً للمحبوب. فمن حصَّل كل الطهارات أصبحت نفسه مكاناً لائقاً للمناجاة".

(١٤) - ابن سينا، الإشارات، ج٤، ص ٩٩ .

(١٥) - معنى هذه الأبيات: كما النور يكون باهراً في الصحراء القاحلة لأنها ارتضت إرادة اله لها، هكذا يجب أن يكون منزل الدرويش خراباً. حتى تدخل إليه أشعة القمر والشمس".

(١٦) - المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣، ط٢، ج ٧٤، ص١٨١.

(١٧) - المجلسي "بحار الأنوار" ،ج١٦، ص ٥٨، رواية ١٩.

(١٨) - الكليني: "الكافي" م.س. ،ج١، ص ٥٨، رواية ١٩.

(١٩) - المجلسي: بحار الأنوار، ج٩، ص ١٣، رواية ٤، باب ٤.

(٢٠) - أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، تصحيح طيب الجزائري، قم، مؤسسة دار الكتاب، ١٤٠٤، ط٣ ج١، ص ١٨ .

الدرس الأول

مقدمات تأسيسية لشرح
رسالة في الولاية

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل الدّخول في نص الرّسالة، وقبل التحدّث عن خصائصها من الضروري تناول بعض النّقاط المهمة ليتضح من خلالها بعض المقدّمات الأولية للعرفان. ولماذا كان الكلام في هذا النص حول موضوع الولاية من بين الكثير من الموضوعات الأخرى المتعلّقة بالعرفان؛ لذلك لا بدّ من معالجة خمسة موضوعات كمقدمة لهذه الرّسالة.(١)

١- الدليل المعتمد في علم العرفان :

لإثبات أيّ قضية من القضايا لا بد من اعتماد دليل ما أو اتباع منهج ما له علاقة بطبيعة العلم المبحوث فيه. فبعض العلوم تعتمد على الجانب التجريبي من البحث والبعض الآخر يعتمد على الدليل العقلي وغيره على الحدسيّات إذا كانت من العلوم المعتمدة كطريق من الطرق العلميّة التي يمكن لنا أن نثبت من خلالها أيّ قضيّة من القضايا.

فما يسمّى بالعرفان على ماذا يعتمد، وما هي طبيعة الدليل الذي يعتمده؟

يعتبر بعض العرفاء الشيعة أنّ هذا الدليل يعتمد على ما يلي:

أ - أقضية الواردات الكشفية.

ب - المخاطبات العيانية.

هذان الأمران ينبغي أن يكونا مقيدين بالعبارة التالية:

"بحسن متابعة الأنبياء عليهم السلام الذين هم روابط رقائق الحقائق في عين الجمع إلى محل التفصيل". وحسن المتابعة(٢) هو الالتزام التام،

وكلما كان الالتزام أكثر كان حسن المتابعة له أكثر. وهذا الالتزام إمّا بالقول أو بالفعل أو بنفس الحال. أمّا الأول فهو الالتزام بالقول الذي يقوله وهذا المسمّى بالشريعة. وأمّا الثاني فهو الالتزام بفعله بأن يقوم بالفعل الذي يقوم به وهو المسمّى بالطريقة. وأمّا الثالث هو الالتزام بنفس حاله بحيث يرى ما يراه وهو المسمّى بالحقيقة. وهو الخط النهائي للعارف أي الهدف الذي يقصده العارف.

توضيح:

وكلمة وارد (الوارد الكشفي) وكأنّ شيئاً يرد علينا من الخارج، وهو عبارة عن تجلٍّ من حضرة الذات الإلهية[٢] وهو يحصل في العالم وقد يكون أي جزء من العالم (السماء، الأرض، فلان أو غيره) وكل هذا الوجود هو العالم المخلوق. وهذا الوارد ينكشف للعارف عبر مشاهداته في العالم، وهذه إحدى المصادر أو الطرق التي يتلقاها العارف بحيث ينكشف له تجليات الحقائق وليست التجليات إلا نفس الحقيقة وليس أمراً آخر. مثلاً: عندما يدرك العارف أنّ الله حيّ لا يستطيع أن يتجاوز هذه المعرفة المفهومية إلاّ عندما يعايش نفس حقيقة الحياة، بحيث تنكشف له بكل تجلياتها. عند ذلك هذا المعنى للحيّ يصبح أمراً مكشوفاً بالنسبة له. والمخاطبات العيانية غالباً هي تحصل بسبب حسن المتابعة مع الأنبياء عليهم السلام الذين هم روابط.

مثلاً : قد نقرأ في بعض القراءات أو المسموعات، أن ابن عربي عندما تحدّث عن كتابه "فصوص الحكم" قال: "إنّ هذا ما نصه عليّ رسول الله محمدﷺ ويعتبره أمراً إلزاميا". وذلك لأنّه يعتبر أنّ ما يراه في الرؤيا حضورٌ حقيقيٌّ للرسولﷺ وكلام حقيقي صدر منه موجّه إلى ابن عربي. وليست كل مشاهدة ومخاطبة في لغة أهل العرفان خطاباً عيانياً. في اللغة: رأيت فلاناً معاينة أي واقعاً ودقة كل كلمة قالها لي فهمت منها كذا وكذا، وأنا حين أجيبه فهم مني كذا وكذا. إذاً هو لم

يتلبّس كل كلمة سمعها وإنما كل كلمة فهمها، والمخاطبة العيانيّة هنا ليست ما فهمه العارف، بل كلمة النبيﷺ صارت ذلك هذا العارف، حقيقة سر ذلك العارف. وحين يقول له النبيﷺ : تأدّب، ليست مسألة أمر إنشائي بل تحويل سلوك هذا العارف إلى سلوك مؤدب. يقول العرفاء: إنّ مفتاح الكون هي كلمة كن لله عز وجل، و﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ هي بمثابة كن عند العارف تكوينياً. كما إذا أراد الله شيئاً قال له: "كن فيكون". وهذه المخاطبة قد تكون من المسموعات في التلقي، أو الأمور المسموعة أو المرئية. هذه المسائل يكون فيها الأمر عياناً وهي أمور مفصلة[٤].

٢- الحقيقة والرقيقة:

الحقيقة هي الذات، والرقيقة[٥] هي المرآة التي تعكس تلك الحقيقة. الخالق هو الحقيقة، والمخلوق هو الرقيقة، وباعتبار وجود خمسة عوالم كل عالم حقيقة للعالم الذي دونه وهو الرقيقة.

إنّ الواسطة بين الحقائق والرقائق هم الأنبياءعليهم السلام لذلك من أراد أن يصل إلى الحقيقة عليه بتوسيط الأنبياءعليهم السلام، إذ إنهم العلة بين الرقائق والحقائق. والسبب في الكلام عن موضوع الولاية هو للقول: أنّ هذه الواسطة الكبرى هي حقيقة الأنبياء المتمثلة بأعظمها وهو حقيقة رسول الله محمد ﷺ وآله الطاهرين.

٣ - موضوع علم العرفان:

قد يتطرق إلى ذهن البعض أنّ موضوع علم العرفان هو الكرامات. ولكن في الحقيقة إنّ مسألة الكرامات هي آخر ما يرد في العرفان، والموضوع الذي يبحث فيه العرفان هو العلم الإلهي. وقد أشار الملاّ صدرا إلى ذلك بقوله: أنّ العارف هو العالم أي الموحد؛ لأن العلم عنده هو التوحيد، فيكون العارف موحداً.

إذاً موضوع العرفان هو العلم الإلهي المطلق. وبما أنّه لا يوجد ما هو

أوسع دائرة من الله، فالعرفان هو العلم الذي يبحث عن العلم الإلهي المطلق، وهو العلم الأكثر شمولاً واتساعاً، وموضوعه يجب أن ينسجم معه، وأن يكون أكثر شمولاً.

إيضاح عقلي:

ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوفر في هذا الموضوع؟

في البداية لا بد أن يكون أعم الموضوعات مفهوماً (على مستوى الذهن) بل أتمّ المفهومات حيطةً وشمولاً (بحيث تشير العبارة إلى الخارج) بحيث يكون أعمّ الموضوعات ذهناً وخارجاً وأبينها معنى (لا يحتاج إلى أيّ معرّف، بل يستحيل في حقّه التعريف على ما حقق في كتب الحكمة وأقدمها تصوراً وتعقّلاً).

قد يسأل البعض: بأنّ هذا هو نفس الكلام في الفلسفة، إذاً ما ميزة موضوع العرفان عن موضوع الفلسفة؟

إنّ أهل العرفان بالعموم لا يعني لهم هذا الكلام شيئاً، ولكن هناك قسماً منهم دخل إلى العرفان بعد أن كان مشائياً[٦]. وكان هذا الدخول من بوابة المشّاء، مثل ابن تركه صاحب "تمهيد القواعد". وقد اعتبر هذا الكتاب من أهمّ الكتب التي عالجت موضوع العرفان على غير طريقة ابن عربي، وهذا التيار اعتبر أنّه يجب التمييز بين أمرين:

الأول: إنّ هذه المواصفات حول الأعميّة، والشموليّة، لموضوع العرفان وإحاطته مع كونها حيثيات في المفهوم، فالفلسفة حينما تتحدث عن الوجود فهي تتحدث عنه بما هو مفهوم لأن عملها في الكليات[٧]، وليس في الأمور ذات الطابع الشخصي الموجودة في الخارج. هذه النقاط هي حيثيات الموضوع الأعم بحيث ينظر إليها الناظر بعين العقل، هذا بالنسبة للمفهوم.

الثاني: وأمّا حين الحديث عن هذه المواصفات، ليس على مستوى الحيثيات والجهات في العرفان، وإنما يكون الحديث على مستوى الشيء

في ذاته، بحيث يكون العارف نفسه هو الذي يتكلّم عن الحقيقة الذاتية الواقعية، القائمة فعلاً، ليس عن مفهومها، بل الأعمية في خاصيّة هذا الموضوع.

من هنا قيل إنّ الفرق بين الموضوع في الفلسفة وبين الموضوع في العرفان كالفرق بين المطلق والمقيّد.[8] وحاول البعض التعبير كثيراً عن هذا الموضوع بلفظ، قالوا: إنه من أصعب الأمور، وأقرب شيء إليها كلمة "الوجود". ولو وجدنا كلمة أفضل منها لالتزمناها، فسمّه ما شئت، ليس مهماً، إذ إنّ المقصود هو الشيء الأعم.

وسأل البعض: لماذا لا يسمى بالكون؟ فقالوا: بأنّ الكون أقلّ من دائرة الوجود، ولهم نقاش خاص حول هذا الأمر.

٤- الأعراض الذاتية لعلم العرفان:

لكلّ موضوع علم أعراضه الذاتية. هل لهذا الموضوع العلمي أعراض ذاتيّة بحيث يكون كل ما يبحث مع هذا العلم داخلاً ضمن ما يسمّى بالأعراض الذاتية؟

الأعراض الذاتية المختصة بهذا العلم هي الاسماء والصفات الإلهية.

قد يرد هنا إشكال!

مع القول إنّ الاسماء والصفات هي عين الذات فإنّ اسم الحيّ مثلاً غير الرّازق والرّازق غير المهيمن في ظاهره، (أي كما يظهر لنا) ولكن كل اسم من الاسماء الإلهية مستبطن لجميع الاسماء، وظهوره يكون بهذا الاسم الخاص. فهل يمكن أن يكون كل اسم من هذه الاسماء موضوعاً للعرفان؟

إنّ الدور الذي للذات هو لكل اسم اسم، لذلك سميت الذات "مجمع الأضداد". صحيح أنّ اسم المصور مستبطن لجميع الاسماء، لكن لا أن يبرز فيه بقيّة الاسماء. لذالك هو الله ...الرحمن...الرحيم...الملك... فعندما يكون البحث حول العلم، فالمراد هو الاسم الذي يمكن له أن يعبر

عن الكل، وليس التدقيق المتعلق به.

٥- مبادئ علم العرفان:

كل علم فيه مبادئ تقسم إلى تصورية وتصديقية، وكذلك العرفان له مبادئ تصورية ومبادئ تصديقيّة.

أ- المبادئ التصوريّة لعلم العرفان هي عبارة عن أمهات الحقائق اللازمة للحق المسماة بالاسماء الذاتيّة.

ب - المبادئ التصديقيّة هي إثبات الاسماء لنفسها أو أن نثبت علاقة كل اسم باسم، مثلاً: اسم الحي هل يقتضي بالضرورة أن يكون علمياً؟ من هنا كان لا بد من المبادئ التصديقيّة لتثي الأمر.

بعد أن ثبت أنّ المبادئ التصديقية إثبات الأسماء لأنفسها ولوازمها، والمبادئ التصورية هي نفس هذه الأسماء، والأعراض الذاتية هي الاسماء والصفات، كما أنّ موضوع هذا العلم هو الذات الذي فيه كل هذه الأمور. كل هذا يشكل جهة من العرفان مفادها التوحيد وهذا هو الجانب المعرفي للعارف، فالعرفان هو عرفان العارف بهذا، الذي يمكن أن يوجد عند كل إنسان بالتوسط، وهذا التوسّط:

إمّا بالتجلي: وهو توسط بين الذات وبمن تتجلى عليه.

أو بالأنبياء: الذي يسمّى بصاحب الكشف الأعلى، وصاحب الكشف الأعلى به تتجلى الذات بالاسماء والصفات وهو المقصود والذي خاتمه الحقيقة المحمدية ﷺ مما يجعل من المستحيل وجود عرفان للعارف بدون توسط هذه الحقيقة، وهذا ما يسمى بالولاية التكوينية للإنسان الكامل.

على ما تقدم، هل يمكن أن يحصل الإنسان على عرفان بدون هذا التوسط؟

لا يمكن هذا أبداً، لأنّ من عرف حقيقة ولاية الأنبياء وولاية خاتمهم صلوات الله عليه وعلى آله الذي "أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد"[٩]، إذا علم هذا الأمر فقد عرف التوحيد والتجلي والنبوة

والكشف وتمام الدائرة (أي دائرة المعرفة)[١٠]. من هنا كان البحث حول رسالة في الولاية لأنّها الطريق الأكثر قرباً وقدرةً على الإيصال.

تنبيه: من المسلّم أنّ المطلوب من أي سالك، في طريق السير والسلوك، أن يلتزم شيخاً بطريقة من الطرق، قريباً أو بعيداً. كما يجب أن يكون هذا الشيخ على شأن ما، إلا أنّ هذا الطريق يصبح مضلاً إذا إنحرف عن الأصل الأساسي الذي هو صاحب الكشف التّام الموجود مع كل زمان، وفي زماننا هو قائم آل محمّد ﷺ، لذلك فإن عرفان العارف بالدقة هو الارتباط بالإمام الحجة عجلّ الله فرجه الشريف بحقيقة الأمر. ومن المستحيل أن يكون هناك سير وسلوك ومنهج عرفاء إذا لم يكن هناك إرتباط عياني بقائم آل محمد(عج). ومن الضروري أن يبقى القلب مشتعلاً بالشوق إلى اللحظة التي يأذن فيها قائم آل محمد أن يتقدم بلقائه لأنها لحظة تجلي العرفان للعارف.

وعرفان العارف الفعلي هو الاتصال بمكمن التجلي التام الذي هو حقيقة رسول الله ﷺ.

الهوامش:

(١) - إنّ هذه الوجيزة في بيان معنى الولاية بحسب الحقيقة، وما لهذه الولاية من أقسام وشؤون وأحكام، إضافة إلى بيان كيفية السلوك، وسبل تحصيل المعارف الإلهية. وهذه الرسالة تدخل في مقولة العرفان وليس الفلسفة ومبادئها غير مبادئ الفلسفة، وهي بالرغم من اختصارها إلا أنها تحتوي على مسائل قيمة، وفيها تحدث الإشتياني عن الولاية والإنسان الكامل لكونهما لا يفترقان عن بعضهما، وذلك لانّ كلاً منهما تأويل للاخر، وبما ان الولي - كما سيأتي بيانه - اسم من اسماء الله الحسنى، فإن الإنسان الكامل هو أعلى مظهر وتجلٍّ لهذا الاسم.

وقد ورد ذكر الولاية في القرآن الكريم بلاحظين الأول: ولاية الله تعالى فالله هو الولي"(شورى٩)، ﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾ (النساء ٤٥)، ﴿واعتصموا

بالله وهو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ (الحج ٧٨)، ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور﴾ (البقرة ٢٥٧)، ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ (الأعراف ١٩٦)، ﴿والله ولي المتقين﴾ (الجاثية ١٩).

الثاني: ولاية الإنسان: ﴿الا انّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس ٦٢)، ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء الله بعض﴾ (التوبة ٧١)، ﴿والذين كفروا بعضهم اولياء بعض﴾ (الأنفال ٧٣)، ﴿واجعل لنا من لدنك ولياً، واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ (النساء ٧٥). والولاية هي مرتبة من مراتب القرب الإلهي. يتولى فيها الحق من حيث اسماؤه الحسنى. وهذه النسبة الخاصة للحق لا تكتسب مطلقاً وإنما هي تعيين إلهي. فالذات المقدسة لما كانت قادرة عالمة، وكانت في خفاء عن الظهور وأحبت أن تعرف، فاقتضت القدرة مقدوراً لتظهر فيه فخلق الخلق - أي الأشيا ء- لكي تظهر تلك الصفات فتعرف بها.

"لم يزل ربنا عز وجل والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور فلما أحدث الأشياء كان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور".

وقوله : القدرة ذاته ولا مقدور هي حقيقة كلية غير محدودة بحد وكليتها كلية الولاية الإلهية المطلقة..

(٢) - ﴿إن كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله ورسوله﴾ وكقوله:" من يطع الرسول فقد أطاع الله، تكون النسبة في اتباع الرسول معنويةً. وإليها أشار القرآن الكريم بلفظ الدخول في قوله تعالى: ﴿فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ لأن الدخول بحسب المعنى في "عباده" المخلصين الذين هم الأولياء والأوصياء هو من شأن من اتبع الرسول، أي إذا قامت القيامة الكبرى التي هي عبارة عن ظهور المعاني كلها بانقلاب الظواهر بواطن والبواطن ظواهر فلا اعتبار هناك للنسب الصوري والقرابة المجازية لقوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء، من اخيه وأمه وابيه وصاحبته وبنيه﴾.

وبما أنّ الرسالة والنبوة التشريعية تنقطعان بانقطاع النشأة الدنيوية، والولاية باقية أبداً لا يكون بين الخلق وآبائهم الظاهرة في الآخرة علاقة ونسبة من حيث التكليف والنبوة والرسالة لأنّ التكاليف قد ارتفعت والرسالة والنبوة قد انختمت بل تكون علاقة النسبة من حيث الولاية التي لا تنقطع أبداً.

(٣) - التجليات الاسمائية لها مرتبتان: الأولى: التجليات الاسمائيّة في عالم الذات والربوبيّة، مثل تجلي اسم الحيّ، السميع، العليم، والقدير والبصير. والثانية: التجليّات الذاتيّة الاسمائيّة في عالم الفعل مثل الخالق والرازق وغيرها. ولعل

المقصود من التجليات هنا هو انكشاف الحقائق في عالم الروح بدون الفناء فيها ولعله الأقرب أن يقال له حسب الاصطلاح الكشف والانكشاف.
(٤) - راجع كتاب سرح العيون في شرح العيون، حسن زادة آملي. عين في الحواس الظاهرة والباطنة، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية، ص ٥٢١ .

إنّ النفس الإنسانية البشرية في الحقيقة نور من أنوار الله المعنويّة، من الله بدأت وإلى الله تعود. وقد حدّها الحكماء حداً بحسب الاسم بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة، من جهة ما يدرك من الأمور الكلية ويفعل الأفعال الفكرية ولها نشآت أخرى. فالنفس جوهرة روحانية حيّة بذاتها، فإذا قارنت جسماً ما، صيّرته مثلها كالصورة الناريّة، فإنها جوهرة حارة إذا جاورت جسماً من الأجسام صيّرته حاراً مثلها.

وقد ثبت أنّ للنفس باعتبار ما يخصّها من القبول عمّا فوقها والفعل عمّا دونها قوتين: علاّمة وفعّالة بالأولى تدرك التصورات والتصديقات، ويعتقد الحق والباطل فيما يدرك ويسمى بالعقل النظري، وبالقوة الفعالة تستنبط الصناعات الإنسانية وتميز بين القبيح والجميل وتسمى بالعقل العملي. وللإنسان صورة من عالم الشهادة المحسوسة، وروحٌ من عالم الغيب الملكوتي وسر مستعد لقبول فيض النور الإلهي، وبالترقية يترقى هذا الإنسان من عالم الشهادة إلى عالم الملكوت وبمتابعة الأنبياء والأولياء يترقى من عالم الملكوت إلى عالم الجبروت والعظموت وهو عالم غيب الغيوب وإليه أشير في المناجاة الشعبانية "فتصل إلى معدن العظمة".
(٥) - الرقيقة هي اللطيفة الروحانية وقد تطلق على الواسطة اللطيفة الرابطة بين شيئين وكالمدد الواصل من الحق إلى العبد ويقال لها: رقيقة النزول وكالوسيلة التي يتقرب بها العبد إلى الحق من العلوم والأعمال والأخلاق المشيئة والمقامات الرفيعة ويقال لها العروج، ورقيقة الارتقاء وقد تطلق الرقائق على علوم الطريقة والسلوك وكل ما يلطف به سرّ العبد وتزول به كثافات النفس. "اصطلاحات الصوفية" للكاشاني، ص ١٥٠ ، التعريفات للجرجاني، ص ٤٩.
(٦) - أي كان يعتبر الدليل البرهاني والعقلي هو الموصل للحقيقة.
(٧) - رأي العلامة الطباطبائي.
(٨) - كل مباحث الفلسفة تدور مدار الوجود (البسيط والمركب، الحادث والقديم، الواجب والممكن) بينما مباحث العرفان تدور مدار الظهور وليس الوجود والعالم عند العارف مثل الظلّ بالنسبة إلى النور (الله هو النور وما سواه أشعّة نوره وظلاله).

(٩) - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ج٢٥، ص ٦٣.

(١٠) - الإشتياني يعتبر أنّ الأئمة الأطهار عليهم السلام هم فقط العرفاء الحقيقيون.

الدرس الثاني

ميزة العرفان عن الفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول صاحب كتاب "رسالة في الولاية" هذه الوجيزة التي استطاع أن يجمع فيها أهم المباحث بأيسر وأسهل أسلوب (أحمد بن محمد بن حسن الإشتياني). وأهميتها أنها تحمل لغة سهلة واضحة ودقيقة، وتطرح الأمور دون أي تعقيدات فلسفيّة تفيد في الوصول إلى كثير من المطلوب في مبحث "الولاية".

يقول: "الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين حجج الله على الخلق أجمعين، واللعنة الدائمة على كل أعدائهم إلى يوم الدين. وبعد، يقول العبد الفقير إلى رحمة الله، أحمد بن محمد الإشتياني: [1].

"وجيزة رسمتها في الولاية، مأخوذة جملة من كلمات المنتسبين إلى العرفان، ومؤلفة مما ساقوه في هذا المقام على حسب قول بعض الإخوان: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[2].

تنبيه:

إذا كانت السمة الخاصة بهذه الوجيزة هي سمة عرفانية فمن المفيد التّساؤل. أولاً: هل إذا كتبنا في العرفان تكون نوعية الكتابة تحمل خصوصيات عن بقية الكتابات أم لا؟ وهل الرسالة الموسومة مثلاً بالرسالة الفلسفية، يختلف الطابع الفلسفي[3] في كتابتها عن رسالة

مكتوبة بطابع عرفاني أم لا؟[٤]

هناك بعض الكتب أخذت سمة أنّها كتب أو رسائل فلسفية، وبالحقيقة إذا تم التدقيق فيها يلاحظ أنّها لا تنسجم مع طبيعة الفلسفة. لأنّه في الفلسفة يوجد ضرورة إقامة الدليل عند كل فكرة، وهذا الدليل ينبغي عليه أن يتناول القواعد الكليّة وينطلق منها. كما ينبغي لهذه القواعد أن تتأسّس على مجموعة من المسلّمات التي هي أشبه ما تكون ببديهيات أولية، لا تقبل أي جدل أو نقاش، ثم يكون الانتقال فيها إلى أمور طابعها جدلي، تريد أن تدل عليها أو تثبتها. فالعمل يكون بين الإثبات والنفي، وهي تحمل طابع الأمور الكلية. وكذلك في المباحث الكلامية فإنّا نلحظ نفس الأمر، وإن كان بحيثيّة أخرى، لأن المبحث الكلامي دائماً يكون المنظور شبهات الخصم، وتريد أن تبرر العقيدة التي تعتنق على أساس رد محل شبهات ذلك الخصم.

وأمّا في العرفان فهو موضوع أو لغة بالأحرى، تتحدّث عن الذات الإلهية وعن شؤونها وظهوراتها، وفيها من التسليم ما يحمل روح المعاينة. وهذا أمر يخالف الجدل في علم الكلام والمغالطات فيه والشبهات أيضاً، إذ إنّ علم العرفان ليست وظيفته الرد على الشبهات، أو القيل والقال.

١- الانبثاق عند العارف:

كان من الممكن لتفاحة "نيوتن" أن تقع محل مئات الرؤوس في عصر "نيوتن" لكنها لم تقع إلا على رأسه. مما كان سبباً بالفكرة التي راودته عن الجاذبية. وهذه الحالة يسمونها الانبثاق. كذلك في العرفان هناك أفكار مبدؤها الانبثاق. ففي قصة أحد العرفاء تحدث عن شيء أضاء له وهو مغمض العينين وفتحهما، الصورة كانت مشوّشة لديه وصارت واضحة، كما أنّ المسألة كانت ملتبسة عنده وصارت قاطعة.

هناك الكثير من الموضوعات لها طابع انبثاق فكرة[٥]، قد يتم الحديث عن هذه الفكرة إلا أنها قد تكون مشوّشة بالنسبة للآخرين وكذلك فهمها،

وتثبت في الذهن أيضاً مشوشة.

الدرس الفعلي لمراجعتها ليس كثرة القراءة في كتاب ما، بل بالدرس عن طريق التأمل، مثلاً: الحديث عن النبوة المطلقة والنبوة المقيدة، وكيفية سريان المطلق في كل مقيد. هذه الفكرة فيها الكثير من الانبثاق، وعند دراستها لا يمكن الاستفادة إلا بقدر "المطلق يسري في المقيّد". الدرس الفعلي للتصوّر والتعايش فعلاً مع معنى المطلق ومعنى المقيد، وكيف أنّ هناك مساراً ومسيراً فيه، ووحدة السريان، هذه بحاجة إلى شيء من التأمل. "إنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق"[٦]، وكل واحد يمكن أن يجد له الطريق المناسب.

إنّ هذه الرسالة الموسومة بكونها عرفاناً، فهمها يستحيل أن يحصل إلاّ من نفس المسانخة، أي بطريقة عرفانية. فعرفان العارف ليس دراسة الدارس بطريقة غير عرفانية.

زيادة كشف وتوضيح:

العرفان معرفة خاصية الأشياء:

قبل الدخول في آراء الفلاسفة والعرفاء لا بد من الإشارة إلى أنّ الكلام عن المنتسبين إلى العرفان وما ساقوه، هو إشارة إلى كل ما كتب في مقدمات الكتب التي تحمل طابع الانبثاق الروحي، وشرط تعلّم هذه العلوم إزالة العوائق الذهنية والخلقية. وكلمة عائق لا تقتصر عند حد، ولا يحل هذا العائق بكثرة الترداد بين السطور والصفحات في الكتب، وإنما القراءة تكون قبل القيام بالدرس الفعلي.

وهذا الدرس الفعلي يتم بإزالة العوائق والتمكّن من النفس والإلتفات اليها، والتأمل في هذه الفكرة. كما أنه من المفيد للطالب لطريق السلوك أن يدوّن كل ما خطر على باله من مسائل. فالعرفان ليس بحثاً في قواعد كلية، وإنما هو أساساً من كلمة المعرفة، وقيل إنّ المعرفة هي أمور جزئية[٧] مع صحة هذا المصطلح لغوياً إلاّ أنّ العرفان هو معرفة خاصية

الأشياء في ذاتها، خاصية الحقائق في ذاتها. وهذا أمر يعلو على الذهنّ. والمسأله الفعلية أنّ الذهن بالنسبة للعارف قنطرة إلا أنه يتعالى عنها، لكونه يبحث في خاصية الأشياء، و شرط هذا البحث أن يلتحم نفسياً وذهنياً مع مثل هذه الحقائق والأشياء.

الولاية في اللغة [٨]:

الإشتياني أول ما يبدأ رسالته يعرّف الولاية تعريفاً لغوياً يقول: "الولاية كما ذكرها أهل اللغة إذا استعملت بكسر الواو هي بمعنى الإمارة والتولية والسلطان". وإذا استعملت بالفتح (وَلايَة) فهي المحبّة ويقال أيضاً: إنها مأخوذة من الولي أي القرب بمعنى يليه.

وكما تمّ التعرف على هذه الأمور لغةً، يمكن التعرّف عليها أيضاً معنوياً. و البعد المعنوي يشترط فيه مناقشة هذه المسألة:

الكلام في اللغة، هو كلام عمّا تواضع عليه البشر. والمسائل اللغوية تشير إلى شيء يحصل في الخارج. مثلاً: ملكية فلان للمسبحة، مسبحته هي من باب فهم الارتباط بينه وبينها. اللغة تحقق نحو الارتباط والحاصل بينه وبين المسبحة. هذه الأمور تسمى ذات طابع اعتباري.

أي إذا اعتبر المعتبر أنّ الصلة بين فلان والشيء الفلاني يعبر عنها بكذا، هذا نحو من الاعتبار. هناك اعتبار من نوع آخر، مثلاً: بعتك هذه المسبحة، أي صارت ملكاً لك، لا أستطيع أن أطالبك بها بعد مدة من حيث الاعتبار أي القانون. هذه المسبحة تحولت ملكيتها من شخص لآخر. فالملكية للشخص الأول ليست حقيقية بل وضعية وتسمّى ناقصة. إلا أنّ صاحبها يتعامل معها وكأنها ملك حقيقي له، يستطيع أن يهديها لغيره ويتصرف بها كيف يشاء.

تبصرة:

هناك نحو من الاعتبار منّزل منزلة الحقيقة، فتعبير الولي سواءً كان

الإمارة أو التولية أو السلطان أو المحبّة أو القرب، هي مسائل تحمل طابع الاعتبار، لأنه إذا كانت بمعنى الإمارة والسلطان والتولية فهي مثل تداول الدنيا بين الناس، لو دامت للسابقين، لما وصلت للحاضرين. مع العلم أنّ الأمير يتعامل مع إمارته كأنه مالك حقيقي لها وينزلها هذه المنزلة.

أمّا المحبّة هي هذه الحالة المعنوية التي تحصل. وهناك مجموعة من المظاهر التي تحصل تسمى "وَلَه" أو "محبّة". وقول الرسول ﷺ: "من كنت مولاه فهذا علي مولاه"[٩] فُسّر "من كنت حبيبه فهذا علي حبيبه".

والقرب يعني، شيء قرب شيء آخر إذا وضعت شيئاً بينهما يصبح هو القريب و الأول بعيداً. فالقرب والبعد أمران نسبيان، لذلك القرب ليس من الأمور الحقيقية بل من الأمور الإضافية وهو نسبة بين أمرين.

الولاية المطلقة لله:

هذه التعابير اللغويّة إذا أسقطنا عنها نقيصه الاعتبار، وهذا مسلك العلاّمة الطباطبائي وتياره في نسبة المفاهيم والحقائق إلى الباري عز وجل، "أن تحذف النقائص وتبقى الحقيقة على صرافتها"[١٠] كما يقول. مثلاً: "المحبّة" إذا أزالت كل نقيصة فيها يصبح لديك المحبة الكاملة. فالله تعالى هو المحب، والمحبوب، والمعشوق بالمعنى الكامل.

إذا حذفنا من الولاية والتولية والسلطان نقيصة الاعتبار[١١] ماذا يبقى؟

يبقى تمام المعنى "معنى الحقيقة" وهنا تنسب إلى الباري ولياً وحبيباً ومعشوقاً والقريب "بل هو أقرب إليكم من أنفسكم، من حبل الوريد" ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ [١٢] هذه الأمور حينما تحصل على حقيقتها التامة، تكون نسبتها إلى الباري عز وجل. فولاية الله إذا أردنا إستفادة المعنى من اللغة حذفنا الاعتبار و العدميّات في شأن اللغة، لاعتبار المعنى ونسبته إلى الباري عز وجل.

الهوامش:

(١) - "الإشتياني، أحمد بن محمد، مقدمات تأسيسية في التصوف والعرفان، دار الهادي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص ٥٧.

(٢) - سورة البقرة، آية ٢١٣.

(٣) - في الفلسفة يبحث حول الموجود بما هو كلي، فالعقل هنا هو الأساس، والكليات من مختصات العقل. والعرفان هو أقصى درجات المعرفة، وهو مقتصر على النخبة من الناس، كما أنه يستطيع في نفس الوقت الوصول إلى مناطق مقفلة يعجز عنها العقل. فبالعقل يصل إلى مرتبة من الوجود بينما بالعرفان يصل إلى مرتبة أعلى. والعقل يتعرّف على وجود الأشياء عن طريق الماهيات أما العقل فإنه يتعرف على حقائق الأشياء بطريقة حضورية إذ إنّ غاية العارف تجرد الروح عن العلائق المادية.

(٤) - المقصود بمورد الاختلاف تناول الموضوع لا سهولة أو صعوبة الكتابة.

(٥) - قد ذكر الأمير محمد باقر بن محمد الشهير بالدماد الحسني في إحدى رسائله: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد كله لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد وآله الطاهرين، كنت ذات يوم من أيام شهرنا هذا وقد كان يوم الجمعة السادس عشر شهر رسول الله شعبان المكرم لعام ثلاث وعشرين من هجرته المقدسة، في بعض خلواتي أذكر ربي في تضاعيف أذكاري وأورادي باسمه الغني، فأكررّ: يا غني يا مغنٍ، مشدّدها بذلك عن كل شيء عن التوغل في حريم سرّه والانمحاء في شعاع نورهِ، وكان خاطفة قدسيّة قد ابتدرت إليّ، فاجتذبتي من الوكر الجثماني، ففكت حلق شبكة الحسّ، وحللت عقد حبالة الطبيعة، وأخذت أطير بجناح الروح في وسط ملكوت الحقيقة وكأني قد خلعت بدني، ورفضت عدني، ومقوت خلدي، ونضوت جسدي، وطويت إقليم الزمان، وصرت إلى عالم الدهر، فإذا أنا بمصر الوجود، بجماجم أمم النظام الجملي من الإبداعيات والتكوينيّات والإلهيات والطبيعيّات والقدسيّات والهيولانيّات والدهريّات والزمانيّات وأقوام الكفر والإيمان، وأرهاط الجاهلية والإسلام من الدارجين والدارجات، والغابرين والغابرات، والسالفين والسالفات، والعاقبين والعاقبات، في الآزال والآباد، وبالجملة آحاد مجامع الإمكان، ودارات عوالم الإمكان بقضّها وقضيضها، وصغيرها وكبيرها، بإثباتها وبإبدائها، حالياتها وآلياتها، وإذا الجميع زفّة زفّة، وزمرة زمرة، يجذبهم قاطبة معاملون وجوه ماهياتهم شطر بابه، سبحانه شاخصون بأبصار نياتهم تلقاء جنابه جلّ سلطانه من حيث لا يعلمون وهم جميعاً

بألسنة فقر ذواتهم الفاخرة وألسن فاقة هوياتهم الهالكة في صحيح الضراعة وصراخ الابتهال ذاكروه وداعوه ومستصرخوه ومنادوه يا غني يا مغني من حيث لا يعلمون، فطفقت في تلك الضجة العقلية أخرّ مغشياً عليّ، وكدت من شدة الوله والدهشه أنسى جوهر ذاتي العاقلة وأغيب عن بصر نفسي المجردة، وأهاجر ساهر أرض الكون، وأخرج من صقع قطع الوجود رأساً إذ قد ودعتني تلك الخلسة الخالسة حيناً حيوناً إليها، وخطفتني تلك الخطفة تائقاً لهوفاً عليها، فرجعت إلى أرض التيار، كورة البوار، وبقعة الزور وقرية الغرور تارة أخرى.

(٦) - باعتبار العبادة التكوينية والنظر الفنائي وأن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلايق وأنّ الكل مسبحون بحمده، معبد فيه أصناف العباد حتى البهائم والحشرات والنبات والجماد، فكل يعمل بتكليفه، ولا عصيان له أصلاً، وكل واحد مشتغل بصنف من العبادات فالبسايط عمّال يتحركون ويعملون أعمالهم الطبيعية من حركاتهم الطبيعية الجوهرية والاينية والكيفية تقرباً إلى الله بوصولهم إلى الدرجة المعدنية والنباتية، والمعادن والنباتات عباد يعبدون بعباداتهم الطبيعية من حركاتهم الكميّة والكيفيّة ذوقيّة أو شمية أو لونية في إستكمالاتهم أو إستحالاتهم المعدية والكبديّة وغيرها ليدنو إلى معبدهم بوصولهم إلى الدرجة الحيوانيّة، والحيوانات نسّاك يطوفون حول الإنسان ويؤدّون نسكهم من حركاتها المتفننة الطبيعية والنفسانية الشوقيّة.... ليحصل لهم الزلفى إلى مطلوبهم وكعبة مقصودهم الذي هو الإنسان فإنه باب من الأبواب إلى الله، وكذلك الأناسي كل واحد منهم مواظب عبادة تكوينية وحركات متقنة طبيعية ونفسانية شوقية أو عقلية عشقية، وفي هؤلاء العباد بالعبادة التشريعية والتشريعية مع التكوينية نور على نور إذا تحقق في الإنسان العارف الكامل يتخلق بأخلاق نور النور سبحانك....... يا خير المرهوبين.

= السبزواري الملا هادي، شرح الاسماء الحسنى، ج١، ص: ١٤٥ .

(٧) - هناك فرق واضح بين العرفان، والعلم ، بين التعرف على شيء وبين العلم به. يقال: إنّ العلم في اللغة يختص بالكليات، والمعرفة خاصة بالجزئيات والتشخص. ويقال: إنّ العارف بالله هو الذي يتعرف على الحق سبحانه بالمشاهدة الحضورية، وإنّ العالم بالله هو الذي ينتهي إلى الحق سبحانه من خلال البراهين الفلسفية.

وذهب البعض إلى أنّ الفارق بين العلم والعرفان من وجهين: الأول : من ناحية متعلق كل منهما كما ذكرنا - متعلق العلم كلي ومتعلق المعرفة جزئي -. والثاني: أنه أخذ في المعرفة نسيان الشيء المعلوم سابقاً. في حين أن العلم هو ما يدركه

الإنسان ابتداءً. وأما الشيء الذي كان معلوماً فغفُل عنه ونسيه ثم أدركه ثانياً. يقال له: إنه قد عرفه، وإنما يقال للعارف: عارف، لأنه يتذكر الأكوان السالفة، والنشآت السابقة على كونه الملكي ونشأته الطبيعية. وادعى بعض أهل السلوك - العرفاء- أنّ سبب التسمية هو تذكر عالم الذرّ، ويقول: بأنه لو أزيح حجاب الطبيعة الباعث على الغفلة والنسيان عن أعين السالك، لتذكر العوالم السابقة.

يقول الشيخ العارف الكامل الشاه آبادي - روحي فداه - : إنّ الحالة الروحية للنبي آدم عليه السلام كانت تجذبه نحو عالم الغيب والمقام المقدس، وتبعده عن عالم ملكه وعالمه الطبيعي. ومثل هذه الحركة الجذبية كانت تبعث على سلب الآدمية عن آدم عليه السلام، فسلّط الحق المتعالي، الشيطان عليه لكي ينتبه إلى شجرة الطبيعة وينعطف عن الجذبة الملكوتية، وينصرف إلى عالم الملك والطبيعة.

الإمام الخميني (قدس سره)، والأربعون حديثاً، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، الطبعة الرابعة، ص ٦٦١ .

(٨) - الولاية لغة في المجمع: قوله تعالى: "هنالك الولاية لله" هي بالفتح: الربوبية ... والولاية أيضاً: النصرة، وبالكسر: الإمارة، مصدر وليت، ويقال: هما لغتان بمعنى الدولة وفي النهاية هي بالفتح المحبة، وبالكسر: التولية والسلطان. إلى أن قال: والوليّ: الوالي، وكل من ولي أمره أحد فهو وليه، والولي هو الذي له النصرة والمعونة والولي الذي يدبر الأمر، يقال: "فلان ولي المرأة" إذا كان يدبر أمر نكاحها، وولي الدم: من كان إليه المطالبة بالقود. والسلطان ولي أمر الرعية.

والتولي يكون بمعنى الإعراض وبمعنى الاتباع، قال تعالى: "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم"، أي إن أعرضوا عن الإسلام، وقوله تعالى: "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" أي ومن يتبعهم وينصرهم إلى أن قال: قوله: "وإني خفت الموالي"، هم = العمومة وبنوا العم وقوله تعالى: " لبئس المولى ولبئس العشير" أي لبئس الناصر ولبئس الصاحب وفيه: "بني الإسلام على خمس" منها: الولاية، الولاية بالفتح: محبة أهل البيت، واتباعهم في الدين، وامتثال أوامرهم ونواهيهم إلى أن قال: وأصل الكلمة (أي كلمة الولاية) من الولي وهو القرب، يقال: " تباعد بعد ولي" أي بعد قرب. والولاية تشعر بالتدبير والفعل. راجع : الأنوار الساطعة، ص ٣٠١.

وفي اصطلاحات الصوفية للقاشاني: " الولي: من تولى الحق أمره، وحفظه من العصيان ولم يخله ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمالات مبلغ الرجال قال الله تعالى: "وهو يتولى الصالحين".

الولاية: هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين. راجع ص: ١١٢.

(٩) - القاضي ابن البراج (قدس سره)، جواهر الفقه، الناشر جامعة المدرسين، قم، ١٤١١، الطبعة الأولى، ص ٢٤٨.

(١٠) - وقد اعتبر العلاّمة الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿فالله هو الولي﴾ حصر الولاية في الله فمن الواجب على من يتخذ ولياً أن يتخذه ولياً ولا يتعداه الى غيره اذ لا ولي غيره. تفسير الميزان، الجزء ١٨، ص ٢٨.

(١١) - لأنّ الاعتبار ليس وجوداً قائما بذاته بل هو أمر عدمي بالنسبة للوجود الحقيقي.

(١٢) - سورة الأنفال، آية ٢٤.

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرّحيم

مرّ الكلام حول معنى الولاية لغة، وكيف يمكن التعاطي مع الموضوع اللغوي فيما يتعلق بمسألة مثل مسألة الولاية، وهل أنّ هذه الدلالات إذا أخذت من حقل البعد الاعتباري الموجود فيها، كان من الممكن بشكل ما نسبتها إلى الباري تعالى.

زيادة توضيح:

قبل الحديث عن الولاية اصطلاحاً من الأفضل إيراد هذه الرواية:
عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ.

"اعلم أنّ الله تعالى خلقني وخلق علياً من نور عظمته قبل أن يخلق الخلق بألفي عام إذ لا تقديس ولا تسبيح، ففتق نوري فخلق منه السماوات والأرض، وأنا والله أجلّ من السماوات والأرض، وفتق نور عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فخلق منه العرش والكرسي وعلي بن أبي طالب عليه السلام أفضل من العرش والكرسي، وفتق نور الحسن عليه السلام، فخلق منه اللوح والقلم، والحسن عليه السلام أفضل من اللوح والقلم، وفتق نور الحسين عليه السلام فخلق منه الجنان والحور العين، والحسين عليه السلام أفضل من الجنان والحور العين، ثمّ أظلمت المشارق والمغارب، فشكت الملائكة إلى الله تعالى أن يكشف عنهم تلك الظلمة، فتكلم الله عز وجل بكلمة، فخلق فيها روحاً، ثم تكلم بكلمة فخلق من تلك الروح نوراً فأضاف النور إلى تلك الروح وأقامها أمام العرش فزهّرت المشارق والمغارب فهي فاطمة الزهراء

صلوات الله عليها، ولذلك سميت الزهراء لأنّ نورها زهّرت به السماوات"[1].

وفي رواية عن الأعشى عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن علي ابن الحسن عليه السلام قال: "نحن أمان أهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماوات، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض. ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها"[2].

هذا النحو من الروايات الموجود هو الذي يشكل مورد النقاش حول الولاية، وهل هي شأن فيه حاكمية على الكون على نحو تفويض الأمر إلى أولياء الله؟ أم أنّ الولاية هي أمر اعتباري أعطاه الله سبحانه وتعالى لأوليائه من باب شرف الرتبة كما يقال مثلاً: هذا عبد صالح، هذا مؤمن، هذا عابد... ويقال: هذا ولي، وإلا في الاعتبار عند هؤلاء إذا لم تفعل ذلك تكون في مورد الشرك بالله تعالى بحيث يصبح لهم علاقة في الخلق. وإن كان لهم علاقة في الخلق فهم سبب الخلق وليس الله تعالى؟

من مقتضى الموضوعية البدء بالكلام من دون اتخاذ أي موقف،[3] إذ لا بد من التعرف بداية على كيفية طرح موضوع الولاية؟ وبعدها يمكن الحكم عليهم إمّا بالشرك أو بالإيمان.

الولاية اصطلاحاً:[4]

بحسب الاصطلاح: "الولاية حقيقة كلية وصفة إلهية، وشأن من الشؤون الذاتية".[5]

يلاحظ هنا أنّ التعريف لا يشمل الوليّ الإنسان، حتى الآن البحث هو عن منبع الولاية[6] وهذا المنبع متمثل بالذات الإلهية، بذات الحق تعالى وأنّ الولي الذي نقول له بالولاية اسم من اسماء الله تعالى فما معنى حقيقة كلية؟ صفة إلهية؟ شأن من الشؤون الذاتية؟

مراتب الحق تعالى:

للحق تعالى ثلاث مراتب:[٧]

١- الرتبة الأولى: هو تجلي الحق في حضرة الذات، تجلي نفسه لنفسه من نفسه ويسمى عند العرفاء بـ:"غيب الغيوب" أي هي الذات التي لا تدرك.

٢- الرتبة الثانية: تجلي الصفات وهو تعينات الذات بنفسه لنفسه في مظاهر كمالاته الاسمائية، وهنا بداية التجلي الذي يأخذ طابع الظهورات التي تحصل في عالم الاسماء، وهو عالم الوحدة، وفيه يظهر مطلق الحقيقة الوجودية بعد كمونها، وذلك يحصل عن طريق الفيض الأقدس.

٣- الرتبة الثالثة: وهي التجليات الوجودية الفعلية التي هي تعينات الحق بنفسه لنفسه في مظاهر الأعيان الخارجية[٨] أي الخلق. وهو عالم الوجدانية وظهورها عن طريق الفيض المقدس.

إشراق:

الفيض الأقدس[٩] هو عبارة عن التجلي الذاتي الحبي، الموجب لوجود الأشياء واستعداداتها[١٠] في الحضرة العلمية.

فنقول تقريعاً وتقريراً لما أسلفنا: إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خاتم الأولياء بالولاية المطلقة المحمدية بالإطلاق الأول: أي الجامعة لظهور جميع الاسماء والصفات الواجدة لأنحاء التجليات، وخاتم الولاية المقيدة المحمدية بالإطلاق الثاني، أي الولاية الخاصة.

وعيسى ابن مريم عليه السلام خاتم الولاية المطلقة بالإطلاق الثاني أي العامة، والمهدي القائم المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف خاتم الولاية المطلقة بالمعنى الأول وخاتم الولاية المقيدة بالمعنى الثاني والفرق بينه وبين جدّه أمير المؤمنين لما سيأتي بيانه.

ولاية القائم المهدي:

أقول ومن هذا البيان يُعرف مراد صاحب الفتوحات المكيّة محي الدين

بن عربي، حيث قال في الفصل الثالث عشر من أجوبة محمد علي الترمذي: "الختم ختامان: ختم يختم به الولاية مطلقاً، وختم يختم به الله الولاية المحمدية. فأما ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسى‌عليه‌السلام، فهو الولي بالنبوة المطلقة في زمان هذه الأمة، وقد حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة فينزل من آخر الزمان وارثاً خاتماً لا ولي بعده، فكان أول هذا الأمر نبي وهو آدم وآخره عيسى، أعني نبوة الاختصاص، فيكون له حشران: حشر معنا، وحشر مع الأنبياء والرسل.

وأما ختم الولاية المحمدية فهو لرجل من العرب أكرمها أصلاً وبدواً، وهو في زماننا اليوم موجود وعرفت به سنة خمس وتسعين وخمسماية، ورأيت العلامة التي أخفاها الحق عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية فيه وهي الولاية الخاصة لا يعلمها الكثير من الناس[١١].

ثم قال مزيداً لتوضيح المقصود، الولاية صفة إلهية وشأن من الشؤون الذاتية التي تقتضي الظهور، وأشار إليه تعالى بقوله: ﴿**هو الولي الحميد**﴾[١٢]، وهذه الصفة عامة بالقياس إلى ما سوى الله لاستواء نسبته تعالى إلى الأشياء. وعن الإمام موسى الكاظم‌عليه‌السلام: "استوى على كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء"[١٣]. فصورته ومظهره أيضاً عامة شاملة لجميع ما سوى الله، وليست صورة لجميع ما سوى الله سوى العين الثابت المحمدي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله، فصورة ذلك الاسم هي الحقيقة المحمدية‌صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقد كان صورة لاسم الله الجامع والصورة الواحدة لا تكون صورة للمتمايزين في العرض، فالاسمان في طول الترتيب، واسم الولي باطن اسم الله، لأن الولاية أخفى من الإلهية، فالولاية باطن الحقيقة المحمدية وتلك الحقيقة صورة للاسمين وظاهر لهما، فالحقيقة المحمدية مظهر للولاية الإلهية التي ظهرت بأوصاف كماله ونعوت جماله وهي النبوة المطلقة الجامعة للتعريف والتشريع.

ثم ظهرت الولاية الإلهية المحمدية بنعت الولاية، فصارت ولي الله وخليفة رسول الله، ثم ظهرت كل يوم في شأن من شؤونه، وفي كل مظهر بنعت من نعوته فصارت حجج الله وخلفاء رسول الله ﷺ إلى أن ظهرت بجميع أوصافه، فصارت قائمهم، ومظهر أوصافهم، وكلهم نور واحد وحقيقة واحدة، واختلافهم في ظهور أوصاف حقيقتهم الأصلية وهي الولاية المطلقة الإلهية كما ورد: "أولنا محمد، أوسطنا محمد، آخرنا محمد، كلنا محمد"(١٤).

فيرتفع ما يتوهم من التناقض في قولنا تارة: خاتم الولاية المحمدية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتارة أنه المهدي الموعود المنتظر(عج) لأنهما بل لأنهم عليهم السلام، نور واحد بالسنخ، والاختلاف بالشؤون والظهورات على حسب اقتضاء الحكمة البالغة.

فظهر أنّ ما في خاتم الولاية المحمدية هي الحقيقة النورية المحمدية، التي خلعت لباس النبوة، واكتست كساء الولاية وظهرت في صورة أوصيائه المعصومين. فإن شئت قلت: أمير المؤمنين، وإن شئت قلت: بأي إمام من الأئمة المعصومين عليهم السلام، إلاّ أنّ قائمهم أولى بذلك لظهور جميع الأوصاف فيه عليه السلام(١٥).

الخاتمة

هذه جملة من الكلمات التي ذكرها المسمّون بأهل العرفان في هذا المجال، ولو كان لما ذكره الحكماء الإسلاميون من القول بالعقول الطولية والأنوار القاهرة، والعقول العرضية المتكافئة المعبّر عنها بالمثل النورية، مجملاً صحيحاً ومستنداً قويماً، فإنّ الكبراء منهم كالمحقق الطوسي (قدس سره) قال في متن التجريد: "أما العقل فلم يثبت دليل على امتناعه وأدلة وجوده مدخولة"(١٦)، وإلاّ لكان حقيقياً أن يقال: "إنّ النور المحمدي ﷺ الظاهر في خاتم الأنبياء وأمير المؤمنين وسيدة نساء العالمين والأئمة المعصومين متحد بحسب الحقيقة مع تلك الأنوار القاهرة

الأعلين، وما هو في سائر الأنبياء وأوصيائهم مع الأنوار العرضية، والمثل النورانية بحسب مراتبهم "وتدبر في الأحاديث المروية في المجلد الأول من كتاب أصول الكافي، منها ما ورد في باب أن الأئمة (عليهم السلام) نور الله عز وجل: "عن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلناه﴾** (١٧)، فقال: يا أبا خالد النور والله هو الأئمة من آل محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وهم نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات والأرض، والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله تعالى نورهم عمن يشاء، فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبنا عبد ولا يتولانا حتى يطهّر الله قلبه، ولا يطهّر الله قلب عبدٍ حتى يسلم لنا، ويكون سلماً لنا: فإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر(١٨).

وفي باب خلقة النبي ﷺ والأئمة الطاهرين قبل خلق السموات والأرض منها: عن محمد بن سنان قال: "كنت عند أبي جعفر الثاني، فأجريت اختلاف السبعة، فقال: يا محمد إنّ الله تعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة، فمكثوا ألف عام ومن ثم خلق جميع الأشياء، فأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها وفوّض أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاؤون ويحرّمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلاّ أن يشاء الله تبارك وتعالى. ثم قال: "يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق، ومن تخلّف عنها محق، ومن لزمها لحق، خذها إليك يا محمد"(١٩).

ومنها ما روي عن المفضل: "يا أبا عبد الله، كيف كنتم حيث كنتم في الأظلّة؟ فقال: "يا مفضل، كنا عند ربنا ليس عنده أحد غيرنا في أظلّة خضراء نسبّحه ونقدسه ونهلّله، ونمجدّه وما من ملك مقرّب ولا ذي روح غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء، فخلق الكان والمكان، فخلق نور الأنوار الذي نورّت منه الأنوار وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً فلم يزالا أوليين إذ لا شيء كُوّن قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في

الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبد الله وأبي طالب"[٢٠].

ومنها ما روي عن جابر بن يزيد قال: "قال لي أبو جعفر: يا جابر إنّ الله أول ما خلق محمداً وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباحاً نورية بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلّ النور أبداناً نورية بلا أرواح وكان مؤيداً بروح واحد، وهي روح القدس فيه كان يعبد الله وعترته، ولذلك خلقهم علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلاة والصوم، والسجود، والتسبيح، والتهليل، ويصلّون الصلاة، ويصومون ويحجّون"[٢١].

وتدبّر أيضاً فيما وقع في الزيارة الجامعة الكبيرة من قوله: "وإنّ أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعض، خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين حتّى منّ علينا بكم"[٢٢]

ولو تأملت في ما قدّرناه من أول الرسالة إلى هنا، ثم تدبّرت في بقيّة الزيارة الكاملة لوجدتها منطبقة على جملة ما ذكرناه **﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[٢٣]، ثم ذكر بعضهم أنّ المبعوث إلى الخلق لما كان تارة من غير تشريع وكتاب من الله تعالى، وتارة بتشريع وكتاب منه سبحانه وتعالى، انقسم النبي إلى المرسل وغيره، فالمرسلون أعلى مرتبة من غيرهم لجمعهم بين المرتبتين: الولاية والنبوة، وإن كانت مرتبة ولايتهم أعلى من جهة نبوّتهم، ونبوّتهم أعلى من رسالتهم، لأنّ الولاية جهة حقيقتهم وفنائهم فيه تعالى، ونبوتهم جهة ملكيتهم، إذ بها تحصل لهم المناسبة للعالم الإنساني، فمقام النبوة برزخ بين الولاية والرسالة يعني أنها بعد الولاية. هذا ما وفقّت لرسمه في هذه الأوراق وفاءً بالميثاق، وأسأل الله أن يثبّتني على ولاية أوليائه الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. والحمد لله أولاً وأخيراً.

والحضرة العلمية: هي العلم الإلهي قبل أن تقدّر الأشياء، فتصبح موجودة ثم العينية.

الإشتياني يقول إنه اكتشف هذا الأمر من زاوية الحديث القدسي: "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف - الفيض الأقدس- فخلقت الخلق لكي أُعرف"[٢٤] -الفيض المقدس- والفيض المقدس هو عبارة عن التجليات الاسمائية، وهذه الاسماء موجبة لظهورات تقتضيها، فالله الحي مثلاً: يقتضي وجود الحياة، والله الرزاق يقتضي ضرورة الرزق، والله الولي هل تقتضي الظهور أم لا؟

إنّ هذه الاسماء موجبة لظهور ما تقتضيه استعدادات تلك الأعيان في الخارج. وعلى ضوء ما ذكرناه تحقق ما يلي:

يستحيل أن تتجلى الذات للاسماء قبل أن تتجلى الذات بنفسها لنفسها من نفسها. فمقتضى تجليها لغيرها كونها بحالة من التجلي الذاتي وهذا هو الوجه الغيبي - أو غيب الهوية أو عنقاء المغرب أو غيب الغيوب - وصحيح أنّ الاسماء في تجليات الذات بنفسها لنفسها، لكنها في حقيقة الوجود - الذات- هي كليات الحقيقة لا شيء آخر زائد على الذات. بل هي شأن من شؤون تجلٍّ. وهذه الاسماء لها اقتضاءات بأن تحول الحقيقة الكلية إلى تعيّنات خارجية غير مادية، وهذه الأفعال هي تجلي الاسماء وليس شيئاً مستقلاً عنها، وبالتالي فالأفعال أيضاً هي تجلي للذات، وليس لها من نفسها شيء، كلها ترجع إلى الذات. وليست سوى مراحل من الظهورات والتعيّنات.

مراتب الولاية:

والقول: بالولاية على أنّها حقيقة كليّة عند الاسماء غير دقيقة لأنها عند الأفعال، وبعد الأفعال تكون الأمور الجزئية وبحسب نص الرسالة فالولاية إذا كان الكلام عنها صعوداً "هي حقيقة كلية وصفة إلهية وشأن من شؤون الذات". وأمّا الولاية مع مقام الاسماء، تبدأ بالظهور فيقال لها: "صفة إلهية". وعندما تلحظ في مقام الأفعال فيقال لها: "حقيقة كلية" وليس المقصود هنا الكلي الطبيعي أو الكلي المنطقي، بل الحقيقة

المنبسطة والسارية في كل شيء، فهي مع كل شيء بحسبه. وأما القول على أنّها شأن من شؤون الذات لأنه لا يمكن التعبير عن الذات لا باسم ولا صفة، وإنما الإشارة إليها كأمر مجهول شأنه، مبهم وغير محدد.

هذه الولاية التي هي حقيقة وصفة وشأن تقتضي الظهور، وهذا الظهور يكون من الجزئيّات، في كل شيء بحسبه. وهي تسري في كل شأن من شؤون الخلق لأنها بذاتها وبطبيعتها تقتضي البيان والظهور. ﴿**الله هو الولي الحميد**﴾ (٢٥) فالولاية على نحو حصري هي لله، وإنما يظهر حكمها في جميع الأشياء، "فهي رفيق الوجود تدور معه كيفما دار"(٢٦).

مظهر اسم الولي:

إنّ ظهور الولاية في جميع الأشياء، يكون في عالم الحق والتجلي، وهذه الولاية من الباري تعالى وله بالأصل. وإن ذكر الشيخ "أنّ الولاية يظهر حكمها في جميع الأشياء"، فإنه لم يقصد أنّ هناك الأشياء والله وإذا أطلق كلمة شيء على الله فلأنه في الاعتبار الفعلي والعرفي "الوجود يساوق الشيئية" إذ ليس هناك غيرالوجود ولا وجود ليس بشئ(٢٧).

وعلى مبدأ أنّ الموجودات إمّا ممكنة وإمّا واجبة، فهل الواجب محصور فقط بالباري تعالى؟

على مشرب العرفاء الواجب ليس محصوراً بالله تعالى، إذ أنهم يعتبرون إنّ كل ممكن زوج تركيبي مؤلف من وجود وماهية، ويعتبرون أنّ بعض المستويات من الوجودات لا ماهية لها، وهي عبارة عن وجودات صرفة فلذلك يسمّونها وجودات واجبيّة.

إنّ موضوع الخلاف هنا هو الممكنات، هل يوجد ممكنات أم لا؟

على قاعدة "أنّ الشيء ما لم يجب لم يوجد" فإنّ كل موجود هو واجب الوجود وليس ممكن. والواجب(٢٨) إما بنفسه وإما بغيره وإطلاق الممكنات من باب ما تقتضيه الذات، وهذا من التنبيه والتذكير وليس من باب

التوصيف الدقّيق.

"فالولاية رفيق الوجود[٢٩] يدور معه حيثما دار" فهو يدور معه حيثما دار سواء كان نزولاً أم صعوداً، فهو بدأ من الذات إلى الاسماء إلى الأفعال ويسمى هذا بقوس النزول، ومن الأفعال للاسماء للذات وهذا ما يسمى بقوس الصعود. وعند القول: "الله ولي"، هذا صحيح وبالقول إنّ "علياً ّولي" فهو أيضاً صحيح، فتوليه للباري لا يخلّ بولاية أمير المؤمنين عليه السلام [٣٠].

الهوامش:

(١) - البحراني، السيد هاشم، مدينة المعاجز، مؤسسة المعارف الإسلامية، مطبعة فروردين، ١٤١٣ هـ، الطبعة الأولى، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٢) - الشاهرودي، الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة من المدرسين بقم المشرفة، ج١، ص ٢٢٤.

(٣) - من الواضح أنّ طبيعة البحث مساق بطريقة مفادها أنّ هناك قولاً له بعض الصلاحيّة في روايات موجودة، وقد اعتبرت من قبل الكثير من العلماء أنها ضعيفة السند، ولا تفسّر من قبلهم لأنّها ضعيفة وعندما يوردها العرفاء أو الذين يتحدثون عن الولاية التكوينيّة بدون إيضاح ومقدمات تؤدّي والعياذ بالله إلى الشرك به تعالى.

(٤)- أصلها ثابت وفرعها في السماء ،"فإن الولاية هي القرب أو المحبوبية أو التصرف أو الربوبية وكلها حق هذه الحقيقة وسائر المراتب ظل وفيء لها.

وهي رب الولاية العلوية التي هي متحدة مع حقيقة الخلافة المحمدية في النشأة الأمر والخلق. الامام الخميني قدس سره مصباح الهداية.

(٥) - يوجد كلّي طبيعي وكلّي منطقي وكلّي عقلي، وهذا ما يدرّس في الفلسفة، أما في العرفان فالكلام يكون عن الكلي الشمولي (السِعي) ويشمل كلّ الحقائق الوجوديّة فالعارف يقول: إنّ الله تعالى: "كلّي سعي شمولي" وهي حقيقة واحدة تشمل كل الموجودات داخلة فيها خارجة عنها. وليس موطن هذه الحقيقة العقل والبحث عن هذا الكلّي السعي لا يكون إلا في العرفان.

(٦) - وإليه أشار المحققون في اصطلاحهم بعين الحياة فقالوا: عين الحياة هو

باطن الاسم الحي، الذي من تحقق به شرب من ماء عين الحياة، الذي شربه لا يموت أبداً، لكونه يحيا بحياة الحق، وكلّ حيّ في العالم يحيا بحياة هذا الإنسان، لكون حياته حياة الحق. وهي المسماة بالعين الكافوري والحوض الكوثر في قوله: "إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا" الدهر آية(٦) وقوله: "إنا أعطيناك الكوثر" الكوثر آية: (١)، وإليها نسب الخضر -عليه السلام- لأنه شرب منها قطرة. وبالحقيقة (عين الحياة) هي عين الولاية الأصيلة ومنبع النبوّة الحقيقية. وإليها أشار أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - "إنّ لله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا منه سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم". راجع: حيدر الآملي، جامع الأسرار ومنبع الأنوار ، ص ٣٨١.

(٧) - هذه المواصفات الثلاث لم تخرج عن إطار الذات.

(٨) - أمّهات الأسماء الإلهية.

(٩) - الفيض في اصطلاح القوم على قسمين: الأقدس والمقدس، فأما الفيض الأقدس هو سرّ التجلي الذاتي الحبي، الموجب لوجود الأشياء وإستعداداتها في الحضرة العلمية ثم الفعلية، كما قال في الحديث القدسي: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف ...." وأما الفيض المقدس فهو عبارة عن التجلي الاسمائي الموجب لظهور ما تقتضيه استعدادات الأعيان في الخارج، فالفيض المقدس مرتب على الفيض الأقدس، والأقدس مرتب على الاسماء الإلهية، والاسماء الإلهية مرتبة على الكمالات الذاتية الأزلية القدسية. "الآملي، السيد حيدر، رسالة نقد النقود المطبوعة مع جامع الأسرار مع التلخيص، ص ٦٨٢.

(١٠) - القابليّات فيها.

(١١) - الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧ هـ، الطبعة الرابعة، ج ١١، ص ٣٨٣ .

(١٢) - هذا الكلام منقول عن تفسير قيصري رومي على "فصوص الحكم"، ص١٠٥٥.

(١٣) - سورة الشورى، آية ٢٨.

(١٤) - م. س ، الكافي، ج ١، ص ١٢٧.

(١٥) - المجلسي : بحار الأنوار، ج ٢٦، ص: ٦، رواية ١، باب ١٤.

(١٦) - القمشهي: "رسالة الولاية"، ص ٥- ٧.

(١٧) - الطوسي، محمد، "تجريد الاعتقاد، "إنتشارات أشكوري"، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ.ق، ص ٢٣٧.

(١٨) - سورة التغابن، آية ٨.

(١٩) - الكليني"الكافي" م.س. ج١، ص ١٩٤، رواية ١.

(٢٠) - م.ن. ج١، ص١٤٤.

(٢١) - م.ن. ج ١، ص ٤٤٢، رواية ١٠.

(٢٢) - المجلسي: بحـار الأنوار، م . س. ج ١٥، ص ٢٥، رواية ٤٧، باب ١، رواية ٤٧.

(٢٣) - ا لقمي، عباس، "مفاتيح الجنان"، دار الصفوة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٨٠٧.

(٢٤) - سورة النور، آية ,٤٦

(٢٥) - سورة الشورى، آية ٢٨.

(٢٦) - نص رسالة في الولاية.

(٢٧) - الشيئية هنا ليست بالمعنى المادي.

(٢٨) - عند الحكماء .

(٢٩) - المرافقة هنا من التعبيرات اللطيفة المستخدمة، لأنّ لغة العرفان لغة ودّ وأنس.

(٣٠) - كلما اشتدّ الوجود كلما إشتدّت أحكامه، وكلما قويت الولاية. فإذا خرج الوجود عن الضعف واشتد تظهر أحكامه وتغلب أوصافه ويصير مُظهراً بالنسبة إلى ما تحته، وبالنسبة إلى ما فوقه يصبح مُظهراً، فأمير المؤمنين عليه السلام ولايته تسري في الولايات الأخرى، فهو المَظهر وهو المُظهر.

والولاية المطلقة هي عبارة عن مجموع الكمالات بحسب الباطن في الأزل وإبقائها إلى الأبد كقول أمير المؤمنين عليه السلام : "كنت ولياً وآدم بين الماءَ والطين". وهذه الولاية ثابتة للحقيقة المحمديّة بالأصالة، ولأمير المؤمنين عليه السلام بالوراثة، ولا تكون بعده إلا للمعصومين عليهم السلام.

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

مرّ الحديث عن الوجهة التي انطلق منها الإشتياني في تحديد الولاية بحسب الإصطلاح، ومن الملفت أنّ الإشتياني تناول الولاية ببعدها المتعلق بالباري عز وجل ويكاد كل البعد المتعلق بالتعريف الاصطلاحي يكون محصوراً بهذا الجانب مما يستدعي السؤال: على رأي من فسّر الإشتياني مصطلح الولاية؟... هل هذا التفسير بحسب الصنعة عند العرفاء؟ أم بالعودة إلى الجانب القرآني؟ أو أنه أراد أن يفسّر شيئاً خاصاً به في مسألة الولاية؟

الولاية في القرآن:

اعتبر بعض المفسرين كالعلاّمة الطباطبائي والشيخ جوادي آملي أنّ هناك زوايا يجب أن يُلتفت إليها في تفسير كلمة "الولاية" اصطلاحاً، إذ إنها ليست محصورة بالجانب الألوهي والبحث فيها ينبغي أن يكون في معرفة منشئها، وطبيعتها!

في الواقع إنّ القرآن الكريم تحدث عن الولي أنه الله، وتحدث عن الولي بمعنى النبي، وتحدّث عن الولي بمعنى المؤمن الذي يمكن أن يكون المعصوم، وكذلك تحدث عنه بمعنى الإخاء. فهناك مراتب ومستويات متعددة أطلق اصطلاح الولي على كل هذه الأمور والموارد ولم يحصرها القرآن الكريم في دائرة الحقيقة الإلهيّة فقط، ولا في دائرة الشأن الإلهي فقط[1] وإنما تتفرع الولاية من ولاية الله تعالى. وأي ولاية مصدرها الباري عز وجل.

الولاية عند العرفاء:

يقول الشيخ آملي في كتاب "الإنسان الكامل في القرآن الكريم": "والوصول إلى هذه الدرجة[٢] هي نفس شهود توحيد الذات والصفات والأفعال". هنا يوجد توافق بين كلامه وكلام الإشتياني ويقول:

"الولاية عبارة عن قيام العبد بالله وتبديل أخلاقه بأخلاقه، وتحقيق أوصافه بأوصافه"، كما قال محمدﷺ "تخلقوا بأخلاقي"[٣] بحيث تكون أوصافه أوصافه، وقدرته قدرته، وفعله فعله، - كما ورد في الحديث القدسي-: "لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبي ينطق وبي يبطش"[٤]. وعليه فالولاية بالخلق بالحق على ما هم مأمورون به من حيث الباطن والإلهام، معترفون فيهم[٥] به لا بأنفسهم، وذلك لأنهم فنوا عن أنفسهم وبقوا به ﴿بالحق﴾ وبوجوده، وصاروا هو هو من حيث الحقيقة والذات، وغيره من حيث التعيّن والتشخّص، وهذا الفناء هو عبارة عن الفناء في العرفان لا الفناء في الأعيان. فإن ذلك غير ممكن كما هو معلوم من حال الأنبياء والأولياء.

يقول السبزواري صاحب كتاب شرح الاسماء:"الولي له معانٍ كثيرة منها المتولي لأمور العالم المتصرّف فيه". ولمّا كان الولي من اسمائه تعالى: ﴿وهو الوليّ الحميد﴾[٦] ولا بد لكل اسم من مظهر في هذا العالم، لم تنقطع الولاية بخلاف النبوة والرسالة فإنها تنقطع وينسد باب النبوة والتشريع"[٧]. وأما الفرق بين النبوة والولاية فقد قيل: إن النبوة وضع الآداب الناموسيّة والولاية كشف الحقائق الإلهية. والنبوة كمرآة لها وجهان، وجه إلى الحق ووجه إلى الخلق، وولايته من وجهه إلى الحق ونبوته من وجهه إلى الحق.

"الولاية قيام العبد بالحق عن فنائه[٨] عن نفسه وذلك بقولي: الحق إياه يبلغه غاية القرب والتمكين".

هذه ثلاثة نماذج لثلاثة عرفاء شيعة، وهنا يطرح هذا السؤال: هل هناك وحدة بالحقيقة في النظرة للولاية اصطلاحاً بين الإشتياني وبين هؤلاء القوم؟ أم أنّ هناك اختلافاً؟ وإن كان من اختلاف فأين هو؟

الولاية في الإنسان الكامل[٩]:

إنّ الإشتياني المحور عنده هو الذات الإلهية في تعريف الولاية (يدور معه كيفما دار، صعوداً أو نزولاً) إلا أنّ الإشكال ليس في الباري عز وجل مثلاً: لو قال أحدهم: "الله هو السماء والأرض والعرش والكرسيّ.. لن يقال: "لا" لكونه هو خالقهم وفاتقهم.. فلا إشكال هنا إلا إذا كان القائل منكراً لوجود الله، لأن الله مقرون بمستلزماته، وإنما مورد الإشكال في الإنسان. وهذا الإنسان[١٠] هل له ما لله من تصرف؟

من أهل العرفان أقربهم للإشتياني كان جوادي آملي، وقد ذكر :"هي نفس شهود توحيد الذات "ملحوظ هنا الشهود (أي الإنسان العارف) لأن الطريق في كلام العارف وخاصته عندما يصل للولاية، لا يتكلم عن الباري عز وجلّ. هذا المبحث الذي تطرأ له العرفاء الشيخ الإشتياني في الولاية يتطرأ له العرفاء في مبحث التوحيد، فهم يتكلمون عن هذه الحيثيّات، لكن الولاية باصطلاحهم تساوي الإنسان الكامل.

إنّ ما يتعلق بالإنسان الكامل من أمور ومستلزمات غير مفصولة عن مسألة التوحيد، والوجود بدائرتيه: النزول والصعود، لأنه بالقول بتمظهرات الذات وتجلياتها وتشؤناتها من مرتبة الذات إلى مرتبة الاسماء عبر"الفيض الأقدس" . ومن مرتبة الاسماء إلى مرتبة الأفعال عبر "الفيض المقدس" . والفيض المقدس والفيض الأقدس وجهان لحقيقة واحدة هي حقيقة الإنسان الكامل المسماة بالحقيقة المحمديّة[١١]. وعلى هذا الأساس قد يسأل أحدهم: هل الحقيقة المحمدية هي عين الوجود الساري، والوجود الظلّي، وعالم الاسماء، [١٢] أم هي شأن مختلف؟

الوجهة التي انطلق منها الإشتياني هي من الذات، أمّا على مصطلح

العرفاء فالبداية ليست من الذات بل من مكان آخر[١٣]. وما طرحه العرفاء أساساً، الولي بمعنى الإنسان الكامل. وهذا لا يعني أنّ الإنسان الكامل هو الله والله هو الإنسان الكامل فيكون النبي محمدﷺ هو الله، وأمير المؤمنين عليه السلام هو الله. وهنا يوجد إشارة مهمة وهي أنه عند العرفاء يكون الإنسان الكامل هو الفاني بالله، فكيف يكونون الله إذا كانوا هم الفانين فيه؟

تنبيه:

حيدر الآملي يقول :"هذا الفناء في الله، حين لا يصبح لديه هوية ولا ذات صار كل ما لديه هو البقاء بالله عز وجل، هو لا شيء، هنا سر العبودية وكماله. من هنا لا يمكن أن تقول عن الحقيقة المحمدية[١٤]: إنها غير شخص الرسول محمدﷺ هو عين حقيقته، التي هي نور بأجمعها. وفي بعض الروايات عند أهل العرفان أنهﷺ إذا مشى لا ظل له[١٥]، فهذه خصوصية له ﷺ. ولكن هذا لا يعني أنه الله والعياذ بالله. هناك قدسية وعظمة وتشؤن إلهي من الذات الإلهية، فيه وجه إلى الله تعالى، وحتماً فيه وجه نسبته إلى عالم الخلق بكل ما يعني عالم الخلق. وهذا الأمر يؤكد عليه العرفاء حين يتكلمون عن الولاية: من جهة أنه ولي، منسوب إلى وجه الحق، ومن وجهة أنه نبي منسوب إلى عالم الخلق. والباري عز وجل ذاته المقدسة ليس لها نسبتان بل نسبتها فقط إلى ذاتها، غير الباري له مثل تلك النسبتين. إذاً: الولاية تكون بسريان الذات في هذا العظيم المقدس دون أن تعني أنها شخصه.

واعتبر الإمام الخميني -قدس سره- والسيّد القائد وغيرهم من العرفاء، أنّ الكلام هنا يكون عن وجود إلهي [١٦]، منسوب إلى الباري عز وجل، ولا يوجد أصلاً أي شيء نتكلم عنه دون أن ننسبه إلى الباري، إذ وجوده لا يتحقق إلا بهذه النسبة. وهذا الكلام هو عن الارتباط والتعلق، الارتباط الكامل إلى حد الفناء لمحمد وآل محمدﷺ.

علاقة الولي بوليّه:

هناك فرق بين فعل الخلق والتصرف بالخلائق حتى لو أُعطى آل البيت كل أوصاف الباري بما فيها الخلق، تبقى هذه النسبة إلى الله تعالى. إذا كانت هذه هي طبيعة التصرف في كل شيء. إذا تحدث نبينا أو أمير المؤمنين صلوات الله عليهم بكل لغة الذل عن أنفسهم، بلغة فيها إشعار بالضعة، فيكون ذلك استدراك أنه بدون تلك النسبة هم لا شيء(١٧). وقد رُوي: أنّ أمير المؤمنينﷺ كان يقع ويغشى عليه من خشية الله. لماذا؟ لماذا كان يبكي عند ذكر الموت؟ مع العلم أنه يعلم أنه في أعلى عليين. ومع ذلك كان ﷺ عند ذكر الموت يصبح في حالة من الرهبة، فيصفرّ وجهه وترتعد فرائصه خوفاً من الباري عز وجل، وكان يغشى عليه في بعض الحالات وحينما يسأل عن السبب يقول ﷺ من هيبة الموقف بين يدي الله جل جلاله. ماذا لو قيل لأحد ما مثلاً: إن الإمام الحجة (عج) ينتظرك عند الباب ليقدّم لك مصحفاً هدية، فإنه لا يستطيع تحمل هيبة الموقف، مع أنّ اللقاء فيه ودّ. منشأ هذه الهيبة طبيعة الذات التي يودِ أن يلتقيها وذاته هو. فهذا الشخص يشعر بالضعة أمامهﷺ. وهذا سرّ علاقة الولي بوليه سبحانه وتعالى، وتخلّقه بأخلاقه وبالآداب التي يأمره بها سبحانه وتعالى.

على ضوء ذلك هذا الاصطلاح لا يظهر المورد الفعلي للمعالجة في مسألة العرفان. والكاشاني يعود ويتكلم عن مبحث القرب ثم أقسام الولاية "مطلقة" و"مقيدة" و"عامة" و "خاصة" إلى أن يصل للولي فيقول:"الولي هو الفاني فيه تعالى" ولكنه كان من المفروض أن يبدأ بالكلام عن "الولي" الذي هو اسم من اسماء الله تعالى ثم ينطلق منه ليحدد ما يقتضيه هذا الاسم وكل ما يتعلق به(١٨).

الهوامش:

(١) – وإن كان مرجع الولاية في نص القرآن حصراً للباري عز وجل .
(٢) – الولاية.
(٣) – المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م، الطبعة الثانية المصححة، ج ٥٨، ص ١٢٩ .
(٤) – "لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع له، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، فإذا دعاني أجبته وإذا سألني أعطيته" الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٣، ص ٢٥٤٠.
(٥) – الأولياء متصرفون في الخلق.
(٦) – سورة الشورى ، آية ٢٨.
(٧) – السبزواري، الملاهادي، الأسماءالحسنى، مكتبة بصيرتي، ج ١، ص ٩٠.
(٨) – الوليّ هو الفاني في الله تعالى الباقي بالله تعالى. والفناء نوعان: فناء هلاكي، وفناء استهلاكي، والفناء المقصود هنا هو الفناء الإستهلاكي، الذي هو فناء الجهة البشريّة في الجهة الربّانيّة، وليس الانعدام بمعنى الهلاك، وفناء الوليّ لا يعدم، إذ إنّ العدم شرّ والوجود خير، والعارف عندما يصل إلى الوجود المطلق لا يشعر بذاته ولا يشعر حتّى بعدم الشعور بذاته، وهو فناء عن الفناء. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به.
(٩) – قد شبّه الحكماء الإنسان الكامل بمنزلة مرآة كريمة مجلُوة واقعة وسط العالم، يحاذي بها شطر الخالق من جميع الجهات والحيثيات، وليس لغيره من النشأة هذه الجامعيّة والتماميّة، إذ لم تتيسر لأيّ من المخلوقات مرتبة الفناء والانقطاع عن ذاتها بالكليّة والتدرّج من صورة إلى صورة، ومن حال إلى حال، ولكل منها مقام محدد ومعلوم لا يمكنها تجاوزه، والارتفاع إلى ما هو أعلى. بينما الإنسان فإنّ له التقلب في أطوار النقص والكمال، والتحوّل في تقاليب الأحوال. وهذا الاستحقاق في النشأة الجامعيّة الإنسانيّة إنما يتحققّ بحسب جوهر ذاتها ، وقابليتها لمظهريته تعالى. فالإنسان الكامل لا بد أن يسري في جميع الموجودات كسريان الحق فيها، وذلك في السفر الثالث الذي من الحق إلى الخلق بالحق، وعند هذا السفر يتمّ كماله وبه يحصل له حق اليقين.
(١٠) بغض النظر إن كان معصوماً أم لا .
(١١) – والولاية الخاصة المحمديّة المطلقة هي التي ظهرت بأوصاف كماله تعالى

ونعوت جماله، وهي باطن الألوهيّة والجامعة للاسماء الإلهية، وهي موجودة في النبيّ وتكون مع الرسالة وكذلك هي في الوصيّ منحازة إليه وهذه الولاية الإلهية لا يمكن الإحاطة بحقيقتها ذاتاً، لأنها مختصّة بالنبيّ وآله عليهم السلام، لكونها حقيقتهم التي يعلمونها بالعلم الحضوري، وما يمكن أن يدركه غيرهم عليهم السلام، هو آثار هذه الولاية وليس حقيقتها.

(١٢) قد أجاد القيصري في مقدماته على شرح فصوص الحكم في الفصل الثامن: إنّ العالم هو صورة الحقيقة الإنسانية بقوله:"إنّ الاسم الله مشتمل على جميع الاسماء وهو متجلٍّ فيها بحسب مراتبه، فلهذا الاسم الإلهي بالنسبة إلى غيره من الاسماء اعتباران: اعتبار ظهور ذاته في كل واحد من الاسماء واعتبار اشتماله عليها كلها من حيث المرتبة الإلهية.

فبالأول تكون مظاهرها كلها مظهر هذا الاسم الأعظم، لأن الظاهر والمظهر في الوجود شيء واحد لا كثرة فيه ولا تعددّ وفي العقل يمتاز كل منهما عن الآخر، كما يقول أهل النظر: بأنّ الوجود عن الإلهية في الخارج وغيره في العقل فيكون اشتماله الحقيقة الواحدة على أفرادها المتنوعة.

وبالثاني يكون مشتملاً عليها من حيث المرتبة الإلهية اشتمال الكل المجموعي على الأجزاء التي هي عينه بالاعتبار الأول.

وإذا علمت هذا علمت أنّ حقائق العالم في العلم والعين كلها مظاهر للحقيقة الإنسانية التي هي مظهر للاسم الله، فأرواحها أيضاً كلها جزئيات الروح الأعظم الإنساني ....لذلك يسمى العالم المفصّل بالإنسان الكبير عند أهل الله لظهور الحقيقة الإنسانية ولوازمها فيه. ولهذا الاشتمال وظهور الأسرار الإلهية كلها فيها دون غيرها استحقت الخلافة من بين الحقائق كلها. فأول ظهورها في صورة العقل الأول الذي هو صورة إجمالية للمرتبة العمائية المشار إليها في الحديث الصحيح عند سؤال الإعرابي، أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ قال عليه السلام:" كان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء" أول ما خلق الله نوري" وأراد العقل " "أول ما خلق الله العقل".

وقال نصير الدين الطوسي قدس سره:" فالعارف إذا انقطع عن نفسه واتصل بالحق رأى كل قدرة مستغرقة في قدرته المتعلقة بجميع المقدورات وكل علم مستغرقاً في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الممكنات، بل كل وجود وكل كمال وجود فهو صادر عنه، فائض من لدنه فصار الحق حينئذٍ بصره الذي به يبصر، وسمعه الذي يسمع به، وقدرته التي بها يفعل، وعلمه الذيٍ به يعلم، ووجوده الذي به يوجد فصار العارف حينئذٍ متخلقاً بأخلاق الله بالحقيقة انتهى.

وفي قرة العين للفيض رضوان الله عليه: "قال بعض العارفين: إذا تجلى الله سبحانه بذاته لأحد يرى كل الذوات والصفات والأفعال متلاشية في أشعة ذاته وصفاته وأفعاله، يجد نفسه مع جميع المخلوقات كأنه مديرة له، وهي أعضاؤها لا يلمّ بواحد منها شيء إلا ويراه ملماً به، ويرى ذاته الذات الواحدة وصفته صفتها وفعله فعلها، لاستهلاكه بالكلية في عين التوحيد، ولما انجذب بصيرة الروح إلى مشاهدة جمال الذات إستتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة وارتفع التميز بين القدم والحدوث لزهوق الباطل عند مجيء الحق، وتسمى هذه الحالة جمعاً، ولصاحب الجمع أن يضيف إلى نفسه كل أثر ظهر في الوجود وكل صفة وكل فعل واسم لانحصار الكل عنده في ذات واحدة، فتارة يحكي عن هذا، وتارة عن حال ذاك، ولا نعني بقولنا هذا بلسان الجمع الا هذا".

ثمّ قال الفيض: " ولعل هذا هو السر في صدور بعض الكلمات الغريبة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة البيان وغيرها كقوله: " أنا نوح الأول، أنا آية الجبّار، أنا حقيقة الأسرار، أنا مورق الأشجار، أنا مونع الثمار، أنا مجري الأنهار، ... إلى أن قال عليه السلام: أنا ذلك النور الذي اقتبس موسى منه الهدى، أنا صاحب السور، أنا مخرِج من في القبور، أنا صاحب يوم النشور، أنا صاحب نوح ومنجيه، أنا صاحب أيوب ومنجيه، أنا أقمت السماوات بأمر ربي...

أنا نقطة باء بسم الله، أنا جنب الله الذي فرّطتم فيه، وأنا القلم، وأنا اللوح المحفوظ، وأنا الكرسي، وأنا السماوات السبع والأرضون..... إلى أن صحا أثناء الخطبة وارتفع عنه حكم تجلي الوحدة، ورجع إلى عالم البشرية، وتجلى له الحق بحكم الكثرة، فشرع معتذراً فأقرّ بعبوديته وضعفه وانقهاره تحت الاسماء الإلهية. انتهى

(١٣) – هذا لا يعني انه إذا انطلق من هذه الوجهة فهو خطأ ، صحيح أنه في موضوع الولاية الولي الأساس هو الله إلا أنه في تحقيق الاصطلاح هو ما يتعلّق بأصل الاختلاف.

(١٤) – واعلم أنّ الحقيقة الكلية الأولى المتعينة بالتعين الأول عند التحقق ليس لها اسم ولا رسم ولا وصف ولا نعت لأنّ الحق هي صورته كذلك فاختلاف أساميها حسب إعتباراتها في مدارج كمالاتها علماً وعيناً، فسمّوها بحقيقة لأنّ الحقائق كلها ترجع إليها ابتداءً وانتهاءً، وسمّوها بالقلم الأعلى لأنّ بها تنتقش العلوم والحقائق على ألواح الأرواح وسطوح النفوس كلها، وسمّوها بمركز الدائرة لأنها كالنقطة بين دائرة الوجود المنتهية إليها خطوط الموجودات كلها. ومن أساميها العقل الأول والتعين الأول والروح القدس والإمام المبين والروح الأعظم والنور

والإنسان الكبير والجوهر وخليفة اللغة وغير ذلك. "الآملي، السيد حيدر، رسالة نقد النقود المطبوعة مع جامع الأسرار مع التلخيص، ص ٦٩٠-٦٩٥.

(١٥) - وهذا الأمر أيضاً قد تحقق في أهل البيت أجمعهم فقد ورد في معاجز أبي محمد الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، المعجزة الحادية والأربعون أنه لا ظلّ له، قال أبو جعفر : "رأيت الحسن ابن علي عليه السلام يمشي في أسواق سرّ من رأى ولا ظلّ له، البحراني، السيد هاشم، مدينة المعاجز، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، ج ٧، ص ٥٧٥.

(١٦) - وهنا الكلام دقيق جداً عند أهل العرفان وليس عند أصحاب الشطحات.

(١٧) - إذا تم الفقر فهو الله.

(١٨) - اللغة العرفانية في هذه الرسالة مشوبة، نجد أنّ الكاتب عمل على المفهوم أولاً ثم عمل على تطبيقات على هذا المفهوم.

الدرس الخامس

تجلّيات الولاية

بسم الله الرحمن الرحيم

سوف يتمّ الكلام حول الفقرة التي تتحدث عن الوجود والولاية، يقول فيها. كما أنّ الوجود بحسب الظهور له درجات متشئنة ومراتب متفاوتة بالكمال والنقص والشدّة والضعف وتحمل عليها - المراتب - بالتشكيك، وكذلك الولاية إنها بعدما كانت بمعنى القرب فلها درجات متفاوتة ومراتب مختلفة بالكمال والنقص والشدّة والضعف ويقال لها بالتشكيك[1] وحتى تنتهي إلى قربه تعالى بالأشياء ولا أقرب منه بها، مع كل شيء أي بالمعيّة القيوميّة[2].

هذا المقطع سيتم تجزئته ثم يُعمل على الموضوع في الجانب الأول المتعلق به:

١) الدمج بين الوجود والولاية.

٢) إعطاء الولاية أحكام الوجود.

٣) المقصود من مقام القرب.

٤) الحديث عن المعيّة القوميّة:

الدمج بين الوجود والولاية:

بعدما أعطى الإشتياني للولاية بعد الولي، اعتبر أنّ الزاوية المنظور لها في موضوع الولاية هو الولي الذي هو الله، الذي هو أصل الوجود. فالكلام عن الولاية هو كلام عن الوجود. والذي سهل البحث في علمية هذا الأمر هو أن كل ما يتم الكلام عنه في مبحث "الحكمة المتعالية"

بموضوع الوجود يصح أن نتناوله في موضوع الولاية.

إعطاء الولاية أحكام الوجود:

صحيح أنّ الوجود هو رتب أقوى من رتب، ورتب أضعف من رتب، إلا أنّ الرتبة القوية هي عين الرتبة الضعيفة، والرتبة الضعيفة هي عين الرتبة القوية، لكن الرتبة القوية هي عين الرتبة الضعيفة وزيادة. والرتبة الضعيفة هي عين الرتبة القوية إلا أنها أنقص كمالاً منها(٣). وهذا هو الذي يفسر الوجود التشكيكي.

والوجود التشكيكي تارة نلحظه بما هو تشكيك عام، وتارة نلحظه بما هو تشكيك خاص. والتشكيك الخاص يعني أن رتبة الحيوان تختلف عن رتبة الإنسان(٤)، لكنه ليس اختلاف نفي، أي أنّ الحيوان هو "اللاإنسان" بل هو مستوى ما من الإنسان، كما الإنسان لا يعني لا حيوان بل حيوان إلا أنه أكمل من الحيوانات العادية، بل هو حيوان ذو إرادة ناطقية نفس ناطقية، عقل، مدبر،.... فهو يحوي رتبة الحيوان وهو أكمل من هذه الرتبة برتب، هذا التشكيك خاصي. على ضوء هذا يصبح الوجود واحداً، له معنى واحد يشمل الجميع، يختلفون بحسب الرتب بالقوة والضعف، والزيادة والنقص. هل يمكن أن تُعطى نفس أحكام الوجود للولاية؟ يقول الإشتياني: "كما أنّ الوجود بحسب الظهور له درجات متشئنة ومراتب متفاوتة بالكمال والنقص والشدة والضعف وتحمل عليها بالتشكيك فكذلك الولاية، فإنها بعدما كانت بمعنى القرب فلها درجات متفاوتة"(٥).

المقصود من مقام القرب:

وبناءً على قوله إنّ الولاية كالوجود، وبما أنّ الولاية لها معنى القرب فتحتمل كل ما يحتمله مفهوم الوجود. ولفهم هذه الرتب في الولاية لا بد من فهم معنى القرب. "فلها درجات متفاوتة ومراتب مختلفة بالكمال والنقص والشدة والضعف ويقال عليها بالتشكيك حتى تنتهي(٦) إلى قربه

تعالى بالأشياء".

يقول عنه العلاّمة الطباطبائي رحمة الله عليه: "القرب والبعد معنيان متضايفان - مثلاً كالأعلى يقابله الأدنى- تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية [٧]، ثم توسّع فيهما فاعتبرا في غير المكان، من الزمان ونحوه[٨] ثم توسع فيه فاعتبر في غير الأجسام والجسمانيات من الحقائق، وقد اعتبر القرب وصفاً له تعالى بما له من الإحاطة بكل شيء **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**[٩]. فهل القرب والبعد الزماني والمكاني ونحوهما هو المقصود في لغة أهل العرفان؟

مقام القرب في البعد الصوفي:

المقام هنا ليس فيه زمان ولا مكان وإنّما القرب من الله هو ما يتحدث عنه العارف. وهذا المصطلح وجده العرفاء في النص القرآني واستخدموه لمعنى ما.

في اصطلاحات الصوفيّة للفيض الكاشاني يقول: "هو التقابل بين الاسماء المتقابلة وهو مقام القرب الاسمائي باعتبار التقابل بين الاسماء في الأمر الإلهي". التقابل كالمحيي والمميت، والمبدِء والمعيد المسمّى دائرة الوجود كالإبداء والإعادة والعروج والفاعلية والقابلية - وهو الاتحاد بالحق في بقاء التمييز والإثنينية المعبّر عنه بالاتصال ولا مقام أعلى من هذا المقام إلا مقام بقوله "أو أدنى".

الحديث عن القرب تجاوز المكان والزمان والجسم والجسمانيّة، وإنما تناول إصطلاحاً إستخدمه العرفاء من لسان النص القرآني.

إنّ التقابل بين الاسماء ينتهي إلى وحدة الدائرة[١٠]، الله محيي تقتضي التنزل ليكون المحيي، الله المميت تقتضي الصعود. فالقول الأول والثاني هو كل الوجود. وكل تقابل بين الاسماء ينتهي إلى وحدة الدائرة. فهذا القرب لا هو قرب مكان ولا قرب زمان ولا غيرهما وإنما هو قرب الذات - نفس الذات - والمقصود فيها مقام في "القرب". وعند قوله في

الآية المباركة: "قاب قوسين"، قوس أول وقوس ثانٍ، لأنّه صعد برسول الله ﷺ إلى السماء ثم نزل إلى الخلائق. وهو عبارة عن قوس الصعود وقوس النزول، وعندها اكتملت الدائرة بمحمد وآل محمد ﷺ [١٢].

﴿فكان قاب قوسين او ادنى﴾[١٣] لأنه لا يوجد مقام أعلى من مقام القرب إلا مقام محمد وآل محمد ﷺ. واصطلاحاً عند أهل العرفان، مقام القرب هو مقام الدائرة التي تجمع ما بين الاسماء فالوجود هو إما علة وإمّا معلول، والموجودات إما واحد وإما كثير، وإذا تمّ الجمع بين الوجود والموجودات يصيران كل حالة الوجود، فهو إما علة أو معلول أو واحد أو أكثر. فكل حالة الفعل الإلهي هي ما بين مبدأ ومعيد، محي ومميت..... والجمع بينهما لتشكيل وحدة سميّت عندهم بالدائرة أي نقطة من الدائرة تنطلق منها وتعود إليها، وكأنها كلها عبارة عن شيء واحد، بالتالي ليس هناك بعد، وافتراض البعد افتراض سلبي، ويصح هذا الأمر فقط في الاسماء المتقابلة.

هو مقام العبودية لله الواحد القهّار (الوفاء بالعهد):

وأيضاً يقول في نفس الكتاب[١٣]: "القرب عبارة عن الوفاء مما سبق في الأزل من العهد الذي بين الحق والعبد في قوله: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾[١٤]، فالقرب إذاً هو الوفاء بالعهد الأزلي. وفي قوله تعالى: ﴿وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى﴾[١٥].

هناك أمر مخفي في هذا الحديث، ودائماً النقاش يكون حول وجود الروح قبل الجسد أم لا؟ فالروح كانت في عالم الذر ثم نزلت، والكلام في هذا المورد هو كلام الله الذي هو فوق الزمان بالمعنى الذي عندنا، ومن الأزل الإلهي وليس أزلاً بشرياً. فالله تعالى يتكلم عن أزل ذي طابع إلهي بشري، وهذا الأزل لا ينقطع، ﴿وأشهدهم على انفسهم﴾ ليس في مقطع زماني وانتهى، بل في كل لحظة هو أشهدهم على أنفسهم "ألست بربكم"

ومقتضى الوفاء في كل لحظة أن يقولوا: بلى، لذلك هو مقام القرب، لأنه تكوينياً هناك الشهادة على الأنفس بالعبودية لله القهّار.

القرب هو الأنس بالله:

هناك كلام لصاحب الميزان رضوان الله عليه في معرض تفسيره لآية: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب﴾[١٦]. يقول فيه إنّ الأنس عبارة عن روح القرب لأنّ القرب يوجب الجمعية[١٧] ظاهراً وباطناً بالنسبة للرسولﷺ، وهذا الأمر ممكن لكل أحد في الدنيا ولا لذة إلا في الجمعيّة فيوجب الروح [١٨] والبعد يوجب التفرقة ولا ألم إلا في التفرقة فيوجب البرح بالوحشة وهذا عمق مضمون دعاء كميل للإمام عليعليه السلام بقول علي عليه السلام: "أنّي أتحمل ألم العذاب ولكن لا أتحمل ألم الفراق"[١٩].

القرب هو مقام الخلوص لله:[٢٠]

الخلوص عند بحر العلوم صاحب كتاب "رسالة في السير والسلوك" هو عبارة عن مقام القرب وله مقامات متعددة، ومراتب ودرجات.

القرب هو مقام اليقين [٢١] - عين اليقين - :

السيّد حيدر الآملي يعتبر أنّ القرب هو مقام اليقين، وبما أنّ اليقين ينقسم إلى مراتب ثلاث: علم وعين وحق، فهو يعتبر إنّه في آخر رتبة وهي حق اليقين ولا يتوقف بل يبقى مستكملاً لرحلة التقرب والبقاء بالله سبحانه وتعالى. فالبحث في مقام القرب هو بحث عنه في عالم الاسماء كثرتها ووحدتها، في رتبتها ونسبتها للذات وعلاقتها مع الذات وبما لها من ظهورات على عالم الوجود والتكوين، فهو يبحث في الارتباط العبودي والعبادي بين الخلق وبين الحق فيما يسمّى بعهد ﴿الست بربكم﴾[٢٢] وأيضاً هو بحث في مسألة الأنس بالله - روح وبركات وجنّة نعيم - والتي قيل عنها بأنها الولاية لمحمد وآل محمدﷺ وعليهم أجمعين [٢٣]. وكذلك

البحث عنها يكون في مسألة الخلوص[٢٤] بمراتب اليقين والتي خاتمها، يبدأ منه بدايات لا نهاية لها في رتبة حق اليقين[٢٥].

تنبيه:

في مجموع هذا يمكن القول: إنّ البحث عما يسمّى بمقام القرب يوصل إلى أنّ الولاية بمعنى القرب وليس الولاية بمعنى الخلق، لأنّ الله الولي هو الله الخالق لكلّ شيء وهو القريب من كلّ شيء، بل أقرب من كل شيء منه إلى ذاته. إلا أنّ القرب والولاية هنا بالمعنى الخاص وليس بالمعنى العام[٢٦]، من هنا لا بدّ من معرفة من هم المقربون؟

اعتبر العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه القرب أ يضاً وصفاً للعبادة في مرحلة العبوديّة، ولمّا كان أمراً اكتسابيّاً يستعمل فيه لفظ التقرب، فالعبد يتقرّب بصالح العمل إلى الله سبحانه وتعالى وهو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهيّة (الخاصة) بزوال أسباب الشّقاء والحرمان، وإليه يقرب بمعنى إنزاله - العبد - منزلة يختصّ بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى ومعرفته ورحمته، قال تعالى: **﴿كتاب مرقوم يشهده المقرّبون﴾**[٢٧]، وقال تعالى: **﴿ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون﴾**[٢٨]، فالمقربون هم الخط الأعلى من أصل السعادة كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى **﴿والسابقون السّابقون أولئك المقرّبون﴾**[٢٩] ولا يتم ذلك إلا بكمال العبوديّة كما قال: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾**[٣٠] ولا تكمل العبوديّة إلاّ بأن يكون العبد تبعاً محضاً في إرادته وعمله لمولاه - رضا محمد ﷺ رضا الله تعالى- إرادة الله تعالى. لأنه لا يريد إلا ما يريده الله. وهذا هو الدخول تحت ولاية الله تعالى، فهم أولياء إليه **﴿وأمّا من كان من المقربين فروح وريحانٌ وجنة نعيم﴾**[٣١].

وقد تقدّم غير مرّة أنّ النعيم هي الولاية لمحمد وآل محمد صلوات

الله عليهم أجمعين، فالقرب هو عين الولاية، ولفهم الولاية لا بدّ من فهم القرب جيّداً، لذلك يوجد هنا بعض الملاحظات:

١) إنّ الباري عزّ وجل عندما تحدّث عن قربه للأشياء كان الحديث عن قربه من كل شيء، فهو المحيي والمميت لكل شيء، قابض لكل شيء ومرسل لكل شيء، فالاسماء الإلهيّة خاصّة بكل شيء. وفي نفس الوقت عندما يقال: إنّ هناك حالة خاصّة هذا لا يعني أنّ هذه الحالة تختلف عن كلّ شيء، لأنه ليس هناك إلهان بل يوجد إله واحد هو للكل إلا أنّه "وزيادة" فيما هو خاص، كلما صار "وزيادة" ومع ذلك فهو قريب من كل شيء، أقرب إليه من حبل الوريد، من نفسه. هذا في الرتب الخاصة المتعلقة بهذا الأمر.

٢) عند القول: إنّ الله أقرب إلينا من حبل الوريد: "يا أقرب من كلّ قريب"[٣٢] في الفلسفة نقول: وإنّ كل زوج تركيبي يتألف من وجود وماهيّة، وفي الخارج ليس عندي اثنان بل واحد وهو الوجود، وهو الذي ينقسم في الذهن إلى وجود وماهيّة. كيف يكون إليه أقرب للوجود الإمكاني من ذاته؟

❖ أولاً الوجود هو الأصيل والماهيّة هي الشيء العرضي، والقاعدة تقول: "إن الشيء ما لم يجب لم يوجد"، وعلى ضوء ذلك الأقربيّة هي للوجودية.

❖ ثانياً: الوجود الرابط ليس له من نفسه شيء، ووجوده يحصل برابطيّتة، بعلته، بواجب الوجود الذي هو المولى عزّ وجلّ. فهو سرّ كامن، رقيقة من تلك الحقيقة. فالأصل هناك ليس من ذاته. لذلك فالله تعالى هو أقرب من كلّ شيء إلى كلّ شيء، في ذاته، بل من كل شيء بنفس ذاته. هذا المعنى أيضاً له علاقة بالولاية، وسوف يبرز لأنه من خلاله سوف يظهر معنى الرتب للولاية. هناك أمر يجب أن نعرفه حين نتكلّم هذا الكلام وهو "المعيّة القيّوميّة": ﴿**وهو معكم أين ما كنتم**﴾،[٣٣] معنى المعيّة القيّوميّة سيتمّ معالجته لاحقاً إن شاء الله.

الهوامش:

(١) - الوجود المشكك والولاية المشككة في الاصطلاح الفلسفي والحكمة المتعالية يعني: ذو درجات، والاصطلاح يناسب المعنى اللغوي فالإنسان يقع في الشك عندما يقف على شيء واحد ذي مراتب مثل النور، كل مرتبة لها حكم خاص وهنا الإنسان يشك: هل هذا الحكم أو الوصف يصدق على هذه المرتبة أو تلك؟ من هنا سمّي الشيء الذي له درجات بالتشكيك وذو مراتب متفاوتة يعني مشكك.

في التشكيك يوجد وحدة ويوجد كثرة، والكثرة ترجع إلى الوحدة، والوحدة تسري في الكثرة، مما يعني أنّ الوحدة في عين الكثرة والكثرة بما هي كثرة هي عين الوحدة.

صحيح أنّ هذه الرسالة تبحث من خلال المنهج العرفاني، إلا أنّه لا بد من تفسيرها وتبيانها من خلال الفلسفة.

(٢) - وارد في نص "رسالة في الولاية".

(٣) - ليس النقص هنا بمعنى السلب وإنما النقص بمراتب الكمال.

(٤) - أي عن رتبة الإنسان الوجوديّة.

(٥) - يوجد قرب للولي بحيث يكون العبد مبدأ لأفعاله وصفاته، وتسمّى بقرب النوافل، ويوجد قرب للولي بحيث يكون الله مبدأ لأفعال العبد وصفات العبد وهو قرب الفرائض. ففي الأولى يفنى العبد في الله تعالى، يرى بعين الله ويسمع بسمع الله... فيكون الله تعالى متجلياً بالاسم الباطن، والعبد يظهر باسم الظاهر، وهنا تكون أنانيّة العبد لا تزال موجودة "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى". وأما في الثانية: " ما تقرّب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه...." فيكون الله هو الظاهر والعبد مستور ومخفيّ. وفي هذا المقام ترتفع انيّة العبد.

(٦) - هناك فرق بين الإضافة الإشراقيّة والإضافة المقوليّة. الإضافة الإشراقيّة هي عند العرفاء بمعنى أنه يوجد شيء واحد ولا يوجد طرفان موجودان. وأما الإضافة المقوليّة هي عند الفلاسفة، وهي نسبة بين طرفين موجودين تكون عرضيّة وعرَضيّة

(٧) - قريب مكانياً أو بعيد مكانياً.

(٨) - زمان قريب وزمان بعيد.

(٩) - سورة ق، آية ١٦.

(١٠) - أي قوسي النزول والصعود.

(١١) - هذه الأسماء المتقابلة بالتوحيد فيما بينها تشكل وحدة فعل إلهي كامل (دائرة الوجود).

(١٢) - سورة النجم، آية٩.
(١٣) - إصطلاحات الصوفيّة.
(١٤) - سورة الأعراف، آية ١٧٢.
(١٥) - م.ن.
(١٦) - سورة البقرة، آية ١٨٦.
(١٧) - الإجماع .
(١٨) - أي الراحة في الإنس.
(١٩) - كليات مفاتيح الجنان، ص ٦٢."وهبني صبرتُ على عذابك فكيف أصبر على فراقك".
(٢٠) - والخلوص والإخلاص عند علماء الأخلاق هو حقيقة واحدة إلاّ أنها ذات مرتبتين. وعدّوا الخلوص والإخلاص في المقامات والمنازل بمنزل واحد قال الشيخ النراقي: ضدّ الرياء الإخلاص وهو تجريد القصد عن الشوائب كلها، فمن عمل طاعة رياء فهو مراء مطلق، ومن عملها وانضمّ غير مستقل فعمله مشوب غير خالص، ثم أعلى مراتب الإخلاص- وهو الإخلاص المطلق، وإخلاص اليقين "راجع: جامع السعادات، ج٢ ص ٤٠٢، "الإخلاص منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات اليقين وهو الكبريت الأحمر، وتوفيق الوصول إليه من الله الأكبر (م.س، ج ٢، ص ١٢٨) وقد ورد في الحديث القدسي: "الإخلاص سر من أسراري". واعتبر بحر العلوم عالم الإخلاص هو نهاية مقدمات السير والسلوك والسفر إلى مقام القرب الإلهي وهو عالم الفتح والظفر ويكون بعد الجهاد الأعظم وأشير إليه بقولهم : "أحياء عند ربهم يرزقون". وعندئذ تقوم عليه القيامة الأنفسية العظمى ويتخلى عن الأجسام والأرواح والتعينات والأعيان بأسرها، ويفنى عنها جميعاً ويضع قدم سيره في عالم اللاهوت ويبقى فائزاً بالحياة الحقيقية الأبدية، وينتقل شامخاً من المعاينات الجبروتية إلى التجليات اللاهوتية **﴿إنّ هذا لهو الفوز العظيم* لمثل هذا فليعمل العاملون﴾** راجع م.س، ص ١- ٢.
(٢١) - إنّ السالك إذا دخل في السير إلى الله تعالى لا بدّ له من أن يزهد عن كل ما يعوقه عن هدفه ومقصوده من مستلزمات أمور الدنيا ولا بد من الارتياض وذلك يكون من خلال ترك الالتفات إليه والزهد فيه، وهو في هذا الطريق يحتاج إلى المواعظ وخطابات المتألهين، لأنها تفيد في الترهيب والترغيب كما أنه يحتاج إلى العبادة تشرفاً للانتساب إليه تعالى بالعبوديّة. وبعدها يبدأ بتلطيف حقيقته الإنسانيّة المعبّر عنها تارة بالروح وأخرى بالقلب، وأخرى بالعقل بقبول تجليات الحقّ، ويستعين السالك على ذلك بالفكر اللطيف والعشق العفيف وفي كل أوقات

ومراحل المسير يكون دائم المحاسبة لأفعاله وأقواله، بحيث يكونا مرهونين في كل ما يأمر به الشرع والعقل. فإذا حصّل السالك لنفسه الخلوص والصفاء بتوير باطنه تتفتح له أبواب الملكوت فيشاهد الأنوار الإلهية والعلوم الغيبية. فإذا ذاق شيئاً منها رغب في العزلة والخلوة، والذكر والمواظبة على الطهارة التامّة، والمحاسبة والمراقبة، وفرغ القلب عن كل ما سوى الله تعالى وتوجه إليه بالكليّة: فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة العظيمة وفني في الله وبقى ببقائه فإنه يسري بالحق في الحقائق كلها، فيحصل له حق اليقين، لسريانه بالذات الإلهية في عين مظاهرها بحيث يجد الحقائق والعلوم الإلهية في ذاته ذوقاً ووجوداً. وعين اليقين تصورها الحقائق وإدراكها مطابقاً لما في نفس الأمر وهو للأولياء الكاملين، وأما علم اليقين للعلماء الراسخين في العلم.

(٢٢) - سورة الأعراف، آية ١٧٢.

(٢٣) - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "حديثنا صعب مستصعب لا يحتمله: إلا صدور منيرة أو قلوب سليمة وأخلاق حسنة، إنّ الله أخذ من شيعتنا الميثاق كما أخذ إلى بني آدم حيث يقول عز وجل: "**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى**"، فمن وفى لنا وفى الله له بالجنة، ومن أبغضنا ولم يؤد إلينا حقنا ففي النار خالد مخلد". الصفارة، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، مؤسسة الأعلمي، مطبعة الأحمدي، طهران، ص، ٤٥

(٢٤) - هي رتبة من المراتب العالية والتي كانت لبعض الأنبياء.

(٢٥) - مقام الولاية أعلى من مرتبة حق اليقين ويعبر عنها ببرد اليقين ، راجع: البزواري، الملا هادي، شرح الأسماء الحسنى، ج ١، ص ٢٠٠. فالولي عنده حق اليقين وعنده برد اليقين وقد ورد في بحار الأنوار أنّ برد اليقين هي روح الطمأنينة في قلوب المؤمنين.

❖ وقد ورد في إصطلاحات اللئالي قوله صلى الله عليه وآله: "وضع يده" المراد باليد هنا القدرة وكني بها عن الآثار الحاصلة عن ذلك الكشف وكونها بين كتفيه أو بين ثدييه لأنها محل القلب الذي هو محل الكشف، وعبّر عن البرد الحاصل عن ذلك الوضع بوجود اليقين التام ووجه المناسبة بينه وبين البرد، سكون صاحبه عن الطلب ولهذا جاء في الحديث "من وجد برد اليقين استغنى عما سواه" الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، مطبعة سيد الشهداء، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢ م، الطبعة الأولى، ج ١، ص ٥٢.

(٢٦) - أقسام الولاية.

(٢٧) - سورة المطففين، آية ٩، ٢١ .

(٢٨) - م.ن. آية ٢٧- ٢٨.

(٢٩) - سورة الواقعة، الآية ١٠-١١.

(٣٠) - سورة النساء، الآية ١٧٢.

(٣١) - الطبطبائي، السيد محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم الشريفة، ج ١٩، ص ١٢١ .

(٣٢) - دعاء الجوشن الكبير.

(٣٣) - سورة الحديد، آية ٤ ,

الدرس السادس

مراتب القرب

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقام القرب:

بعد الكلام حول ما يمكن تسميته بمقام القرب، وهو مقام خاص بالمخلصين من عباد الله سبحانه وتعالى، الذي اعتبره أهل العرفان أنه لا يتمّ إلا بالشهود والمكاشفة[1] يرد هذا السؤال: ما هي حالات الشهود والمكاشفة المؤدية إلى القرب؟ إجابة على هذا السؤال يجري الكلام بالتفصيل عن مقام القرب.

أقسام مقام القرب:

مقام القرب هو حالة من الدنو من المحبوب بالقلوب. والقلب هو مركز الحياة الفعليّة الإنسانيّة، وهو مجمع كلّ هذه الأمور عند العرفاء، فهو يقترب من الله ويدنو منه الله بقلبه. وهذه الحالة من القرب قسمان:

أولاً: قرب النوافل:

النّافلة: هي العمل المستحب الذي يلي الفريضة، إذ إنّ هناك الأصل وهناك الفرع، والنافلة هي فرع على ذلك الأصل. إنّ كل إنسان له صفات خاصّة، يمكن أن يكون حكيماً، ويمكن له أن لا يكون حكيماً، يمكن أن يكون عليماً ويمكن أن يكون جاهلاً، يمكن أن يكون شجاعاً أو جبانا، يمكن أن يكون جواداً أو بخيلاً. إذاً: كلّ إنسان له صفات يتحلى بها، فإذا استبدل الإنسان هذه الصفات الخاصة به بصفات الباري عزّ وجلّ وسعى

لأن يتخلق بها ويتحلى فإنه يدنو من الباري عزّ وجلّ. ففي الرواية: "تخلّقوا بأخلاق الله"[2]، فإذا كان الله جواداً فكن جواداً وإذا كان الله حليماً فكن حليماً، وباتصاف الإنسان بصفات الباري يقترب منه تعالى. وهذا القرب يترك أثراً. ما هو الأثر الذي يصدر عن هذا القرب؟ يقول الإشتياني:

أولاً: إنه يسمع المسموعات من بعيد.[3]

ثانياً: إنه يبصر المبصرات من بعيد.[4]

ثالثاً: يحيي ويميت بإذن الله.

وهذا القسم من القرب هو مقام فناء الصفات الإنسانيّة في صفات الباري، وبهذه الصفات يقترب من الله تعالى، وهذه ثمرة قرب النوافل. إذاً قرب النوافل هو أحد الخطوات التي تؤمّن المشاهدة والعيان للسالك.

وفي حديث جرى بين النبي ﷺ وبين شابّ سأله النبي ﷺ كيف حالك اليوم"؟ فيجيب الشّاب: "على خير" فيسأله النبي ﷺ كيف يعني على خير؟ فيجيب الشّاب: "أنا والجنة كمن قد رآها، وأنا والنار كمن قد رآها". فتصبح حركات أعماله على حسب انجذابه نحو الجنّة ونفوره وخوفه من النّار. فيكون قلبه بهذه الحال قلب مطمئن، وروحه روح القريب من الباري سبحانه وتعالى، مع أنّ هذا الأمر بعيد عن الناس إلا أنه قد سمع وأبصر[5].

ثانياً: قرب الفرائض:

ما الذي يحدث في قرب الفرائض حسب قول أهل العرفان؟

في قرب النوافل كانت الخطوة الأولى فناء الصفات الإنسانيّة في الصفات الإلهيّة، وتحلّيها بها. أمّا الخطوة الثانية فهي فناء النفس في الذات الإلهيّة، بحيث تصبح نفس السالك لا تعني له شيئاً وأصبح كل شيء بالنسبة إليه هو الله تعالى. هذا النحو من فناء العبد بحيث لا يشعر بوجود شيء إلا بالله تعالى هو الذي يطلق عليه اسم الفناء الذاتي.

وهذا القرب يجعل العبد قادراً على أن يتصرف في المخلوقات في الإحياء والإماتة وغيرها من الصفات الإلهيّة ..... فالله قدير مطلق بقدرته المطلقة، قادر على كل شيء، وكذلك العبد باتصافه بهذه الصفات قادر على كل شيء. هنا يتبادر هذا السؤال! إذا كان الله قادراً على كلّ شيء والعبد قادر على كل شيء، فما الفارق إذاً بين العبد وبين الرّب؟

إنّ الله ذاتاً هو قدير، والعبد قرباً هو قدير، أي تمكن من القدرة لأنه قريب من قدرة الله. من هنا فإن العبد حتى لو أحيا وأمات وتصرّف في المخلوقات إلا أنه تصرف قرب وليس تصرفاً استقلاليّاً. وهذا التصرّف يسمّى تصرّف تبعيّة (أي هو تبعيّة إلى الله، وبقربه من الله). فإذن الله حصل ما حصل وقدّر على ما قدر عليه.

درجات الأنس بالقرب:

في مقام القرب هناك أمر اسمه روح القرب، وهو الأنس بالقرب من الله والأنس بالقرب من الولي. يقول صاحب كتاب منازل السائرين: الأنس بالقرب على ثلاث درجات، والكلام سيكون حول الدرجة الأولى.

الدّرجة الأولى: الأنس بالشواهد وهي:

أ) استحلاء الذكر.

ب) التغذّي بالسماع.

ج) الوقوف على الإشارات.

الشواهد من المشاهدة. لو أنّ إنساناً شاهد جبلاً والجبل هو آية من آيات الله، والآية هي ما تشير إلى الحقيقة، الدليل، الإشارة، الرمز الذي يدلّنا على الحقيقة، والحقيقة هي الشيء الذي بباطن هذه الآية. أهل العرفان يقولون: إنّ أكثر الناس يعيشون في عالم الكثرة، لأنهم يبقون عند كثرة هذه المظاهر، فإنهم لو تعمّقوا إلى داخلها لوجدوا الوحدة فيها. ﴿وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده﴾[٦]، والعبد عندما يصل إلى هذه

المقامات سوف يشهد تسبيح الموجودات، وسوف يشعر بلذّة تلك التسبيحات. القرآن الكريم يحدّثنا عن النبي داوودعليه السلام أنّه كان يسبّح مع الجبال، وكان تسبيحها وهذا السماع هو سمع العيش وليس أذناً تسمع، السمع الذي فيه أنس كل الكيان. وفي بعض الروايات: أن النبي إبراهيمعليه السلام كان يرعى قطعياً من الغنم، وكل ما يملكه هو هذا القطيع، وبينما هو كذلك وإذا به يسمع ملكان يرددان: "سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح." إلى أن ذاب وهو يسمع هذا التسبيح. وعندما توقف الملكان عن ذلك طلب منهم النبيعليه السلام الاستمرار، فقالا: "إنهما سيستمرّان ولكن شرط أن يعطيهما نصف غنماته، ففعل دون تردّد، فأعادوا ذلك وتوقفوا، أعاد الطلب فطلبوا كلّ الغنم من النبيعليه السلام مع أنه يعتمد على غنمه ليعيل أهله، فقدّم كل ما يملك..كلّ دنياه في سبيل أن يسمع ذكر الله تعالى.

وكذلك الأمر فيما حصل مع النبي وأمير المؤمنين حتى سمع أمير المؤمنينعليه السلام تسبيح الحصى التي كانت بين يدي رسول اللهصلى الله عليه وآله (٧)، إذن هذا النحو من المشاهدة هو إستجلاء الذكر لأنه يصبح في ذكر معها، مع هذه الوجودات ومع هذه الكائنات.

أ) التغذّي بالسماع:

يوجد شيء ملفت يذكره العرفاء لا بد من الإشارة إليه ويلزمه تفصيل. إنّ طبيعة الحياة عند الإنسان تقوم على أن يتغذّى، وهذا الغذاء هو سبب الحفاظ على وجوده، في الأكل، في الشرب، يتغذّى بتلبية إحتياجاته ورغباته وذلك حفاظاً على بقاء النّوع وهذا التغذي هو الذي يحفظ الذات والكيان. والفرد يتغذّى بالسّمع، فهو يحافظ على كلّ وجوده حينما يسمع. القاشاني وهو أهمّ من شرح "منازل السائرين" يقول: "ليس المقصود أنّ السماع هنا الغناء وقد اختار الغناء لأنها الأقرب لكلمة سماع ولأنه بالغناء يستطيع المرء المشاركة والتوقف ساعة يشاء وهذا ما يسمّونه السلطنة. وبسبب هذه الطبقة من الغناء يفقد الشخص سيطرته على نفسه ويقوم

بحركات غير اختيارية.[8]

تبصرة: فما هو هذا السماع الذي يتغذّى به العبد؟

هو سماع الآيات للآيات القرآنية وقع موسيقي خاص. هناك إيقاع خاص يؤثر في النفس والقلب، وهذا بسماع لا يتسنّى لكلّ أحد إلاّ إذا كانوا من المقربين الواصلين إلى مقام القرب. وقد ذكر عن إمام المتقين وسيّد الموحّدينعليه السلام أنه عندما كان يرجع من المعارك والسهام على جسده الشريف لا يقبل أن تنزع منه السّهام إلا وهو واقف بين يديّ الله عزّ وجلّ (أي أثناء الصّلاة) حيث يفنى عن ذاته. وهذا النحو من السماع الذي يتغذّى به العبد يمكن له أن يغني الشخص عن الأكل والشرب فهو طاقة بقائه[9]. أن يسمع السماع أي أن يذوب في آيات الله سبحانه وتعالى عند سماعها.

ج) الوقوف على الإشارت:

يقول: سماع القلب إشارات الأشياء بلسان الحال للطف إدراكه، لأنّ إدراك هذا الإنسان يكون دقيقاً جداً، ولطف إدراك الحواس ويقف على معان تشير إلى الحقيقة، ويختم ببيتين:

سلام عليكم صدق الخَبَرَ (الخُبرُ)

وقد نزل المستور وارتفع (السِّترُ)

نور الحقّ من كلّ وجهة على كلّ وجه

فاستوى السّر والجهر.

يقول العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه: "عندنا ظاهر وعندنا باطن، حقيقة ظاهر كل شيء هي في الباطن، إذاً حقيقة كل شيء هي باطنه، وهذا الباطن إذا تسلسلنا فيه على أنه وجود واحد له حقيقة واحدة، نجد أنه عندنا ظاهر له باطن، وللباطن باطن... حتى يصل إلى الباطن الأول أو الحقيقة الأولى أو المطلق. فحقيقة هذا الظاهر بالباطن، وكلما امتدّ هذا الباطن كلما كانت الحقيقة أكثر صرافة فإذا كان الله

حقيقة كل شيء، والأشياء هي ظواهر الأمور حسب قول العلاّمة فالله هو الأقرب، هو الأقرب للشيء من نفسه.

الولاية رفيق الوجود:

قال الإشتياني قدس سرّه: "إنّ الولاية مأخوذة من الولي بمعنى القرب، بحسب الاصطلاح الولاية حقيقية كليّة وصفة إلهيّة، وشأن من الشؤون الذاتيّة. والله هو الولي الحميد، ويظهر حكمها في جميع الأشياء، في الواجب والممكن فهي رفيق الوجود تدور معه كيفما دار".

ويقول: كما أن الوجود بحسب الظهور له درجات متشئنة ومراتب متفاوتة بالكمال والنقص والشدّة والضعف ويحمل عليها بالتشكيك فكذلك الولاية. فإنها بعدما كانت بمعنى القرب فلها درجات متفاوتة".

تبيّن إذاً أنّ للقرب درجات كثيرة ومتفاوتة:

- مرّة يكون القرب بلحاظ الدنيا والآخرة.
- ومرّة يكون بلحاظ الذات مع الصفات (قرب النوافل).
- ومرّة الذات التي تفنى في الذات (قرب الفرائض).
- ومرّة القرب بمعنى أقرب إليه من حبل الوريد، أقرب إليه منكم.

فمسألة القرب لها مراتب متعددة إلا أنّ معنى القرب هو معنى واحد. إذا كانت هذه المراتب المتعددة في القرب، الولاية وهي تتكثّر بتكثّر رتب مقام القرب، فالولاية تكون ولاية الظاهر وولاية الباطن وباطن الباطن ولاية الحقيقة والسرّ وسرّ السرّ...

الأنس بولاية محمد وآل محمدﷺ وهي أقصى درجات القرب:

والولاية في كل هذا لها معنى واحد في مراتب متعددة إلى أن يصل إلى روح القرب الذي هو الأنس. فما هو روح الولاية؟ وما هو الأنس بالولاية؟

يقول الطباطبائي: "إنّ القرآن اسماها بالنعيم وجنّة النعيم". ويستدلّ

عليها العلامة بمجموعة من الآيات القرآنيّة إلى أن يخلص إلى أن جنّة النعيم هي الصراط المستقيم، وأن الصراط المستقيم هو واحد يبدأ في الدنيا ولا ينتهي إلا إلى جوار الباري عزّ وجل وأنّ هذا الصراط الذي ما سلك أهل البيت عليهم السلام غيره هو معنى التوحيد الذي لا يشوبه الشرك. هم سلكوه وهم الطريق فيه لأنهم مظهره، لذلك فالصراط المستقيم هو ولاية محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. ولا يمكن أن يحصل الإنسان مثل هذه الجنّة من النعيم إلا بولاية محمد وآل محمد ﷺ.

الهوامش:

(١) - قبل الدخول في هذا البحث لا بد من الإشارة إلى أمرين:

الأول: إنّ العلم والخبر الصادق هو الوجود الإدراكي المطابق للأمر الخارج، وما في الخارج إن كان معلولاً لغيره متعلقاً به. فإنّ العلم به لا يحصل إلا عن طريق العلم بسبب وجوده، وإلا فإنّ هذا العلم علم به على حقيقته وعلى نفس الأمر الذي هو عليه. ولذلك قال الحكماء: إن العلم اليقيني بذي السبب لا يحصل إلا من جهة العلم بسببه.

الثاني: إنّ كتاب الله تعالى هو النازل من عند الله على قلب محمد ﷺ من طريق الوحي في الباطن، فبرز من الغيب إلى الشهادة ومن السرّ إلى العلانيّة، وكذلك الكتب التي نزلت على الأنبياء عليهم السلام. وأنّ أي كتاب أو علم كان بواسطة أسباب خارجيّة من سماع المحاضرات أو الدروس أو الأبحاث مثلاً، فإنها لا تخلو من الخطأ والسهو والقصور.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: "فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه"، يشير إلى ميزان القسط الذي لا يخطئ وهو كتاب الله تعالى فهو لسان الحق ونور الهدى، وبه توزن العلوم والأخبار فما وافق كتاب الله فهو حق وصواب وهدى ونور، وما خالفه فهو زيغ وباطل يجب تركه واجتنابه.

وقد اعتبر الملا صدرا أنّ العلم علمان، علم السلوك وعلم الوصول وقال: إنه بالتوحيد يكون المعرفة والعلم. وذلك أنّ من أمعن النظر وجد أنّ كل علم وعرفان إنما يرجع إلى ضرب من التوحيد، وإنّ مدار العلم بحقائق الأشياء بالاطلاع على جهة وحدتها وكل من كان علمه أحكم وأقوى وأرفع وأعلم، كان اطلاعه على حقيقة

الوحدة أكثر وهو على إرجاع الكثرات إلى الوحدة أقدر" انتهى كلامه.
والعلم الذي به يكمل الإنسان لا يحصل إلا بعد رياضة شاقة وتذلل وتخضع لله ورسوله ﷺ والأئمة من بعده عليهم السلام، ولسائر المعلمين والمشايخ الذين هم من الوسائط بين المبدأ الفياض للعلوم وبين النفس القابلة المستعدة لها. ولا يستمر ويتكامل إلا بالتواضع لله تعالى والاقتضاء بسنّة رسوله والأئمة عليهم السلام، والعلماء الكاملين والأخيار الصالحين. فإنّ من أحوال رسول الله كما هوالمنقول أنه يأكل على الأرض ويقول: "إنما أنا عبد آكل مما يأكل العبيد".
وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته فقال له أحدهم: "أنا أحمل عنك يا أمير المؤمنين، فقال: لا، أبو العيال أحقّ أن يحمل شيئاً إلى عياله. وعوتب عليه السلام في إزار مرفوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب، وكذلك حال أمير المؤمنين عليه السلام وتواضعه مع الناس سيما مع عبيده وخدمه مشهور لا يحتاج إلى البيان. وروي أنه يوماً عليه السلام مرّ بجماعة من المجذومين وهم يأكلون وكان عليه السلام صائماً فقالوا: "هلمّ بالغداء"، فقال: "إني صائم، وخشي أن يكون قد حصل لهم كسر قلب بذلك فقال: "تأتوني الليلة جميعاً لأفطر معكم، فأتوه عند المساء وأكل معهم على خوان واحد وأصر جبراً لقلوبهم"
وقد روي عن عيسى عليه السلام: "بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل"، والسبب في هذا الأمر أن العلم والعرفان الحقيقي لا يحصل إلا بحدوث فطرة ثانية ونشأة آخرة، غير النشاة المشتركة بين الناس كلهم، ولا يمكن الانتقال من نشاة إلى أخرى إلاّ بالتبدّل من شأن إلى شأن يوجب هدم الأول وزواله وإحكام الثاني وبقاءه، فالتواضع والخضوع ولين الجانب وخفض الحال ورقة القلب وسائر ما هو من هذا القبيل مما له مدخلية في لطافة النفس وصفائها وصيرورتها بمنزلة زجاجة لا لون لها وصحيفة لا نفس لها، بحيث تقبل العلوم والمعارف الإلهية، وعندها يصل السالك الى مقام القرب.
(٢) - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣، الطبعة الثانية، ج ٥٨، ص ١٢٩.
(٣) - إنه يستطيع أن يسمع ما لا يمكن لغيره أن يسمعه.
(٤) - إنه يستطيع أن يبصر ما لا يمكن لغيره أن يبصره.
(٥) - نسبها أبو نعيم الأصفهاني في حليّة الأولياء ج ١، ص ٢٤٢، أنّ معاذ بن جبل رضي الله عنه تعالى دخل على رسول الله فقال: كيف أصبحت يا معاذ؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله، قال: إنّ لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول؟ قال: يا نبي الله ما أصبحت صباحاً قط إلاّ ظننت اني لا أتبعها أخرى كأنّي

أنظر إلى كل أمة جاثية تُدعى إلى كتابها معها نبيّها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، كأنّي أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب الجنة، قال: عرفت فالزم.

(٦) - سورة الإسراء، لآية ٤٤.

(٧) - راجع مفتاح الفلاح للشيخ البهائي العاملي ص ١٠١، وقد ورد ما يشبهها عن أمير المؤمنين عليه السلام، فعن سلمان قال: كنا جلوساً إذ أقبل علي ابن أبي طالب عليه السلام فناوله النبي حصاة فما استقرّت الحصاة في كفّ علي حتى نطقت، وهي تقول: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبعلي بن أبي طالب ولياً.

(٨) - ومن هذه الحركات غير الاختيارية كالموسيقى الصاخبة التي تحثّ سامعها على الانتحار أو تجعله يتصرّف تصرفات غير أخلاقية.

(٩) - حسب رأي العرفاء.

الدرس السابع

القرب والمعيّة القيوميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

كما أنّ الوجود بحسب الظهور له درجات متشئّنة ومراتب متفاوتة بالكمال والنقص، والشدّة والضعف، ويحمل عليها بالتشكيك، فكذلك الولاية فإنها بعدما كانت بمعنى القرب فلها درجات متفاوتة ومراتب مختلفة بالكمال والنقص والشدّة والضعف، ويقال عليها بالتشكيك حتى تنتهي إلى قربه تعالى بالأشياء ولا أقرب منه بها مع كلّ شيء أي "بالمعيّة القيوميّة".

مراتب القرب[1]:

كما أنّ للوجود مراتب مختلفة ومتفاوتة كذلك الولاية بعد إلباسها معنى القرب. والقرب أيضاً له مراتب متفاوتة على طريقة التشكيك في الوجود المشكك. والولاية بما أنه من معانيها القرب، فهي تحمل مراتب تشكيكيّة، حتى تنتهي إلى قربه تعالى - أي هذه المراتب -، في وجودها الصاعد تبقى تتوالى في التصاعد إلى أن تنتهي إلى القرب. فالقريب بالمعنى الخاص أو الأخص هو الممكن وهو بمعنى ما بعيد لأنه غير ممكن أي متقرّب إلى الله. وحتى الوجود في أسفل السافلين، والذي أسرف على نفسه والبعيد من رحمة الله تعالى. إلا أنّ الله تعالى قريب منه بمعنى ما، يجيب دعوته إذا ما دعاه بصدق وحق.

والقرب الإلهي [2] أمر لكل الخلائق. لكن مرة ينادون من مكان بعيد كما في بعض الآيات، ومرة ينادون من مكان قريب: **﴿أجيب دعوة الداع إذا**

دعانِ﴾، [٣] هذه تكون في الرتب الخاصة بالعباد. إذاً القرب له مراتبه، يقول: "ولا أقرب منه بها مع كل شيء" أي الله قريب قرباً لا يتحقق مثيله لأي شيء. وبهذا المعنى تحدّث السيد حيدر آملي بنص له يقول فيه: إنّ السبب في ذلك أنّ الحضرة الإلهيّة إذا تجلّت، أي "الحضور الإلهي إذا تجلّى في مكان ما حرم على غيره أن يكون فيه، لأنّ الله واحد ولا غير له". فالباري عزّ وجل كان في كل شيء ولا شيء يمكن أن يحل محل الحضور الإلهي أو أن ينازعه سبحانه وتعالى[٤]، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه السيّد حيدر الآملي.

هنا يبرز مبحث العليّة والمعلوليّة[٥] بشكل واضح، وعندما يراد تطبيق هذا المبحث على قول: "لا جبر ولا تفويض إنّما الأمر بين أمرين"[٦]. عند تطبيق هذا المبحث على بعض الآيات القرآنيّة يؤخذ بعين الاعتبار ما قاله الأشاعرة في نظام المعلولات: إنه لا توسط بين العلة الأولى وبين المعلولات. مثلاً: أمسكت بكوب الماء وشربته (أنا أنسب الأمر إلى نفسي، أما على مبدأ الأشاعرة الذي أمسك والذي شرب هو الله تعالى وليس أنا).

ردّ شبهة:

على المستوى الفلسفي يمكن أن يبرز السبب، أنّ إرادة الإنسان الشارب للماء موجودة، وهو الذي شرب ولكن فعليّاً الذي شرب هو الله تعالى. لماذا؟

لأنه لا يوجد بين المعلول والعلة الأولى أيّ توسطات، فتحضر العلة الأولى، وتحضر العلة المباشرة التي هي الإنسان الشارب في عرض واحد بفعل واحد هو الشرب. يقول الأشاعرة: طالما أنّ العلة حضرت مع العلة المباشرة بعرض واحد، لا شيء يقهر في حضور العلة الأولى. فالعلة المباشرة تتعطل ليبقى مفعول العلة الأولى، وهذا الأمر يوصل إلى الجبريّة. مع العلم أنّ فلان شارب، فهذا يعني أنّ هناك تفويضاً فبسلسلة

العلل والمعلولات الفعل صدر عن العلة المباشرة "فلان" ولكن ما كان يتسنى له أن يشرب لولا ارتباطها بالعلة الأولى، فالعلاقة بين العلة والمعلول الذي هو شارب علاقة عليّة إلا أنها طوليّة وليست عرضيّة. **﴿وما رميت إذ رميت﴾**[٧]، لكن إذا أردنا أن نكشف ستار الحق لم ترم على سبيل التفويض لكن الله رمى. لأنه حتى في نظام العلة الطوليّة، العلة الطوليّة هي الأكثر حضوراً. وإذا حلّ إذن لا شيء يشاركه أو غيره يحضر، والحاضر وحده هو الله، وبهذا المعنى هو كلّ شيء. وهو القيّوم، وكله معيّة قيوميّة وهو معكم أينما كنتم، ظاهراً وباطناً **﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾**[٨].

تبصرة:

كلمة القيوميّة من قيّوم وهو اسم من اسماء الله تعالى الحسنى. يقول ابن عربي: "تعلقك بالاسم القيّوم من خلال إفتقارك إليه سبحانه"، إذن قيومية الباري هي عين فقر المخلوق. والتحقق يعني على نحو الحقيقة والتدقيق في معنى القيّوم، فالقيوم هو الذي يقوم بنفسه ويقوم به كل من سواه. والمعية القيومية، **﴿هو معكم اينما كنتم﴾**[٩] أي قيوم عليكم ويستحيل أن يكون لديكم قيام إلا به على جهة الإفتقار إليه في ذاته.

وقد أوضح العلاّمة الطباطبائي معنى القيّوم بقوله: "اسم القيوم من القيام وهو يدلّ على حفظ الشيء وفعله وتدبيره وترتيبه والمراقبة عليه والقدرة عليه. فالقيوم عملياً هو الذي يحفظ، وهو الذي يفعل، وهو الذي يدبر، وهو الذي يربي، وهو الذي يراقب، وهو الذي يقدّر، هو الربّ الفعلي. وقد أثبت تعالى أصل القيام بأمور الخلق إلى نفسه حيث قال تعالى: **﴿افمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت﴾**[١٠].

أي أنه هو الحافظ لكل نفس بما كسبت، وهو يديرها وهو يربيها. وقال تعالى: **﴿شهد الله ان لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً**

بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[11].

يقول العلاّمة : "فأفاد أنه قائم على كل الموجودات بالعدل، فلا يعطي ولا يمنع شيئاً من الوجود إلا بالعدل. بإعطاء كل شيء ما يستحقه، ثم بيّن أنّ هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين "العزيز الحكيم" . إنّ مقتضى العزة والحكمة أن يقوم الباري بالعدل، ويحكم بالعدل وهو العزيزالحكيم، فبعزته يقوم كل شيء وبحكمته يعدل فيه.

الشفاعة والقيوميّة:

وبالجملة لمّا كان تعالى هو المبدأ الذي يبتدئ منه وجود كل شيء وأوصافه آثاره، لا مبدأ سواه، وكل مبدأ ينتهي إليه، ولو افترض أنّ هناك مبدأ غيره، وهي متوسطات الأمور، إلا أنّ هذه المبادىء ترجع إلى مبدأ المبادئ الذي هو الله سبحانه وتعالى. فهو القائم بكل شيء. من كل جهة بحقيقة القيام الذي لا يشوبه فتور وخلل. **﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم﴾**[12] وليس ذلك لغيره قط إلا بإذنه بوجه، يعني غيره قائم لكن من بعد إذنه وبوجه هو يقوم، فليس له تعالى إلاّ القيام المنزّه عن الضعف والفتور، وليس لغيره إلا أن يقوم به تعالى. وقد ظهر في هذا البيان أنّ اسم القيّوم، هو أمّ الاسماء الإضافيّة الثابتة له تعالى جميعاً، ومن هنا يعلم أنّ الله تعالى مع كل شيء، الإنسان، الأرض، السماء، إلا أنّ هذه المعيّة له تعالى قيامها بذاته وقيام الآخر به تعالى، وليس بمعنى أنّ الأشياء هي الله بل بمعنى أنها هي هي من جهة ومن جهة أخرى أنها الله بارتباطها به سبحانه وتعالى.

يقال: "معنا" على أي أساس، أي هناك اثنان؟ عادة بالعلاقة مع الباري كلمة اثنين تأخذ معنى الشفاعة. وإنّ الأمر بالحقيقة واحد، فالباري عز وجل هو الذي يغفر، وهو الشفيع، هو الذي يدرك، هو واحد يدرك. والشفيع لا ينفي الآخر، إلا بمعنى الجبروت وليس بمعنى الجبر، لأنّ مشكلة الأشاعرة في الجبر أنّ إرادة الإنسان تكسر بإرادة الله. في عالم

الجبروت لا يوجد التفات إلى ذات الإنسان بوجود الباري عز وجل والإنسان عدم بالنسبة إليه تعالى، وهذا المعنى لا يمكن مقايسته مع ما قاله الأشاعرة فالشيء الذي افترضه الأشاعرة في الجبر هو قائم على الإثنينيّة، أي أنّ هناك اثنين، بينما في موضوع الجبروت والقيوميّة فالله تعالى هو الذات، والمخلوق هو من آثاره.

الإضافة الإشراقيّة:

إنّ الإضافة هي نسبة بين شيئين متساويين مستقلين هذه الإضافة تسمّى الإضافة المنطقيّة أو الإضافة الحقيقية. وهذا الأمر هو مثل سماع الخطاب الإلهي فعندما يقول: "﴿صلّ﴾"، فنسبة الصلاة من حيث الآمريّة يقوم بها الله تعالى. أما نسبة الصلاة من حيث الالتزام المأموري يقوم به العبد فهناك الله وهناك العبد - يوجد اثنان-.

إنّ كل نسبة لها طابعٌ إعتباري تكون على مستوى الإضافة المنطقيّة أي نسبة بين شيئين، هذه تسمى الأوامر الاعتبارية. أما في الحقيقة فيختلف الأمر يوجد: "كن فيكون" **﴿واذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون﴾**(١٢) يُقال عند الفلاسفة:

"لدينا وجود علمي ولدينا وجود عيني، الوجود العيني يكون بتحقيق أي موجود خارجاً، لكن قبل أن يكون الوجود العيني موجوداً في الخارج اعتبروا أنّ هناك مرحلة سابقة هي مرحلة النشأة أو الوجود العلمي. الوجود العلمي ما هو متحصل كعلم عند الباري عز وجل إلا أنه لم يخرجه إلى دائرة الوجود الخارجي. فالله عز وجل أوجد الكون بـ: "كن" ما كان هناك "الكون"، إلا أنه تحقق بكلمة "كن" "فكان".

فالله تعالى قال لأمر "كن" ما هو هذا الأمر الذي قال له: كن؟ هنا لا بد أن يكونا اثنين فإذا لم يكن هناك شيء في الخارج فما الذي أمره؟

لقد أمر تعالى الوجود العلمي الموجود في الذات الإلهيّة. تجلّي الذات على الذات، فترشح عن الذات "كن" وجوداً عينياً. وهذا ما يسمونه

بالإضافة الإشراقيّة، أي طرفاً واحداً أصيلاً يتفرّع عنه طرف ثان.

وعند صدر المتألهين : "كل واحدة وقابلة للتطور في تطورها الجوهري، تحصل منها الكثرة".

وعند الإمام الخميني قدس سرّه يقول:"أي كمال أو جمال ينطوي عليه، أي موجود ليس منه ذاتاً إنّما هو مظهر لكمال الله وجماله".

﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾(١٤).

الهوامش:

(١) - اعتبر الإمام الخميني قدس سرّه في كتابه الأربعون حديثاً" أنّ مقام القرب يصل إليه السالك بعد أن يطأ برجله على هامة إنيّته وأنانيته، ويغادر البيت المظلم ويتجاوز المنازل ومراحل التعينات ويخرق الحجب الظلمانية والنورانية ويقطع آماله من كل الموجودات والكائنات، وبعد هذه المراحل ينسلخ عن نفسه ويحصل له المحو الكلي وتظهر له حالة الصعق، ويصير الحق المتعالي فيه فعالاً، حيث يسمع بسمع الحق ويبصر بعين الحق ويبطش بيد قدرة الحق، ويرى الحق ولا يرى غيره، ولا يحصل هذا المقام إلاّ مع الجذب الربوبي وجذوة نار العشق، حيث يتقرب بها إلى الحق بصورة مستمرة حتى لا تحصل الحيرة ويبتلى بالشطحات وغيرها من الأمور التي تكون من رواسب الأنانية، "وإنه يتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبه". فإن تقرب العبد إلى الله تعالى يكون ذلك من آثار جذبة العشق ، وإنّ الجذبة الإلهية للحق تعالى من نتائج الحب. فيوجب التقرب بالنوافل، الفناء الكلي والاضمحلال المطلق والانصهار التام ويكون نتيجته "كنت سمعه الذي يسمع به.."، حتى تشمله العناية الأزلية ويرجع إليه وعيه، ويعتريه الصحو وتحصل له حالة الأنس والطمأنينة وتتكشف له سبحات الجمال والجلال. وهذا الصحو بعد المحو والعودة إلى عالم الكثرة، يسمّى بالقرب، لأنّ هذا الصحو بعد المحو يختلف عن حالة الغفلة التي نعيشها، وأنّ الوقوع في عالم الكثرة بعد المحو يغاير عالم كثرتنا الذي نعيش فيه لأن هذه الكثرات تكون حجاباً لنا عن وجه الحق، ومرآة المشاهدة لهم، "ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وفيه وقبله وبعده".

من هنا فالقرب الحاصل بالنوافل هو فناء اسمي ، والقرب الحاصل بالفرائض فناء ذاتي، وعليه تكون النتيجة للتقرب عن طريق الفرائض المحو المطلق.

(٢) - قرب الله تعالى من العبد ليس كقرب العبد من الله تعالى.

(٣) - سورة البقرة، آية ١٨٦.
(٤) - قيل لرسول الله صلّى الله عليه وآله: "بم عرفت ربّك" قال: "عرفت الأشياء بربّي"، وفي نهج البلاغة "هو الله الحق المبين أحقّ وأبين ممّا ترى العيون"، فأي ظهور وحضور به ومنه وله تعالى. وهذا الظهور هو إبداعه للأشياء لا من شيء، فنحو المثال عن قدرته وعلمه وجماله وحكمته تعالى، وهو تعالى قد ظهر بها بالمثال وبما أنّ هذا المقام هو مزلّة للأقدام فلا بدّ من إيضاح المراد من المثال والظهور.
-إنّ المعرفة بالله تعالى لا ترجع إلى الحلول والاتحاد،أو الإحاطة بالكنه أو الرؤية البصريّة، بل المراد هو ظهوره تعالى في وحدانيّته الذاتيّة أو الصفاتيّة أو الأفعاليّة لقلب عبده الموحد ، من دون تنزل الرب في حقيقة العبد أو صعود العبد في حقيقة الربّ، ويبقى العبد عبداً والربّ ربّاً، ومهما بلغ من القرب فهو مخلوق مبدع لا شيء خارج من ذات الله تعالى ، واقع قربه منه تعالى أن يكون مظهراً تاماً له تعالى ، من هنا هو تعالى خلوّ من خلقه وخلقه خلُو منه.كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام: "مع كل شيء، لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، وهو معكم أينما كنتم".
(٥) - إنّ ما تداول بين العرفاء من إطلاق العلّة عليه تعالى، وأنه لا يباين العلة عن المعلول وأنه لا بدّ من السنخيّة بينهما، تظهر معناه من معرفة كيفيّة وحقيقة الجعل وكيف أنّ المجعول هو مثال للجاعل وظهور له، والتفاوت بين الجاعل والمجعول بالإطلاق فيه والتماميّة والنقص الراجع إلى العدم. والمجعول حقيقةً هو ظهور شأن الجاعل في التعيّن من دون قيد وحصر في الجاعل وأمّا المثال والظهور من جهة هو هو، فهو من جهة شأن للجاعل ومن جهة أخرى ليس هو، ثمّ إنّ لظهوره تعالى، ولتجلياته مراتب كما يوحي إليه قوله عليه السلام "اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم" الذي هو الحقيقة المحمديّة. وهذا التجلي الأعظم لما قارنه النقص والعدم بالنسبة إلى الذات المقدسة المطلقة الحقّة صار ممكناً. ومن ثمّ من هذا الممكن ظهرت الموجودات بظهوراتها وحدودها على ما اقتضته الحكمة الإلهية، فتكمّلت المراتب بما لها من المراتب العرضيّة والطوليّة، والسببيّة والمسببة.
قال عليه السلام:"اللهم يا ذا القدرة التي صدر عنها العالم مكوّناً مبروءاً عليها مفطوراً تحت ظلّ العظمة"، ويستفاد هذا من الأحاديث الواردة في خلق نور النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم الصلاة والسلام، وكيف أن خلق سائر الخلق منهم عليه السلام.
(٦) - الشيخ الصدوق، الهداية، مطبعة اعتماد، قم، رجب المرجب ١٤١٨ هـ،

الطبعة الأولى، ص ١٨.

(٧) - سورة الأنفال، آية ١٧.

(٨) - سورة البقرة، آية ١١٦.

(٩) - "وهو معكم أينما كنتم"(سورة الحديد، آية ٩) أي علمه ورزقه، جوده وفيضه، ونصرته ورحمته مع كل شيء وأي ذاته المقدسة (داخل في الأشياء لا بممازجة وخارج منها لا بمفارقة) جوده قيّم وفيضه قيّوم وكذلك رحمته. ويترتب على معيّة القيوميّة أمران:

- الأول: ان معيتّه تعالى للأشياء ليست بالحلول والاتحاد وإنما بظهور الذات في مراتب التعيّنات التي هي بدورها خارجة عن المظهور، لكونها ترجع إلى الأعدام وإن كانت مظاهراً للذات.

- الثاني: إنّ معيتّه تعالى ليست في درجة وجود الموجودات، بأن يكون محصوراً فيها، ولا مقيّداً بزمان الزمانيّات والمكانيّات بل هو القاهر عليها بالحقيقة القيوميّة الإلهية. فالوجود الحقيقي له تعالى كما الظهورات للموجودات تكون له تعالى "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم". وهذه القيوميّة بالقهر والعلية والمالكيّةالحقيقيّة، والعلوّ الأعلى فوق كل عال. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: " لم يحلل في الأشياء فيقال: "هو فيها كائن"، ولم ينأ عنها فيقال: "هو منها بائن" .الحديث (المازنداراني، مولى، شرح أصول الكافي، ج ٤، ص ١٥٥.

(١٠) - سورة الرعد، أية ٣٣.

(١١) - سورة آل عمران، آية ١٨.

(١٢)- سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(١٣) - سورة البقرة، الآية ١١٧.

(١٤) - سورة الأنفال، آية ١٧.

الدرس الثامن

التنزل والولاية

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك نحو من الموجودات التي يطلق عليها الوجودات الثانوية - يطلق عليها لفظ الوجود مجازاً ومن المسامحة لأنها أمور اعتبارية_ مثلاً: الصوت الذي يطلقه المرء هل هو موجود أم لا؟

هو موجود و لكن هذا الوجود بأي نحو هو؟ وجود وعدم، أي عند القول: إنه موجود يتم إعدامه. إذاً إطلاق صفة الوجود عليه بمعنى ما لاقى حتى ودّع، والمتصرّمات من الزمان لا أنها كباقي الموجودات القائمة بحقيقتها وواقعيتها.

التنزّل والولاية:

الولاية كما سبق وذكر قيام كل شيء، فإذا لم يكن هناك ولاية فلا شيئية للشيء ولا حقيقة له، لا بعداً إنسانياً ولا معنوياً له. كذلك الولاية إذا نزلت وانتهت في النزول[1]، يزول حكمها، ويسلب عنها اسمها، فلا يقال للغواسق والظلمانيات: كالأحجار والأمدار[2] والفسقة والفجّار: أولياء الله، وذلك لانقهار أوصافه وغلبة ظلمة العدم وأحكامه،[3] لذلك الذين كفروا لا وليّ لهم، ويصبح حكم بعض الناس في تنزيلهم إلى الدرك الأسفل فكأنما لا ولاية لهم، لذلك يقول الكافر يوم القيامة: يا ليتني كنت تراباً، أي يصبح في التنزل وفي التسافل والتدارك في الانحدار، إلى الدّرجة التي يكون فيها بلا معنى لأنه أصبح بلا إرتباط بولاية الله سبحانه وتعالى.

فالولاية هي الوقوع تحت رحمة الله سبحانه وتعالى، وشمول لطفه وتدبيره، فإذا تنزل الإنسان الذي هو خلق من خلق الله. إلا أنه بأفعاله أبطل مفعول كونه تحت رحمة الله، ومع أنه مخلوق من مخلوقات الله عزّ وجل لكنّه لا تصحّ عليه صفة الولاية بمعناها الحق، لأنه كلما تسافل كلما بطلت أحكام الولاية في حقّه.

شروط الولاية والإيمان:

إنّ الوجود إذا خرج عن ذلك الممكن وتنور بنور الإيمان، يظهر أحكامه ويغلب أوصافه، ويكون قربه من الباري بمعنى يصير مظهراً لصفات الباري عز وجل أي بمعنى أنه مظهر لصفات الجمال واللطف، لا بمعنى قرب الخلاقيّة له تعالى والمخلوقيّة للأشياء. ثم ليس مجرّد هذا القرب هو مناط صحّة الولاية. أمّا الإنسان إذا بادر بالترقي نحو الكمال، فإنه ابتدأ للتعرّض إلى نور الباري تعالى عليه، ويغلب أوصافه، فيصبح ذو صفات إلهية، أي متخلّق بأخلاق الباري عز وجل وهذه المواصفات هي من نوع آخر.

"اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله"(٤)، تدين له الملوك وتدين له وحوش الأرض "كيّس فطن"(٥) "المؤمن لا يعتذر"(٦) - بمعنى أنه لا يخطئ- . أمّا كون غلبة أوصافه ويصير مظهراً لصفات الجمال واللطف، فكأنما هذه إشارة إلى وجود صفات الجلال، وصفات الجمال لدينا، فعنوان صفات الجمال اسم من أسماء الله الذي هو الرحمان، وقيل: بأن رسول الله ﷺ هو مظهر اسم الرحمن، فيصير السالك مظهراً لصفات الجمال واللطف، لأنه يندرج تحت جنة نعيم الولاية لرسول الله ﷺ.

إنّ الإنسان ما إن يدخل إلى حيّز الارتباط بالولاية تبدأ رحلة الولي الى الباري عز وجل وهي رتبة الخلوص، ودخول الإنسان في دائرة الولاية والرحمة الإلهيّة تبدأ حينما يبدأ بصفة الخلوص لله سبحانه.

ومن هنا فالكلام أنه "من أخلص لله أربعين يوماً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[٧]، الحقيقة أنه قبل مرحلة الإخلاص، وفي اللحظة التي تثبت فيها على ميزة الإخلاص، تبدأ مسألة التولي الفعلي للباري عز وجل، بالمعنى الأخصّ للكلمة. وبعد أن يحصل ميزة الإخلاص ويكدح وهو مخلص لله ينبغي أن يستقيم إخلاصه، استقامة لا نهاية له، وهو كالوجود المشكك، والسالك يصل بالإخلاص من أول السير فإذا وصل حقق مرتبة دون أخرى ومن هنا تبدأ رحلة اللانهاية، لأنه بالسير يفك الأسر والقيد عن نفسه، وهما أسر وقيد الذنب والشهوة والدنيا واللذائذ الخاصة والأنا والحجب الظلمانيّة والحجب النورانيّة.

وعندما يفك القيد عن نفسه يصبح مرتبطاً بالباري عز وجل، ولا يبقى لديه من ذاته شيء سوى نسبة ارتباطه هذه. وبما أنّ الباري تعالى غير محدود فإن السالك عليه أن يبقى على ما لا نهاية الإخلاص بالنسبة إليه. ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[٨] ومن ثم فإنه يتصف بالولاية على تفاوت الدرجات والمراتب.

ولاية الولي:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾[٩] ما المقصود بولاية الولي؟ وهل هناك موافقة دينيّة على ولاية الولي؟

إنّ العارف هو الموحد، والموحد هو المستغرق في التوحيد، وكلما استغرق صار موحداً أكثر، وكلما صار موحداً أكثر صار عارفاً أكثر. والتوحيد للموحّد على ثلاثة أقسام:

أ) التوحيد لذات الله.
ب) التوحيد لصفات الله.
ت) التوحيد لأفعال الله.

التوحيد في الأفعال:

في التوحيد الأفعالي، كل فعل التوحيد يكون فيه هو الأصل. فالله تعالى هو الولي، وكذلك النبيﷺ ومن يتصلون به من أهل بيت النبوّة عليهم السلام. فهل يوجد ولاية التصرف لغير الله تعالى؟ وهل ولاية التصرّف للنبي وآله عليهم السلام تتعارض مع منطق التوحيد؟

لا تتعارض لأنّ الولي لا يقول: أنا الله وإلا صار مشركاً.

هل ولاية الولي في التصرف تتعارض مع التوحيد في الصفات؟ مع العلم أن الصفات هي عين الذات؟ وهل هذه الولاية تتعارض مع عنصر التوحيد في العبادة؟

إنّ ولاية الولي بالمعنى العرفاني لا تتعارض مع أي قسم من أقسام التوحيد، ولكن يوجد هنا خطر عظيم وهو الوقوع في الشرك. **﴿ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى﴾**(١٠) وهذا الوقوع في الشرك يكون في التوحيد الأفعالي لأنّ ولاية التصّرف في الكائنات هي فعل الله في الكائنات. إذ إنّ خلق الكون والنظام الموجود فيه كله منشؤه الباري عز وجل.

وذهب البعض إلى القول: لا يوجد إشكال بتصرف البشر في الأفعال كما يتصرف الله تعالى في الموجودات. فالملائكة المأذونون بذلك تتصرف في الموجودات **﴿فالمقسّمات امراً﴾**(١١)، **﴿فالمدبرات امرا﴾**(١٢)، وبإجماع المفسرين وبإذن الله تعالى. ولكن هنا أدخلوا قيداً جديداً وهو أنّ المتصرف هو الله والملائكة، وحكم الملائكة ليس كحكم البشر، وإخراج البشر عن بشريّتهم ونسبتهم إلى كونهم ملائكة هو اعتراض على شأن الباري عز وجل وهذا هو الرد على الذين قالوا بتصرف البشر كالملائكة.

وأمّا على طريقة القرآن الكريم، فقصة النبي سليمانعليه السلام مع الجنّ واضحة، ومن عنده علم الكتاب أيضاً، وكذلك المعجزات فهي تتصرف بإذن الله عز وجل وقد صرّح به القرآن الكريم. فعند القول إنّ الملك

عزرائيل هو الذي يقبض الأرواح. وفي مورد ثان يقول: إنّ الله سبحانه هو الذي يقبض الأرواح وإذا ما صحّ على آصف بن برخ ذلك الأمر الذي قام به فلم لا يجوز على غيره، والقرآن نسب ذلك إليه؟ والقاعدة المنطقية تقول: "حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد" فإذا كانت الملائكة لها هذا النحو من التصرّف، أليس الموجود الكائن الذي هو الإنسان وهو أعلى رتبة في درجة الوجود من الملائكة، بدليل سجود الملائكة له فإذا صحّ للأدنى مثل هذا التصرّف فمن باب الأولى أن يصحّ لمن هو أعلى.

هل هذا الأمر يدخل في فعل الباري عز وجل؟ أبداً لا يمكن أن يكون تدخل، بل هو ضمن نظام فعل الله تعالى، إلا أنه بالطول وليس بعرض فعل الله، وبما يريده الله تعالى.

ورد عن الإمام الرضاعليه السلام: "من زعم أن الله عزّ وجل يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر: كافر، والقائل بالتفويض: مشرك"(١٣)، مقتضى التفويض والاستقلال.

الهوامش:

(١) - الهيولى الأولى هي أضعف مرتبة في الوجود، وكمالها عدم الكمال وهي جار العدم ووجودها قوّة صرف، وينسب إليها الوجود مجازاً،. والولاية إذا نزلت وانتهت في النزول يزول حكمها. وكون الولاية رفيق الوجود فهي كلّما اشتدّ الوجود اشتدّت وقويت، فإذا خرج الوجود نحو القوة واشتدّ تظهر أحكامه وتغلب أوصافه ويصير مَظهراً لصفات الجمال واللطف، ويصبح مُظهراً لما دونه، فهو بالنسبة لما فوق يصبح مَظهراً وبالنسبة إلى ما دونه مُظهراً.

(٢) - نوع من الصخور المتفتتة كالحصى.

(٣) - فلو قلنا إن الوجود مشكك والولاية حكمها حكم الوجود فهي موجودة في كل شيء. فلو قلنا إنّ الطاولة مثلاً موجودة ، إذاً فلم ولاية هذا غير صحيح؟ لأن حكم الوجود ضعيف جداً فيها فهي من الأجسام والأجسام لا ولاية لها، والولاية عندما تنزل في الوجود إلى أضعف مراتبه فإنّ حكمها يزول. و عند الملا صدرا

الوجـود يطلق على الجسـم ولكن بشكل ضـعـيف بينـمـا عند شـيخ الإشـراق فـإنّ الوجود لا يطلق على الجسم.

(٤) - المجلسي، العلامة محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية المصححة، ج ٢٤، ص ١٢٣.

(٥) - للعلامة المجلسي، بحار الأنوار ج٦٤، ص٣٠٧.

(٦) - العاملي، السيد حسين علي مكي، مؤسسة العروة الوثقى، ١٤١٤ هـ، الطبعة الثانية، ص ٥٣.

(٧) - عيون أخبار الرضا، ص ٨٥، وهو عدد ميقات موسى ومعتبر عند العرفاء والعلة في ذلك أن الشيء بإكمال هذا العدد ينقلب انقلاباً تاماً، شرح الأسماء الحسنى، ج ١، ص ٢٦٢.

(٨) - سورة القصص، آية ٨٩.

(٩) - سورة المائدة، آية ٥٥.

(١٠) - سورة الزمر، آية ٣.

(١١) - سورة الذاريات، الآية٤.

(١٢) - سورة النازعات، آية ٥.

(١٣) - العاملي، الحر، وسائل الشيعة، مطبعة مهر، قم ١٤١٤ هـ، الطبعة الثانية ج ٢٢، في مسند الإمام الرضا، ج١، ص ٣٧، للشيخ عزيز الله عطاردي وجدنا كفاية النص هكذا " .... والقائل بالجبر: كافر والقائل بالتفويض: مشرك فقلت له يا ابن رسول الله ما أمر بين أمرين؟ فقال: وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به وترك ما نهوا عنه، فقلت له: فهل لله عز وجل مشية؟ وإرادة في ذلك؟ فقال: فأما الطاعات فإرادة الله ومشيته فيها، الأمر بها والرضا لها والمعاونة، ومشيئته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها، قلت: فهل لله فيها القضاء؟ قال: نعم، ما من فعل يفعله العباد من خير أو شرّ إلا ولله فيه قضاء، قلت: ما معنى هذا القضاء؟ قال: الحكم عليها بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة".

الدرس التاسع

أقسام الولاية

بسم الله الرحمن الرحيم

سيكون الكلام حول التقسيمات المتعلقة بالولاية، وهي تنقسم كتقسيم أولي إلى ولاية مطلقة، وولاية مقيّدة. والإطلاق عادة يفيد نحو الوحدة، فبإطلاقها الولاية هي عبارة عن أمر واحد. وهذا الأمر الواحد يسري في كلّ شيء، له مقاليد كلّ أمر وكلّ خلق وهو القادر على كلّ شيء.

وبما أنّ الولاية المطلقة هي الولاية الواحدة، فالولاية المقيّدة هي ولاية متكثّرة إلا أنها جميعاً تعود إلى الولاية الواحدة، وكل مقيّد مرجعه أساساً إلى المطلق. فالمطلق متقدّم وجوداً على المقيد بالتالي هو الأصل والمقيّد هو الفرع.

من جهة اعتبار الولاية ولاية مطلقة، تكون من حيث إنّ الولاية صفة إلهيّة وإطلاقها لا يكون إلاّ الله سبحانه من حيث الأصل، وكل ولاية بالتّبع تعود إلى الولاية المطلقة.

من المفيد الالتفات إلى أنّ الولاية المقيّدة من جهة نسبتها إلى المطلق هي مطلقة، ومن حيث ارتباطها بقيدها هي مقيّدة. مثلاً بعد أن كانت الولاية للرسول محمد ﷺ في قيادته لمجتمع المسلمين، استخلفه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بعد وفاته وقد مارس ولايته من جهة ارتباطه بالقيد على صعيد المثال.

مثلاً واحدة من سنن النبيّ ﷺ موضوع صبغ اللّحى بالحنّاء وقد ألغى هذا الأمر أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام. لولا هذا الإلغاء لاعتبره

الناس تشريعاً، إذن من جهة الارتباط بالقيد هي ولاية مقيّدة.

تنقسم الولاية إلى مطلقة ومقيّدة، لأنها من حيث هي صفة إلهيّة مطلقة، وقد ورد في القرآن الكريم **﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾**[1]، **﴿أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون﴾**[2].

ومن حيث إسنادها إلى الأنبياء والأولياء مقيّدة، والمقيّد متقوّم بالمطلق، بحيث يكون له وجه إلى جهة الإطلاق، كما أنّ المطلق ظاهر في المقيّد.

"الأولياء هم أبواب الله عزّ وجلّ التي منها يؤتى ولولاهم ما عُرف الله عز وجل وبهم احتجّ الله تبارك وتعالى على خلقه". فإنّ الولي مع كونه ولياً لكنّه يأخذ هذه الصفة من باريه سبحانه وتعالى، "منه يؤتى الله"[3]. وفي مورد آخر: "يا من خصّ نفسه بالسمو والرفعة فأولياؤه بعزّه يعتّزون"[4]. هنا جهة النسبة إلى الباري عز وجل. وفي مورد ثالث: "يا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين" [5]، إذن فإنّ الأنبياء والأولياء كلها جزئيات الولاية المطلقة كما أنّ نبوّة الأنبياء جزئيات النبوّة المطلقة.

هل هناك نحو من الولاية المطلقة بمعنى أنّه فيمن استخلفه الباري ومنها تكون كل ولاية مقيّدة أم لا؟ ثمّ هل هناك نبوة مطلقة مستجمعة في نبيّ ومن هذه النبوّة المطلقة تكون كل نبوّة أم لا؟

هذا ما سيتمّ بحثه في الأبحاث المقبلة. فالولاية العامّة هي الولاية التي تخصّ كل مؤمن، وتبيّن الباب الذي يحتوي النظرة الإلهيّة في هذا المورد الذي هو مورد الولاية بالمعنى الخاص بأهل الإيمان، بمعنى أنها تعمّ كلّ مؤمن ومؤمنة. "وتنقسم أيضاً إلى العامّة والخاصّة، والأولى (العامّة) هي التي تعمّ جميع المؤمنين بأصنافهم (مما يعنى أنّ أهل الإيمان على صنوف ومراتب) منها اعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع من

دون برهان، كاعتقاد المقلد المصيب". هنا يعتبر أنّ المؤمن هو المعتقد عن جزم وثبات لا يتزلزل، ومنشأ هذا الاعتقاد الإخبار، فقد اعتمد على صدق المخبر وطابق اعتقاده الواقع، فإذا لم يطابق الاعتقاد الواقع صار جهلاً وشرط العلم مطابقة الاعتقاد للواقع. هذا النحو من التعريف هو تعريف برزخي ففي تعريف الإيمان:"هو ما وقّر في القلب وصدّقه العمل أو ما قامت به الجوارح"(٦).

مراتب الايمان :

من هنا فإنّ للإيمان مستويين:(٧)

المستوى الأول: الإيمان بالاعتقاد الجازم. وهو مأخوذ من الروايات، وقد جرت العادة عندهم أن لا يعرّفوا مصطلح الإيمان فيه، بل أن يعرّفوا رتبة غير الإيمان وهي درجة الإيقان وهذه الرتبة يقال عنها "اعتقاد جازم".

إنّ هذه الرسالة مكتوبة بلغة أهل العرفان مع تدخل للإشتياني، وعندالعرفاء أنّ نهاية الإيمان هو بداية الخطوة الأولى من اليقين بحيث يمكن للسالك أن يقوم بالاعتقاد الجازم إلا أنّ المشكلة في الصنف الأول الذي ذكره وهو (الإيمان من مخبر صادق)، وهو لا يصحّ أن يكون مورداً لليقين عند أهل العرفان، فلو تمّ السكوت تسامحاً من البداية كان من الممكن أن يؤذن بإدخال جملة (إنما استناده إلى مخبر صادق) وهو يصحّ في درجة من درجات الإيمان، لكن ليس في اليقين. وقد ورد في النص: "إنّ الإيمان له مراتب ودرجات منها اعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع من دون برهان كاعتقاد المقلّد المصيب". هل يصحّ اعتقاد المقلّد المصيب؟ بعض علماء الكلام منع ذلك، وهذا المنع من باب (إذا أردت أن لا تطاع فاطلب ما لا يستطاع).

وعند الكثيرين لا يمكن أن يتبنوا المعتقدات من خلال البرهان أنّ ما

يشترطه بعض علماء الكلام، هم لا يستطيعون تحقيقه. كأنه يحكي بعضهم على نحو التقصّي الدقيق لدرجة أنّه عليه معرفة كل المذاهب والأديان ومن ثمّ يصل إلى الاعتقاد الجازم وهذه مسألة غير مستطاعة.

في كتاب (ثمرة المهجة) لابن طاووس نقاش جميل جداً بكون الشخص لا يعتبر من أهل الإيمان إلاّ إذا قام بالدليل والبرهان، فلو افترض إنسان عمره خمس سنوات لا يوجد لديه دليل ولا برهان، هل يعدّ كافراً إلى أن يحصل على الدليل والبرهان؟ إنّ ابن طاووس يعتبر أنّ هذه المسألة أساساً لها نازع فطري، ولا تحتاج إلى مثل هذه المؤونة ولا يشترط مثل هذا الشرط وإن كان لا يمنع مثل هذا النقاش في الحقيقة.

وهذا الامر موجود عند اهل الذكر مما يطمئن الوجدان الاعتقادي، وهوالمستوى الأول من الايمان.

<u>المستوى الثاني:</u> هو الذي يقيم البرهان على مثل هذه الأمور، "ومنه أن يتصوّر الأمر على ما هو عليه" أي أن يحصل الاعتقاد من خلال معرفة نفس ما يعتقد به مباشرة، فيتعرف إلى الأمر الذي يريد التعرّف إليه، لا بواسطة العلماء(٨). لكنه كان مستنداً إلى البرهان المفيد للقطع، وهذا أرفع وأقوى كإيمان أصحاب الفكر وأهل النظر، وكلاهما مرتبة اليقينية.

أُعتبرت هنا الأولى والثانية مرتبة يقينيّة، مع أنّه عادة عند العرفاء الأولى لا تعتبر مرتبة يقينية، بل الأخيرة: هي مرتبة يقينية لكن بشرط أن يكون الذي حُقّق حُقّق بطريقة الحكماء الإلهيين، وهذا شرط أهل العرفان وطريقتهم، من البحث والبرهان والتدقيق المتعلّق بالمبحث الألوهي، فابن سينا مثلاً من الحكماء الإلهيين الذين التزموا البرهان دون الشق الآخر.

هل كل مخبر صادق يحصل رتبة اليقين؟ مع العلم أنه لم يقل أيّ منهما: هل هو يقصد علم اليقين أم يقصد عين اليقين؟ هو يقصد علم اليقين. أيّهما أرفع عنده، المخبر الصادق أم من خلال النظر؟

العلم الارثي:

عند العرفاء الأولى غير واردة، لكن ما يسمّونه بالعودة إلى العلم الإرثي هو الوارد عندهم، أي أن يكون قد حصل علمه من خلال علم الأنبياء أو علم الأوصياء، ومن دون تحصيله من نبيّ أو وصيّ لا يكون قد حصل رتبة اليقين(٩). وليس المقصود هنا على طريقة العوام من الناس وإنما على طريقة ما اكتسبه الملاّ صدرا في كتاب أصول الكافي، وهذا علم أرفع من الأول مستوى ومضموناً. إنّ هذه الروايات فيها كلّ العلم والجهد، ثم لا يسمّى العلم الإرثي بعلم اليقين بل اسمه عين اليقين لأنّ فيه عودة إلى المنبع(١٠).

زيادة إيضاح:

وقد أورد السّيد حيدر الآملي تقسيماً آخر يمكن الاعتماد عليه :
الرتبة الأولى: إيمان يشوبه شرك، لقوله تعالى**﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون﴾**(١١).

الرتبة الثانية: وهو إيمان يعبر عن تصديق ما جاء به النبيّ تصديقاً لا يشوبه شكّ ولا شبهة كقوله تعالى:**﴿إنّ المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا﴾**(١٢)، **﴿إنمّا المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكلون...﴾**(١٣).

الرتبة الثالثة: إيمان أهل النهاية من الأنبياء والأولياء والعارفين من أمتّهم وهو إيمان ذوق وكشف وشهود وعيان، وقد تحدّث القرآن عن المراتب الثلاث: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طمعوا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثمّ اتقوا وآمنوا ثمّ اتقوا واحسنوا والله يحبّ المحسنين﴾**(١٤).

تقول الرواية : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"(١٥). فأوّل اليقين أعلى مراتب الإيمان وليس وراءه مرمى **﴿واعبد ربّك حتى يأتيك**

اليقين﴾[١٦]، أي القين الحقّ لا العيني ولا العلمي، ومن هنا لا يوجد فيه ترتيب بين العامّي والوسط بل كل مراتبه مخصوصة بأهل النهاية ففيهم من هو في مقام علم اليقين، ومن هو عين اليقين، ومن هو في مقام حقّ اليقين. فعلم اليقين هو برهانيّات الحكماء، وعين اليقين هو إرث عن الأنبياء، وحقّ اليقين هو للذين حصلوا على معرفة الله ومعرفة الأشياء. على ما هي عليه بالكشف والمشاهدة والذوق والفناء وغير ذلك.

وقد ورد عن الإمام الصادق(ع) "إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح : روح البدن، روح القدس، روح القوّة، روح الشهوة، وروح الإيمان.

وفي المؤمنين أربعة: إنما فقدوا روح القدس.

وفي الكفّار ثلاثة أرواح: روح البدن وروح القوة وروح الشهوة. ثمّ قال(ع) "وروح الإيمان يلازم الجسد، ما لم يعمل بكبيرة فإذا عمل فارقه روح الإيمان، وروح القدس من سكن فيه فإنه لا يعمل كبيرة أبداً"[١٧]

"ومنها العلم الشهودي الإشراقي المطابق للواقع المعبّر عنه بالكشف الصحيح وهذه أقوى من المرتبة السابقة كإيمان أهل السلوك وأصحاب الكشوف ويكون مرتبة عين اليقين وكلّ هؤلاء أولياؤه تعالى، والله تعالى وليّهم وتتفاوت درجاتهم على حسب درجات إيمانهم".

الهوامش:

(١) – سورة الزخرف، الآية ٨٤.

(٢) – سورة الواقعة، الآية ٧١، ٧٢.

(٣) – راجع: شرح أصول الكافي / مولى محمد صالح المازندراني، ج٣، ص ١٢٤.

(٤) – العلامة المجلسي ، بحار الأنوار، دعاء عرفة، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ج ٩٥، ص ٢٢٠.

(٥) – ملحق دعاء عرفة .

(٦) – عن رسول الله (ص): "ليس الإيمان بالتخلي ولا بالتحلي ولكن ما وقّر في القلب وصدقه العمل"، الأحسائي، ابن جمهور، عوالي اللآلي، مطبعة سيد

الشهداء، ١٩٨٣، الطبعة الأولى، ج ١، ص ٢٤٨.
(٧) - قال الملاّ صدرا في شرح أصول الكافي: الإيمان إيمانان:
- تقليدي كإيمان العوام ومن يجري مجراهم.
- وإيمان علمي كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله الموهوب أوالمكسوب، كما قال عز وجل اسمه: "أفمن شرح صدره فهو على نور من ربه" (الزمر، ٢٢) فينكشف له بهذا النور وجود الحق وصفاته وأفعاله كما هو عليه، فيتضح له أنّ الكل من الله ومرجعه ومصيره إليه تعالى، فهذا الصنف من المؤمنين هم النازلون في الفردوس الأعلى في غاية القرب من الملأ الأعلى من العليين، وهم أيضاً على أصناف بحسب درجات معرفتهم وقوّة إيمانهم وشدّة يقينهم، وأعداد تلك الدرجات لا تعدّ ولا تحصى، إذ الإحاطة بكنه المعرفة لا يمكن ، وبحر المعرفة ليس له ساحل ولا لعمقه نهاية، وإنما يخوض الغواصون فيه بقدر قواهم.
وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فهو من أصحاب الموت ودرجته دون المقربين، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى كل الفرائض أي الأركان الخمسة، وأما من ارتكب كبيرة وأهمل بعض أركان الإسلام، فإن تاب وأصلح قبل الموت التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإن لم يتب فهذا أمره مخطر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لزوال إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، فإن الإيمان إذا كان تقليدياً وإن كان جازماً فهو قابل للانحلال بأدنى شبهة وخيال. (كتاب العقل والجهل، ص ٢٠٣).
(٨) - في الولاية المقيدة العامة يوجد مراتب بحسب مراتب الإيمان، والإيمان مشكك ذو درجات: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**، فالظلمات في الدرجة االعالية، غيرالظلمات في الدرجة الأدنى. ومن درجات الإيمان هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع دون برهان كاعتقاد المقلد المصيب، وذلك من خلال البرهان الفطري الباطني الشعوري ويتحقق بالعلم البسيط دون المركب، وهذا العلم - ليس بمعنى ثبوت المحمول للموضوع والمطابقة للواقع - وإنما يحصل عليه بالتقوى. **﴿إتقوا الله ويعلمكم الله﴾**، وفي درجة أخرى من الإيمان تتحقق من خلال العلم الحصولي الذي يكون بالتصور حيناً والتصديق آخر سواء كان الإعتقاد من مخبر صادق كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو من خلال البرهان الاستدلالي. وهذا الإيمان أرفع من الأول لأنه يفيدنا في الدفاع عن الدين والعقيدة ودفع الشبهات، وأما في الأول فصاحب الدرجة الأولى من الإيمان لا يقدر عليه.
وهناك مرتبة أعلى من مرتبة أهل الفكر _ مرتبة العلم بالعلم- وكلاهما مرتبة علم

اليقين، فهو اعتقاد المقلد المصيب والمحقق عنده وهذا العلم شهودي وليس اعتقاداً تقليدياً أو ذهنياً فقط، وهو المعبر عنه بالكشف الصادق المطابق للواقع، وهذه مرتبة عين اليقين والتي بدورها لها مراتب كثيرة.

وهذه المراتب الثلاث هي من مراتب إيمان أهل العامة، وأما المرتبة الرابعة فهي الإيمان المعبر عنه بحق اليقين، وعبّر عن هذه المرتبة التي فيها يكون العبد فانياً بالله باقياً به، بالخاصة؛ لأنها عبارة عن فناء العبد بالحق ذاتاً (المحق) وصفة (الطمس) وفعلاً (المحق)، وأحياناً أربعة مراتب: ذاتاً وصفة وفعلاً وآثاراً. لأن الآثار تعيّن الفعل والفعل يعيّن الصفة والصفة تعين الذات.

من همان دم كه وضوساختم از جشمة عشق

جاز تكبير زدم يكسره بر هرجه كه

"أنا الذي توضأت من منبع العشق"

"وجعلت أربع تكبيرات فوق كل شيء مهما كان كبيراً"

(٩) - إنّ للأئمة أنواعاً من الوراثة عن النبي صلى الله عليه وآله بجميع أقسامها ولكل الأئمة عليهم السلام منها الماضي والحاضر وكذلك الحادث، الذي هو العلم المتجددّ لهم، وهو على قسمين:

- أحدهما قذف في القلوب وهو الإلهام من الله تعالى.

- وثانيهما نقرٌ في الاسماع وهو تحديث الملك على ما يصرّح به ويشهد له الكثير من الأحاديث المعتبرة. وهذا القسم أفضل علومهم عليهم السلام.

وبه تزداد علومهم يوماً بعد يوم وكأن مشيئتهم التي يحصل بها العلم متصلة بهذا النوع من العلم. إذا شاؤوا علموا. ولاريب أنّ هذا العلم الحاصل بالمشيئة ليس من سنخ الماضي ولا من سنخ الحاضر، بل هو من صنف العلم المتجددّ الحادث.

فبالوراثة عن رسول الله صلى الله عليه وآله تكون العلوم لهم عليهم السلام ويكون الأمر لكل إمام لاحقاً بالنسبة إلى الإمام المتقدم، فيرث الإمام الثاني عشر عن أبيه عن جدّه حتى ينتهي إلى أمير المؤمنين عليهم السلام ويرث أمير المؤمنين عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وهذه الوراثة وراثة الدنيا والآخرة. من هنا فإنه لا يحصل لهم علم إلاّ عن طريق رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين يعلمه رسول الله أولاً ثم أمير المؤمنين ثم باقي الأئمة حسب ترتيبهم في الإمامة.

عن الصادق عليه السلام في (أصول الكافي: باب فضل العلم): "قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قد ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدأ الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة، وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنة وخبر النار وخبر ما كان وما هو كائن، اعلم ذلك كما انظر إلى

كفٌي، إنّ الله يقول فيه: تبيان كل شيء".
- في شرح أصول الكافي "الملاّ صدرا"، كتاب فضل العلم، ص ٤٣، "واعلم أنّ الفرق بين أهل البيت عليهم السلام أعني الأولياء الكاملين وبين غيرهم من العلماء في باب الوراثة عن النبي صلى الله عليه وآله، أنّ الولي المعصوم من الخطأ لا يأخذ العلم الذي هو ميراث الأنبياء والرسل إلاّ بعد أن يرث الله منهم ثم يلقيه إليه وأما سائر علماء الرسوم يأخذون العلم خلفاً عن سلف عن خلف حتى ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وآله أو إلى الوارث الإلهي وهكذا إلى يوم القيامة فيبعد النسب.
فعلي باب علم مدينة رسول الله وقد علّم ألف باب ومن ثم كل باب فتح له ألف باب عليهم جميعاً صلوات الله عليهم وبركات، وهذه هي الوراثة غير الدنيوية عن النبي إضافة إلى الوراثة الدنيوية الظاهرة. وبالتالي فإن العلم اليقيني الحقيقي من خلال أئمة الهدى عليهم السلام وبوراثتهم.
(١٠) - وقد قسّم الناس هنا إلى ثلاثة أقسام:
- الأول: عالم على هدى من الله وبيّنة من ربه أخذ علمه من الله على وجه الإلهام في القلب والإلقاء في الروع. وقد أغناه الله بعلمه الفائض من لدنه من علم غيره.
- الثاني: جاهل القلب، مغرور ومدعي للعلم لكونه يحفظ الأحاديث والأقوال ويحمل الكتب، وهذا العلم النظري الذي يقف عنده المتعلم ولا يتعداه إلى العلم العملي الحقيقي وفي هذه الحال يظن أنه عالم إلا أنّ قلبه جاهل أعمى لا بصيرة له، ولعله يكون معجباً بما عنده من ظواهر الأقوال أو المجادلات الكلامية والفلسفية، والكلام في المصطلحات الصوفية والعرفانية وهو لا يعرف منها إلاّ اسماءها ورسومها، التي يجلب بها نفوس العوام من الناس، ومن اغترّ بالصيت والسمعة من علماء الدنيا. "والذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم"، "ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً".
(١١) - سورة يوسف، آية ١٠٦.
(١٢) - سورة الحجرات، آية ١٥.
(١٣) - سورة الأنفال، آية ٢ .
(١٤) - سورة المائدة ، آية ٩٣.
- مرتبة الإحسان هي المرتبة المختصة بأهل التوحيد والإيمان المرحومين بالرحمة الرحيمية والذين لهم المرتبة العالية والقرب الإلهي باعتبار استعداد علمهم الثابت في الأزل.
(١٥) - صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠١ هـ، ج ٦، ص ٢٠.

(١٦) - سورة الحجر، آية ٩٩.
(١٧) - راجع: الشيخ الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، آخوندي، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ هـ، ج ٢، ص ٢٨٢.

الدرس العاشر

حقيقة المكاشفة

بسم الله الرحمن الرحيم

"العلم الشهودي الإشراقي المطابق للواقع المعبّر عنه بالكشف الصحيح وهذه أقوى من المرتبتين السابقتين كإيمان أهل السلوك وأصحاب الكشوف ويكون مرتبة عين اليقين وكل هؤلاء أولياؤه تعالى، والله تعالى وليّهم، وتتفاوت درجاتهم على حسب درجات إيمانهم".

الإشتياني هنا يبيّن مرتبة عين اليقين التي يحصل عليها الإنسان المؤمن من خلال العلم الشهودي[١]. ما معنى العلم الشهودي؟ وهل هناك فارق بين المكاشفة والشهود؟ هناك رأي ذهب إلى وجود الاختلاف، وصاحب هذا الرأي هو عبد الله الأنصاري صاحب كتاب "منازل السائرين" وقد اعتبر أنّ المكاشفة هي ملاقاة أحد المتباطنين الآخر بسرّه، والمتباطنين أي أصحاب البطون يعني الباطن، فأحدهم إذا أعطى سرّه للآخر تباطناً اسميت مكاشفة. ولا يكون ذلك إلاّ بإشارة خفيّة، ويقول الشيخ الأنصاري: "المكاشفة مهاداة[٢] السريّين متباطنين[٣] وهي في هذا الباب بلوغ ما وراء الحجاب وجوداً، والباري عزّ وجل يُوثر في إعطاء العلم وإرساله إلى باطن من يشاء. ولتكون هذه الأشياء علماً يجب أن تصبح من الباطن لديك.

وقد رُوي عن أفلاطون إذا كان العلم هو مجرّد الحواس، لتساوى القردة مع البشر والفارق بين الإنسان والقرد هو فارق التلقين. فالإنسان

القـرد يرى، إلاّ أنّ القـرد لا يبـقى في قلبـه شـيء، بينـمـا الإنسـان يمكن له حفظ هـذه الأشيـاء التي يتـحسـسـهـا، وبدون واسطة الحسّ تدخل العلوم الباطنة.

الكلام هو نحـو من العلم البـاطن بين الله وبين العـبـد أو بين الإمـام المعـصوم عليه السلام وبين العبـد (الإنسـان)[٤]. وهي في هذا البـاب بلوغ مـا وراء الحجاب وجوداً.

ماهية الحجاب:

قـد عُبِّـر عن لسـان الإمـام الخـمـيني (رض): "إنّ العلم هو الحـجـاب الأكبـر". من هنا فـان الوصول إلى هذا النحـو من الشـهـود يكون بعـد رفع سـتـار العلم. و هذه المكاشـفـة يحصلها وجوداً. وذلك يكون بتـحـول هذا الأمـر الوجودي لديه إلى شيء من الاتحـاد مـعه، فتكون عين المعـرفـة هي مـعـرفـة النفس، ومـعـرفـة النفس ووجـودهـا أمـر واحـد وهنا يكون العلم والمعلوم، فـإذا انقـضى الـحـجـاب يصبح العـالم والمعلوم أمـراً واحـداً هو حقيقة العلم، فيكون العلم والوجود والعالم والموجود أمراً واحداً وهذا ما يسمّى بالمكاشفة، و هذا النحو من المكاشفة هو عين اليقين.

من هنا فإنّ مرحلة الاقتراب مما يمكن أن يسمّوه بالفناء، تحصل بعد المعرفة بالعلم الإلهي وتمام الكشف، وذلك يكون بعد أن يتحدّ معها، وتبدأ أول رحلة الفنـاء فيـها ويتـعـرف على العلوم الإلهيّـة بـأعيـانها الثـابتـة، أي هذا العلم الأزلي وليس الذات.

يقول الشيـخ الأنصاري عن هذه الرتبة أنّها على ثلاث مـراحل لذّة في المرحلتين الأولى والثانية يشعر بلذّة اللقـاء والارتبـاط، وفي الثـالثـة يغيب حتّى عن لذّة اللّقـاء والارتباط والمكاشفـة لأنه ذاب، وقد ورد عن الإمـام السّجاد عليـه السلام: "رب زدني فيك تحيّـراً"[٥]، ومع ذلك يقول: "صفـة عين اليـقين أنّه حينمـا يصل إليهـا بالمكاشـفـة تبقى بسـمـاته" [٦] مثـالهـا الحـديد أو الفحم. الفـحم الأسود كلّمـا اقـتـربت منه النـار واقـتـرب منهـا

اشتعل بحيث يشتعل الظاهر منه ولكن الباطن لم يصل إليه الاحتراق فكلما أوغلت النار فيه كلما خرج عن كونه فحماً ليصبح جمرة.

في مثال الفحم التحم مع النار وهو في القابليّات التحم مع العلم الإلهي، وكل قابليّاته للذوبان أصبحت متوفرّة لكنّها لم تتحقق على نحو الفعليّة بعد.

الرتبة الثالثة والأخيرة هي حقّ اليقين، ويسميّها الشيخ الأنصاري برتبة المشاهدة، وهي أعلى من درجة المكاشفة وقد اعترضوا عليه، أنّه طالما قال: بأنّ لذّة اللقاء لم تعد متحققّة لديه إذن التغت السمات عنده فالمكاشفة هي كالمشاهدة. يقول الكاتب: "ومنها العلم الشهودي الإشراقي المطابق للواقع والمعبّر عنه بالكشف الصحيح، فهم واحد، وأشير إلى أنّ كلمة "الصحيح" التي استعملها ليست عن عبث بل هي للقيد ويقصد بها شيء ما.

بين المكاشفة والشهود:

والمكاشفة تارة تحصل بتقطع[٧] وتارة يكون هذا النحو من الاتّصال مستديماً[٨]، وأخرى غيب عنها [٩]. والكشف الصحيح هو حالة الاستدامة ويقابله الكشف العادي[١٠]. والمكاشفة في رتبة التقطع التي تفيد عين اليقين هي مكاشفة عاديّة.

متى تصل المكاشفة لتكون شهوداً؟ حينما تستديم فيصبح اسمها "المكاشفة الصحيحة" ومنها العلم الشهودي الإشراقي.

هنا احتمالات الزيغ والضلال واردة، فلذلك دائماً يقيّدها بالمطابقة بالواقع، فإذا لم تطابق الواقع بات جهلاً مركباً وهو أصعب أنواع الجهل. وهو من الأمراض التي لا علاج لها وكلما ازداد فيها توغلا كلما استحالت معالجتها. وهذه أقوى المراتب كإيمان أهل السلوك وأصحاب الكشوف وتكون مرتبة عين اليقين، وكل هؤلاء[١١] أولياء الله والله تعالى وليّهم وإنما تتفاوت درجاتهم بقدر قوة أو ضعف إيمانهم.

والمكاشفة التي تختص بالسالكين في مرتبة الفناء، يكون السالكين عند فنائهم في الخلق وبقائهم به علماً[١٢] وشهوداً وحالاً لا علماً فقط. وهي عبارة عن فناء العبد في الحق ذاتاً وصفة والمعبّر عنه بالمحق والطمس والمحو.

الطمس: هو ذهاب رسوم السيّار بالكليّة من صفات الله تعالى بمعنى آخر في أثناء السير والسلوك، الطمس هو عبارة عن غياب الرسوم الخاصّة بالإنسان بالكليّة تماماً في صفات نور الأنوار الذي هو مصدر كل نور سبحانه وتعالى.

المحق: هو فناء وجود العبد في ذات الله وأفعاله في فعل الحقّ، وهذا الأمر إشارة إلى توحيد الذات والصفات والأفعال بل أثراً ﴿**إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا**﴾[١٣].

المحو: هو ذهاب الشيء إذ لم يبق له أثر، فلو بقي له أثر يكون طمساً.

ورد عن الإمام الصادق(ع): "سألت أبا عبد الله(ع) عن قول الله تعالى:﴿**كل شيء هالك إلاّ وجهه**﴾[١٤] قال(ع): "دينه"، وكان رسول الله(ص) وأمير المؤمنين(ع) دين الله ووجهه وعينه في عباده ما دامت لله فيهم رؤية[١٥]. قلت: "ما الرؤية"، قال:"الحاجة". فإذا لم يكن لله فيهم حاجة رُفعنا إليه وصنع ما أحب"[١٦].

في بيان معنى قوله(ع): "نحن وجه الله الذي لا يهلك"[١٧].

يقول الشيخ سعيد القمّي [١٨]: "قد عرفت وجه كون الوجه هو الدين، وظهر أيضاً كون الدين هو النبيّ والوليّ المطلق، لأنّ الدين هو الوجه الذي للخلق إلى الله وهو بعينه الوجه الذي له تعالى إلى الخلق".

وفي تفسير لمسألة الوجه وجه الشخص هو المقدّمة التي يقابل بها الآخر، فما هو أمام الخلق ليقابل الباري هو وجههم والظاهر الذي يقابل الله به عباده هو وجه الله، فالدين هو وجه العباد الذي يقابلون به الباري والدين هو الوجه والظاهر الذي هو عليّ ابن أبي طالب(ع) فوجه التقابل

بين الخلق والخالق هو رسول الله محمدﷺ وأهل بيته عليه السلام.

ويكمل: "إلى الخلق بإضافة أنوار الوجود والهداية إلى صلاح معاشهم ومعادهم وهذا هو نور سيّد الأنبياء وسيّد الأوصياء المتحد هناك فطريقهما[١٩] إلى الله هو أنفسهما"[٢٠]. والعلاّمة الطباطبائي يورد ما معنى الصراط المستقيم ويورد رواية عن النبيﷺ أنّ عليّاً عليه السلام هو الصراط المستقيم. عليّ يسير بعليّ ليصل إلى الباري سبحانه وتعالى وهما طريق الخلق إلى الله من هنا وردت الآية الشريفة: ﴿**ولكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾[٢١]، بمحمد وعليّ وأهل البيت عليهم السلام تتوجّه أنوار الجمال إلى الظهور، فإذا ظهرت أنوار الجمال كانت خلقاً ووجوداً وهم سرّ الخلق، وبهم يتوجه العباد بأسرار الكمال إلى معدن النور، فكلّ عبد حينما يتوجّه إلى الباري مقصوده أن يحصل كل عبد كماله، وحقيقة العبوديّة عند كلّ عبد هي كماله وكماله حقيقة العبوديّة، لذلك بهم يتوجه العباد بأسرار الكمال وأسرار الكمال هي في الإنسان الكامل. فهم الدين وهم الوجه.

وأمّا قوله عليه السلام: "ووجهه" بعدما أفاد ذلك تفسير الوجه بالدين، فلمزيد من التوضيح وإزالة المغايرة الاعتباريّة، وأما كونهم عين الله فلوجهان؛ أحدهما كونه وجه الله بالمعنى الذي ذكر، وثانيهما أنّه بهم[٢٢] ينظر الله إلى عباده بالإيجاد وإفاضة المصالح والرشاد.

وقد اعتبر الباري عز وجل أهل البيت عليهم السلام أهل الكرامة بهم يعطي، وبهم يثيب، وهنا يوجد بين الشفيع والوسيط، وبين الشرك والتوحيد، وكلمة وسائط التي يوردها المؤلّف هي بمعنى أسباب.

ومن جملة الفيض تكليم الله عباده فهم في كلّ زمان لسانه في عباده يكلمّهم بالوحي والإلهام، وأما كونهم يد الله فلأن اليد صورة القدرة وبتوسطهم خلق الله الخلق كما بالقدرة يخلق الأشياء- وسيأتي وجوه أخرى لتصحيح وجوه اليد في بابه- ثم لمّا الإمام عليه السلام نسب الأمور

المذكورة إلى رسول الله ﷺ وعليّ عليه السلام أفاد اشتراك الأئمة عليهم السلام معهم لكونهم نوراً واحداً بعدما ذكر النبيّ والإمام ذكر الأئمة باعتبار أنّ الأئمة وعليّ والنبيّ إنما هم من نور واحد فقال: "نحن وجه الله"(٢٣).

وأمّا قوله له نزال في عباده إلى آخر الخبر فإشارة المقطع إلى أن عمارة الدنيا وبقاء الآخرة إنما هو بوجودهم عليهم السلام والمراد بالرؤية المفسّرة بالحاجة، والتدبير الذي يحتاج إليه الخلق في جميع أمورهم(٢٤)، فالمعنى "نحن وجه الله" يفيض منه أنوار الوجود والكمالات على العباد ومنه يؤتى إلى جوار الله حين الإعادة، والتوجه إلى الله بالرشاد "ولن نزال في عباده في دار الدنيا ما دام لله تدبير ومصلحة في بقائهم فإذا انتفت تلك المصلحة رفعنا الله إليه وصنع ما أحبّ من خراب الدنيا وعمارة الآخرة"(٢٥).

ولعلّ الوجه في تفسير الرؤية (بضم الأول وهمز الثاني) بالحاجة هو الذي في قول العرب، "لي في هذا الأمر رؤية" ولما كانت المصلحة مما يحتاج إليه إما الفاعل وإما المفعول يصحّ أن يعبّر عنه بالحاجة، والاحتياج مطلقاً ممتنع على الله فيعود إلى المخلوق.

وأمام قوله تعالى: **﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾** يفهم مسألتين:

معنى الفناء في الله.

معنى البقاء بالله.

فإذا كان وجه الله هو الدين وهو حقيقة محمد وآل محمد ﷺ فما معنى أن يفنى العبد في الله وما معنى أن يبقى به تعالى؟

الهوامش:

(١) - إنّ غاية مقصد العارفين هو الإيمان والمعرفة والعرفان بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وكتبه ورسله وهذه المعارف التي هي الثمرة من وجود إنسان كامل، لا تحصل إلاّ لمن سلك في الصراط المستقيم الذي سلكه جميع الأنبياء والمرسلين وأوليائه الطاهرين. وهذا الصراط لكونه من عند الله وبتوفيقه فهو لا يسلكه السالكون عن تقليد أو تعصّب أو اتباع آباء وأساتذة، لكونهم ملازمين

لألوهتهم التابعة لهواهم وإنما لكونه مسلك التوحيد الذي سلكه الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ومن اتبعهم "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيره أنا ومن اتبعني". وهذخ السبيل هي ولاية محمد وآله عليهم السلام ولا بد للوصول من السير في الصراط والسبيل المستقيم، لأن السير في الخط المستقيم هو أقرب طريق للوصول إلى الهدف ويقضي بسالكه إلى المقصود في أقرب زمان. لذلك ينبغي للقاصد إلى الله تعالى بعد تصفية نفسه من درن الشهوات وحب الدنيا أن يتحرّى أقرب الطرق وأسهلها مسلكاً وأمتنها فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا".

من هنا على من أراد الدخول في زمرة الملائكة المقربين بالولادة الثانية والصعود إلى ملكوت السموات والأرض والسير في الشريعة الغراء المحمدية ومتابعة الولاية العلويّة. هو اتباع ما ورد عن أهل بيت العصمة وإحسان التفكر فيما يوصلنا إلى المعرفة. إلا أنه قبل ذلك يجب معرفة متعلّق هذا التفكر الذي هو الشريعة. وقد أمر الله تعالى عباده سلوك طريقها من خلال مرحلتين:

١- العمل بالوظائف الشرعية العملية.

٢- تصليح العقائد الحقة (الأصول الخمسة وضروريات الاعتقاد العشرة وثبوتها بالأدلة القاطعة).

٣- إدامة التوجه إلى الله تعالى بالمراقبة مع المحبة الشديدة حتى يحاذي بقلبه شطر الحق، فيتجلى فيه من الحق ما يسمع به الحق تعالى، وما يتجلى فيه منه تعالى هو المعرفة التي يتمكن من خلالها أن يتفكر في شؤون الله و ذاته تعالى وصفاته وأفعاله. "بك عرفتك ولو أنت لم أدر ما أنت" من هنا فإنّ السالك لهذا المسلك يكون علمه ومعرفته منه تعالى فيمتاز عن غيره بأنّ علمه لما كان في مرتبة "التام بذاته" وذلك بحسب روحه التي هي في مرتبة العقل الفعّال عند الكُمّل من النفوس المقدسة. وأما عند أصحاب العلوم المكتسبة ظاهرياً فإن علومهم صرف الصور القائمة بنفوسهم، ولم تنكشف لهم حقائق الأشياء بصورها الواقعيّة في قلوبهم بالمشاهدة والعيان. وهم يحتاجون لحفظ علومهم إلى أسباب خارجيّة كالأعمى الذي يحتاج دائماً إلى قائد يسلك به، بعكس علوم أهل اليقين والمكاشفة الذين انكشفت الحقائق في قلوبهم بالعيان وأخذوها عمن أنزلها بتعليمه تعالى، كما أشير إليه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام "وكلّمهم في ذات عقولهم".

(٢) - من الإهداء، فهي بمعنى التقديم وعبّر عنها في العلوم الإلهية بتجلية الأمور.

(٣) - أي دون أيّ واسطة اعتياديّة تتمّ من خلال حصول العلوم التي هي وسائل اكتسابيّة التي تعتمد على الحواس الخمس.

(٤) - إنّ الحق في المعارف والعلوم الدينية وسائر الأمور العقائدية الحقة على ما هي عليها في نفس الأمر، إنما هو عند رسول الله محمدﷺ ولا يوجد حق عند أحد إلا ما خرج وأخذ من عندهم عليهم السلام، وهذه الأمور منهم لا يمكن إدراكها إلاّ بالعقل وجودته، ولا ريب في أنّ الناس جميعاً مختلفون في قوة العقل وضعفه، لذلك يختلف إدراكهم لهذه الأمور من شخص إلى آخر. ومن هنا نجد أنّ الكثيرين ادّعوا أنهم وصلوا إلى الحق تعالى، كما نجد أنّ غيرهم ردّ عليهم وكفّرهم، وهذا الاختلاف يكون بحسب اختلاف إدراكهم ولعلّ إليه يشير قوله عليه السلام: "يا سلمان لو حمل علمك على مقداد لكفر، يا مقداد لو حمل علمك على سلمان لكفر".

وقال العارف الميرزا جواد الملكي التبريزي قدس سره في كتابه "لقاء الله" إنّ الإنسان له عوالم ثلاثة: عالم الحس والشهادة، وعالم الخيال والمثال، وعالم العقل والحقيقة، فمن جهة أنّ أنيته الخاصة إنما بدأت من عالم الطبيعة كما في الآية الكريمة المباركة "وبدأ خلق الإنسان من طين" صار عالمه هذا له بالفعل وعرف نفسه وحقيقته بعالمه هذا، بل لو سمع من عارف أو عالم عن عالمية الآخرين أنكره، بل لو أخبره أحد بصفات عالمه العقلي لكفره، وذلك لأنّ عالمه وعالمية الطبيعي له بالفعل وعالميه الآخرين له بالقوة، ولم ينكشف له بالكشف التام إلا عالم- الطبيعة، وآثار من عالم المثال وشيء قليل من عالمه العقلي.

وإنسانيته إنما بعالمه العقلي وإلاّ فهو مشترك مع سائر بني جنسه من الحيوان في عالميه الآخرين، وإن كان عالماه الآخران أيضاً من جهة المرتبة أشرف من عالمي سائر الحيوانات.

وبهذه العوالم الثلاثة وترتيبها وقع التلويح بل التصريح في دعاء سجدة ليلة النصف من شعبان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال فيها: "سجد لك سوادي وخيالي و بياضي"، وفي رواية أخرى "وآمن بك فؤادي".

وقوله عليه السلام: "يا كميل إنّ هذه القلوب أوعية خيرها أوعاها"، ومن أراد أن يسلّم ويستكمل دينه وإيمانه فعليه أن يعتقد في جميع ما قاله محمدﷺ، وفيما أدركه عقله أولم يدركه، ثم يعمل بحسب ما يوافق علمه.

وقد ورد في الزيارة الجامعة: "مؤمن بكم وبما آمنتم به، كافر بعدوكم وبما كفرتم به... مؤمن بسركم وعلانيتكم وشاهدكم وغائبكم.." فينشرح صدره لقول المعصوم وفعله، وما لا يدرك كنهه لا ينكره وإن لم يعمل به يرد علمه إليهم عليهم السلام.

وحتى يخلص من تبعات هذا الاختلاف والضعف في الدرك لا بد له من تصفية النفس وتطهيرها من العلائق الدنيوية، وعن كل ما سوى الله تعالى، فبتقوية العقل

وتصفية النفس يصبح القلب قابلاً لتتجلى فيه حقائق الأمور وتتكشف له أعيانها.

(٥) - ورد عن علي ابن الحسين في "تفسير القرآن الكريم"(للسيد مصطفى الخميني)، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (قده)، الطبعة الأولى ١٤١٨، ج ١، ص ١٢٢.

(٦) - أي لم يذب بعد.

(٧) - مرة يحصل عند اللقاء ومرّة يغيب.

(٨) - هو في عين الله دوماً.

(٩) - إذا غاب يرجع لذاته هو.

(١٠) - وهو الملاقاة بتقطع.

(١١) - وهم ثلاثة: إمّا عن مخبر أو عن برهان أو عن كشف.

(١٢) - غابوا عن علمهم ليكونوا في علم الباري عز وجل.

(١٣) - سورة فاطر، آية ٤١.

(١٤) - سورة القصص، آية ٨٨.

(١٥) - في بعض المصادر: رويّة عن أبيه سيف بن عميرة النخعي عن خيثمة: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: "كل شيء هالك إلاّ وجهه"، قال: دينه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام دين الله ووجهه وعينه في عباده، ولسانه الذي ينطق به، ويده على خلقه ونحن وجه الله الذي يؤتى منه لن نزال في عباده ما دامت لله فيهم روية قلت: وما الروية، قال: الحاجة، فإذا لم يكن لله فيهم حاجة رفعنا الله إليه وصنع ما أحب، الشيخ الصدوق، التوحيد، جماعة المدرسين، قم، طبعة ١٣٨٧ هـ، ص ١٥١.

(١٦) - راجع العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ج ٢٤، ص ١٩٧.

(١٧) - الشيخ الصدوق، التوحيد، جماعة المدرسين، قم، تحقيق السيد هاشم الطهراني، الطبعة ١٣٨٧ هـ ص ١٥٠.

(١٨) - هو من أعظم العلماء والعرفاء الشيعة وله شرح على توحيد الصدوق وقد كان عند الإمام الخميني (رض) من الشخصيّات المهمّة جداً.

(١٩) - محمد ﷺ وعليّ عليه السلام.

(٢٠) - أي ليس الدين لأنهم هم الدين.

(٢١) - سورة الأحزاب، آية٢١.

(٢٢) - بهم: هنا تفيد السببيّة بكرامة وجودهم الباري عز وجل يكرم الخلق بالخلق.

(٢٣) - م س.

(٢٤) - شمل المواد التشريعية والأمور التكوينية.

(٢٥) - ورد في حديث آخر عنهم عليهم السلام أنّ الضمير في وجهه راجع إلى الشيء وعلى هذا فمعناه أنّ وجه الشيء لا يهلك وهو ما يقابل منه إلى الله وهو روحه وحقيقته وملكوته، ومحل معرفة الله التي تبقى بعد فناء جسمه وشخصه والمعنيان وربما نفسّر الوجه بالذات وليس بذلك البعيد له الحكم القضاء النافذ في الخلق وإليه ترجعون. راجع: الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، مؤسسة الهادي، قم المقدسة، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ، ص ١٠٩ .

الدرس الحادي عشر

الفناء في الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مرّ الكلام حول صنوف المؤمنين في الولاية العامة:

- الصنف الأول وهو الذي يأخذ إيمانه بيقين عن الخبر الصادق.
- الصنف الثاني وهو الذي يأخذه عن البرهان والدليل.
- الصنف الثالث وهو الذي يأخذه عن شهود وعيان.

وأمّا الولاية الخاصة فإنّ الإشتياني يقول إنها تختص بالسالكين عند فنائهم في الخلق وبقائهم به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط والخاصة عبارة عن فناء العبد في الحق ذاتاً وصفة، والمعبّر عنه بالمحق والطمس والمحو وهوإشارة إلى التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي، بل أثراً أيضاً ولساناً **﴿يا أيّها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾**[١]، **﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا﴾**[٢].

إنّ المطلب المطروح هنا هو في موضوع الولي الذي قد تلبّس بموضوعات الولاية، التي تارة تكون في الأمور التشريعيّة، وأخرى تكون في الأمور التكوينيّة والتي تسمّى بولاية التصرف وهي الولاية الحقيقيّة،

ويعبّر عن التشريعيّة بالولاية المجازيّة أو الاعتباريّة وعلاقتها تكون في المسائل الشرعيّة.

يقول العلامة الطباطبائي:[٣] إنّ الولاية في الأمور المعنويّة هي التصرّف في نفوس وأرواح الخلائق، وحينما يكون الكلام في الولاية في الأمور المعنويّة، يلزم منه أنّ للوليّ ممن وليِه ما ليس لغيره إلاّ بواسطته، فكلّ ما كان من التصرّف في شؤون من وليِه ممّا يجوز أن يخلفه فيه غيره، فإنما يخلفه الوليّ لا غيره.

مثلاً: إذا توفيّ شخص ما فإن الذي يليه ويدبّر شؤون ما كان يملكه هو مسؤول عمّا كان مسؤول عنه الأول ومسؤول حصراً، بالتالي لا يمكن لغير من ورثه أن يتصرّف في ذاك المال أو ما كان يملكه الأول المتوفي، على ضوء ذلك فالواسطة لإنفاذ حقّ التصرّف في شؤون المال هو إرث المتوليّ الجديد، وعند القول: إنّ الله أولى الأمر إلى فلان يعني أنّ الباري سبحانه وتعالى كل ما يتعلّق بحقّه إنما تمت إدارته من خلال من ولاه الله، فإذا كان شأن الناس أمر هو بيد الله تعالى [٤]، من يوليه الله هو الذي يحقّ له أن يتصرّف بما يريده الباري وبما هو بيد الباري وما يملكه إلاّ من خلال من ولاّه الله، فالعبد يعلم أنّ الأحكام الشرعيّة التي أوحاها الله عليه إنما هي لمصلحته، ومن يحدد مصلحة العبد هو ربّه تعالى، إذ أنّ هناك نحواً من المصالح الخاصّة بالعبد لا تتحقق إلاّ عند القيام بالتكاليف الموجبة عليه مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة والخمس والجهاد والعلم والتعليم... ، والباري قد بلّغ العبد بهذه التكاليف من خلال وليّه الذي هو الرسول وكذلك من خلال إيضاحات الإمام المعصوم.

فهل يمكن لأحد أن يتدخل في أمر يحدده الله تعالى من دون العودة إلى من ولاّه الله؟

إنّ أيّ نحو من أنحاء العلاقة فيما هو بيد الله تعالى لا يمكن التواصل معه إلاّ من خلال من ولاّه الله، وهذا الأمر الذي يخلفه غيره

فإنما يخلفه الولي لا غيره والله سبحانه ولي عباده.

وقد ذكر العلاّمة الطباطبائي قدس سره أن الله تعالى وليّ عباده يدبر أمرهم في الدنيا والآخرة ولا وليّ غيره، والله سبحانه أعطى لنبيه الولاية[٥]، و هو ولي المؤمنين في تدبير أمر دينهم، وذلك الامر يكون عبر الهداية فالله يهدي عباده إلى دينهم.

طُرق الهداية:

هناك طريقان للهداية الإلهيّة؛ الأول مباشر والثاني غير مباشر، ومن الأول الدعوة والتوفيق، ومن الثاني الرسل والأنبياء. فالهداية تنقسم إلى قسمين:

١) الهداية العامة.

٢) الهداية الخاصة .

والثانية هي التي تختص بكل مؤمن والتي تسمى بالتوفيق والنصرة، والنبي وليّ المؤمنين من حيث إنّ له أن يحكم فيهم. ولهم وعليهم بالتشريع والقضاء، وكذلك الحاكم وليّ الناس بالحكم فيهم على مقدار سعة حكومته. هذا في مفهوم الولاية والولي بصورة عامة.

وقد ذكر السيد حيدر الحلي في كتاب "النصوص" يقول: "الولاية عبارة عن قيام العبد بالله تبديل أخلاقه بأخلاقه، وتحقيق أوصافه بأوصافه كما قالﷺ : "تخلقوا بأخلاق الله"[٦].

وقيام العبد بالله يعني أنّ الإنسان الذي حدثنا الله عنه في القرآن الكريم وقال:﴿فإذا سويّته ونفخت فيه من روحي﴾[٧] له مكانة استحق بها أن تسجد له الملائكة، لأنّه بعد أن نفخ فيه من روح الله سجدت له الملائكة وهذه الحقيقة ليست حقيقة بشريّة، وقوله: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ بمعنى هذه الروح التي عناها الله هي التي نفخ فيها. ولم يقل ونفخت فيه روحي، إذ أنّ هناك نسبة ما موجودة في الإنسان ولكن هذه النسبة هي نسبة إلهيّة، وهي سرّ عزّة الإنسان وكرامته وعظمته التي

تفوق الكعبة. لذلك نرى في الروايات أنّ إهانة المؤمن أعظم عند الله من أن يعصى الله بجوار الكعبة.

إنّ هذا الجانب يشير إلى أنّ في الإنسان جهة بشريّة، وفيه جهة إلهيّة، ولكن إذا سعى الإنسان لأن ينفض عنه كل جهة بشريّة موجودة فيه من طمع ونزوة وهوى وشهوة وأنانيّة وإلى ما هنالك من ركون إلى الدنيا، فإن الجهة المتعلقة بـ (روحي) تبقى وتظهر بفعليّة تامّة، فيصبح هذا الإنسان فانياً عن نفسه البشريّة وباقياً بروح الله تعالى ، فالجهة الإنسانيّة في الإنسان منسوبة إلى كلمة من روحي فنفي عن جهته البشريّة وبقي بالجهة الإلهية أي أنه بقي بالله، وهذا ما يسمّى القيام بالله.

والقيام بالله يكون بإنتفاء الخصائص البشريّة من طمع وأنانيّة وغيره، إلاّ أنه يمارس حياته الاجتماعيّة والأسريّة بشكل طبيعي. بالرغم من كل ما يقوم به من حركة ونفس وسكنة تصبح لديه ذات نكهة ونفحة وطابع إلهي، هنا لا يكون القيام فهو ليس قياماً من الجهة البشريّة بل قياماً بالله العزيز الجبّار الرحمن الرحيم.

قد يتساءل أحدهم عندما تنتهي ال "مِن" التي تفيد الخصوصيّات لتصل إلى ما سمّي بحوض النبي، الذي يشير إليه الإمام بالوصيّة الخالدة أنه لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض. يقول : "نحن لا نفهم ما معنى الحوض"؟ هل أنّ كل شيء في هذا الوجود هو عبارة عن نقاط تعود لتذوب في الحوض؟[٨] وهل كل من يرد الحوض، حوض النبيّ وفاطمة وعليّ عليهم السلام، وأيّ موالي هو عبارة عن هذه النقطة التي تتواصل مع الحوض؟ يبقى هذا السؤال الكبير في هذا الشأن.

أنواع البشر:

الشيخ الإشتياني يُعرّف الوليّ بأنّه ذاك الذي قد فني عن نفسه وبقي بالله سبحانه وتعالى، وجهة الفناء عن الذات والبقاء بالله منشؤها

عند كل إنسان نسبة إلى الباري ونسبة إلى جهته البشرية الخاصة به، وهنا نورد ثلاثة أصناف من البشر:

الصنف الأول: قسم من الناس سلوكهم وأعمالهم وصفاتهم وذواتهم كلها بشريّة، بل يتردى مستواهم إلى درجة من الأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، كما في التعبير القرآني، كما أنه يصل إلى المستوى الذي لا يعود بحاجة فيه إلى عدوه إبليس بل هو أخطر من إبليس فيصبح الجنب المنسوب إلى الباري مقطوع، **﴿وانّ الكافرين لا مولى لهم﴾**(٩) أي لم يعد لديهم أيّ ولي والجنبة المتعلقة بالله يعدمها هؤلاء والذين يعبّر عنهم بالمخلّدين بالنار.

الصنف الثاني: وهم على مراتب بحيث تبقى الجهة البشريّة فيهم وتبقى جهة النسبة المتعلقة بالباري عز وجل أيضاً، هؤلاء خالدون في النار ما دامت السماوات والأرض. كما إلى ذلك اشارت الآيات والروايات، والمقصود بما دامت السماوات والأرض أنّ خلودهم في النار ضمن عالم البرزخ بحيث لا يشعرون بطول المقام في البرزخ لذلك الخلود، وبطول العذاب في القبر ويأخذون أنواع وألوان العذاب، حتى أن الباري يرحمهم بهذا العذاب لأنه يذيب عنهم جهات الذنب والجهات البشريّة. ومن ضمن هؤلاء من يبقى على مشكلته حتى وصوله إلى النار أيضاً فيبقى فيها زمناً طويلاً.

الصنف الثالث: وهم الذين غلبت عليهم جهة الألوهيّة، أي جهة الإنتساب إلى الله في (من روحي)، وهؤلاء بعضهم يعذب في القبر لفترات، وبعضهم كما في الروايات أنهم يبقون في القبر ثلاثة أيام ثمّ ينتقلون إلى القيامة الكبرى التي هي القيامة بالله **﴿إنّ إلى ربّك الرجعى﴾**(١٠)، وهنا تبرز خصوصيّة الشهداء ويُفهم ما معنى أن الشهيد لا ينزل إلى القبر ولا يحاسب في قبره .

وكذلك تتوضح مسألة كيف أنّ أحدهم لايكون شهيداً إلاّ اذا خَلُصَ في جهة العلاقة، جهة الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى، فيبقى في قبره

ثلاثة أيام، تجري فيها المحكمة، محكمة ضغطة القبر، ومحكمة وحشة القبر ومحكمة سؤال منكر ونكير، ليصفو في جهة العلاقة مع الباري سبحانه وتعالى.

ومن الخلق من ليس فيه إلاّ جهة النسبة إلى الله، حتى يسمّى بوجه الله وهؤلاء هم آل بيت محمدﷺ : "نحن وجه الله الذي لا يهلك"[١١]. من هنا فإنه يوجد جهتان:

الأولى: أن هذا الوليّ الذي فني عن جهته البشريّة وبقي في الله، و إلى هذا الفناء يشير العلامة الاشتياني بأنّ الأشياء تغيّرت حقيقتها التي كانت اثنين فصارت واحدة، وهذا لا يعني أنه فني وصار عدماً، إنما جهته البشريّة الحاكمة فيه قد انعدمت، فلم يبق فيه إلاّ وجه واحد هو النسبة إلى الباري، وهنا يكون البقاء بالله.

هذا الأمر يبرز في المباحث المتعلقة بالمعاد وتحديداً بيوم الحشر، وقد ورد في الروايات أن هناك أقواماً يحشرون يوم القيامة على صورة قردة وكلاب وخنازير والعياذ بالله وبعضهم يُحشر على صورة تحسن عندها القردة والخنازير[١٢]، وهم يحشرون من جهة بشريتهم.

فالإنسان يحشر في الآخرة على صورة عمله فهو إما أن يحشر (وهنا دور الوليّ) من جهة بشريته أو من جهته الربانيّة، وهذه الجهة الربانيّة (من روحي) تعود إلى ربّه. وقد رُوي عن النبيﷺ: أنّ أمير المؤمنين عليّعليه السلام كان يبكي فيقول له النبيﷺ: ممّا بكاؤك؟ فيجيب أمير المؤمنينعليه السلام": من الكلام" فيرد عليه رسول الله قائلاً: "يا عليّ أنت يومئذٍ وشيعتك على جبل من زبرجد تنظرون ماذا يفعل بالناس".

والمنطق السليم يقتضي أنّ فعل المرء الذي يمارسه لا يجب أن يكون إلاّ فعلاً إلهياً، أي يحققّ لله رضى فيه، وخير مثال يذكر قول رسول الله بحق السيدة فاطمة عليها السلام أنه قال: "رضا فاطمة رضا الله"[١٣] ذلك أنّ فعل فاطمة يستحيل أن يكون إلاّ فعلاً إلهيّاً.

فلا بدّ إذاً لأخلاق الإنسان أن تتبدل والمقصود في الأخلاق في هذا المورد أنها المنابع التي منها يصدر الفعل، اذ انه في بعض الأحيان يصدر عن المرء فعل كريم، ولكن المنبع لديه لا يكون منشؤه كريما، لأنه من الممكن لشخص غير كريم أن يقوم بفعل يحمل صورة الكرم. والكرم هو عبارة عن حقيقة ينبغي أن تقوم في الذات كُخلق في هذه الذات، مثل خلق الكرم، الجود، القناعة، والرضا. من هنا يكون الفعل فعلا إلهيا، ومنبع الفعل الخلقي يصبح منبعاً إلهيّاً بل الصفات التي يتحلى بها هي صفات إلهيّة (١٤)، "تخلقوا بأخلاق الله"(١٥).

حقيقة الفناء:

إنّ الفارق بين الإنسان وربّه أنّ الله سبحانه هو مطلق العلم والإنسان صاحب علم محدود لا مطلق ولا كامل، هذا من جهة الأفعال، وأما من جهة الذات فالفناء يصل الى درجة تفنى ذات العبد في ذات الباري تعالى، وليس معنى الفناء هنا أن يصبح العبد إلهاً، وإنما المقصود بأنّ ذات العبد تصبح إلهيّة، بحيث تكون النسبة الموجودة لدى العبد باقية لديه، بينما الذي يفنى هو الجهة البشرية عنده، فتصبح الذات الموجودة لديه هي الذات المنتسبة إلى الله سبحانه وتعالى(١٦). وقد أشار النبيﷺ الى هذا الامر:**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ انما إلهكم إله واحد..﴾**(١٧).

وقد أراد الباري في البداية أن يزيل عن أذهان الناس مشكلة يمكن أن يقعوا فيها، وهي أن يعتبروا أنّ هذا المخلوق الذي يوحى إليه هو " بشر" وبأنّ الله تعالى واحد ويستحيل أن يكون إلاّ واحداً.

فإذا كان لرسول الله جهة بشرية و في نفس الوقت يوحى اليه، فما هي حقيقته؟ وكيف أنّ له رتبة عالية خاصة به صلوات الله عليه، وهي كمال التألّه في الله تعالى، مع أنّ البشرية موجودة لديه؟

صحيح أنّ لكل انسان فيه شيطاناً "إلاّ أنّ شيطاني قد أسلم على يدي"[١٨] فالشيطان الذي يشكل كل عناصر المكر، قد طوّعه رسول الله ﷺ.

وهنا يرد هذا السؤال: هل يمكن للإنسان غير المعصوم أن يصل إلى مثل هذه الرتبة؟ لو لم يكن هناك القابليّة والقدرة عند غير المعصوم الوصول إلى هذا المقام لما أمره الرسول بالتخلّق بأخلاق الله والتأسّي به، وقد ذكر الإشتياني أنّ الوليّ هو الفاني فيه تعالى الباقي به، وليس المراد بالفناء انعدام عين العبد مطلقاً بل المراد منه فناء الجهة البشرية في الجهة الربانيّة[١٩]، فإنّ العبد مبدأ [٢٠] لأفعاله وصفاته فالذات هي مصدر الصفات، وهي مصدر الأفعال فإذا ساءت الذات ساءت الصفات والأفعال، وإذا حسنت الذات حسنت الصفات والأفعال، أما إذا كانت هذه الذات بشريّة دنيئة كانت الأفعال والصفات كذلك.

قبل الاتصاف بمقام الولاية من حيث الحَشريّة[٢١]، وبعد اتصافه بها[٢٢]، هو مبدؤها [٢٣] وكما نُقل عن علي عليه السلام: قلعت باب خيبر بقوة ربانية" [٢٤]، وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنهم دخلوا ورأوا الإمام يحاول كسر خبز شعير بصعوبة، فكيف وهو من قلع باب خيبر الذي يعجز عن هزّه أقوى الأقوياء.

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: "ما ضعف بدن عمّا قويت عليه النيّه"[٢٥]. وورد في الحديث القدسي:" فإذا أحببته[٢٦] كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به"[٢٧] وذلك لا يحصل إلاّ بالتوجه التام إلى حضرة الحق المطلق المتعال سبحانه إذ به يقوّي حقيقة الروح فتغلب الجهة الخلقيّة إلى أن تقهرها وتفنيها من أصلها، كقطعة من الحديد المجاورة للنار فإنها بسبب المجاورة والاستعداد والقابليّة المختفية فيها تتسخّن قليلاً قليلاً إلى أن يحصل فيها ما يحصل من النار والإحراق

والإضاءة وغيرها، الا أنه لا يمكن القول بأنها نار تفعل فعل النار وإن لم تكن ناراً. وقبل ذلك كانت مظلمة كدرة باردة فكيف بالروح الإنسانيّة والنفس الناطقة القدسيّة القابلة للخلافة الإلهيّة والوجود الحقاني بالتصفية والتسوية.

إذا ما جاورت هذه النفس القدسيّة الحق كيف تجاوره والله يقول "قريب" أجيبك بل أكثر، "أقرب إليه من حبل الوريد" وأكثر أقرب إليه من نفسه، أي أنه ﴿**يحول بين المرء وقلبه**﴾[28]، فالنفس هنا فيها كل القابليات وهي مجاورة للباري وحصلت لها التصفية[29] والتسوية ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾[30] وكيف لا وقد وقع في الآثار المأثورة، "فلو أنّ بعض الناس عاشروا الملوك والسلاطين وأصحاب الكيانات الاجتماعية المتميّزة، فلا بدّ من أنّ شخصيتهم ستحمل من التهيّب والوقار، فكيف إذا كان هذا القرب من الباري الملك الجبار؟ ولهذا السبب يكون التحذير من رفقاء السوء، مما يوجب البحث عمّن يعاشر المرء، وهذا من ضمن الأمور التي لها بابها الخاص والخاص جداً في آداب أهل السير والسلوك، والمعشر عندهم أمر ضروري، لأنهم يعتبرون أنه هناك نحو من التأثير الذي يحصل بمجرّد اللقاء.

الهوامش:

(١) - سورة فاطر، آية١٥.

(٢) - سورة فاطر، آية ٤١.

(٣) - راجع: تفسير الميزان، ج ٦، ص ١٢.

(٤) - حكم الناس وإدارة شؤونهم.

(٥) - هنا نعود إلى الولاية المطلقة التي تسري في كل ولاية مقيّدة، الولاية المطلقة هي فقط ولاية الله وتظهر في الولاية المقيدة التي تختص بكل نبي نبي وبكل إمام إمام وبكل وليّ وليّ.

(٦) - راجع شرح الاسماء الحسنى، للملا هادي السبزواري، ج٢ ص ٤١.

(٧) – سورة الحجر، آية ٢٩.
(٨) – النقطة التي تنزل في الحوض لا تعود نقطة إنما تصبح من الحوض ولم يعد لها خصوصيّة النقطة.
(٩) – سورة محمد، آية ١١.
(١٠) – سورة العلق، آية ٨.
(١١) – م.س.
(١٢) – أي مركبة من ثلاثة أو أربعة أمور.
(١٣) – بحار الأنوار، للعلامة المجلسي، ج٢٨، ص ٣٥٧.
(١٤) – الله عليم أعلم بالعلم، والله حليم أعلم بالحلم.
(١٥) – م.س.
(١٦) – وفي ميدان الحديث عن الجهة البشريّة نتساءل: ما المقصود بها؟ المقصود بالجهة البشرية هنا ليس أن يأكل أو يشرب، إنما يعني القابليّة لدى هذا المخلوق ومدى إرتباط قلبه بشؤون الدنيا، والمطلوب هو أن يكون الأكل والنوم وأي فعل هو إرضاء لحكم الله ولا يميل القلب إلى تحقيق ما ليس بالدنيا المحقرّة المذمومة وأي تحقيق لميل القلب يجب أن يكون نحو الله ولا يتوجه إلاّ إلى الباري عزّ وجل، وبهذا اللحاظ يصبح كل شيء عنده حتى الدنيا الجسد و الكلام مع الناس، كل هذه الأفعال إذا كان ميل القلب فيها فقط نحو الباري عز وجل فإن النظرة لها مختلفة.
وقد روي أنّ أحدهم شتم الدنيا أمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: "ثكلتك أمك هذه الدنيا هي التي نزل فيها الوحي، وهي التي فيها الأنبياء تكلموا وعاشوا وماتوا، وهذه الدنيا هي التي استخلف الله فيها من يريد أن يستخلفه، هذه خلق الله".
فالحقيقة أنه أصبح يرى الدنيا باعتبارها رحمة إلهيّة ووديعة إلهيّة، بل ثمرة إلهيّة فلم تعد الدنيا تساوي الدناءة وهنا يكون انتهى عن الجنبة البشريّة، والمقصود بالجنبة البشرية ليس أن لا يكون له جسد وعينان، بل الميل نحو شيء غير الباري عز وجل، والإحساس بأنه يستقل به يريده وحده إما أن يميل نحو الله بالتمام أو أن يميل نحو غير الله بالتمام أو الخلط بينهما.
(١٧) – سورة الكهف، آية ١١٠.
(١٨) – ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، مطبعة سيد الشهداء، قم، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ج ٤، ص ٩٧.
(١٩) – أي تصبح المواصفات ذات الطابع المتدني هي مواصفات ربانية.
(٢٠) – الإنسان العبد مبدأ أي مصدر.

(٢١) - يعني كل عمل وصفة لدينا نكوّن من خلالها الذي سنحشر عليه إذاً الإنسان هو الذي يوجد صورته ليوم الحشر.

(٢٢) - بعد اتصافه بالولاية.

(٢٣) - مبدأ الصفات والأفعال الولائية من حيث الجهة الربانيّة.

(٢٤) - "شرح الاسماء الحسنى"/ للملاّ هادي السبزواري/ ج١/ ص:٢٣٠/ مطبعة بصيرتي.

(٢٥) - الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٤، ص ٢٤١٠.

(٢٦) - أي العبد لله.

(٢٧) - العاملي، الشيخ البهائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص ٢٨٨.

(٢٨) - سورة الأنفال، آية ٢٤.

(٢٩) - والتصفية بمعنى تخليتها من المساوئ وتسوية النفس أي جعلها سوية بالتحلي والتجلي.

(٣٠) - م. س.

الدرس الثاني عشر

العلاقة بين النبوّة والولاية

بسم الله الرحمن الرحيم

قد ورد في النص: "وكيف لا وقد وقع في الآثار المأثورة أنّ المقربين للملوك الظاهرة والظاهريّة علائم وشواهد يُعرفون بها ويتميزون بها عن غيرهم ولهم جلالة وسلطان عند العساكر والجنود والرعيّة وكلّ هذا من ناحية التقرّب الذي لهم إلى هؤلاء السلاطين فكيف لا يكون للمقربين إلى الحق المتعال آثار السلطة الحقيقية الحقّة الإلهيّة وقد ورد: "عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون"[1]، ثمّ ذلك التوجه لا يمكنه إلاّ بالمحبّة الذاتيّة الكامنة في العبد وورودها لا يكون إلاّ بالاجتناب عمّا يضادّها ويناقضها وهو التقوى **﴿الله يحبّ المتقين﴾**[2]، **﴿إنّ اكرمكم عند الله اتقاكم﴾**[3]، **﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**[4]، فالمحبّة هي المركب والزاد هوالتقوى".

تفيد هذه الصورة أنّ كل المسألة ما زالت قائمة على موضوع التقرّب والقربة إلى الله لدرجة أنّ العبد يلبس ثوب التقوى والولاية، ويفنى في الله تعالى **﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾**[5].

وقد اعتبر الإشتياني أنّ تغيّر العبد من خلال التقرّب إلى الله تعالى أمر طبيعي، إذ إنّ تأثير المعشر يلعب دوراً في طبيعة ونفس الإنسان سواء كان نحو الشقاء أو نحو السعادة في الآخرة. ويضرب لذلك المثال المتعلّق بمن يكون مقرّباً من الملوك والسلاطين، والهيبة التي يحصل عليها.

عند الإشتياني وغيره هذا التبدل ينشأ من أمرين:

- الأول: من المجاورة والقربة.
- والثاني: ممّا هو كامن في ذات المجاورة.

شروط التبدّل عند العبد:

١- الظروف المحيطة بالعبد.
٢- القابليّة الكامنة في داخل العبد.

إنّ شرط المجاورة أساسي في التقرب إلى الله تعالى، إلاّ أنّه يجب أن يتواجد في داخل الإنسان الذي يودّ أن يتحلى بالسمة الإلهيّة، والصفات والخلق الإلهي أمرٌ آخرٌ ليس هو بشهوات الإنسان ونزواته، وإنما هو الناحية المقدسة التي تارة يطلق عليها اسم العقل، وفي مرتبة أخرى يطلق عليها اسم القلب.

وهناك جانب آخر غير العقل يعبّر عنه بالحبّ في الله سبحانه وتعالى. وهو موجود في القلب، وهذه الميزة تخرق كل قانون عند العقل، و ذلك كأن يترك أحدٌ كل شيء ليذوب في الله تعالى. وقد ورد في مأثورات القصص عند العرفاء، أنّ الإمام الحسنعليه السلام كان يسير في الصحراء فرأى قيساً مرهقاً وجائعاً، فترجل الإمام الحسن عليه السلام ليحاول أن يعينه ويصعده إلى حصانه، يقولون:"وبينما هو يساعده على ركوب الحصان يقول له: "يا قيس مع من الحق معي أو مع معاوية؟"، فيقول له: "الحقّ كلّ الحقّ مع ليلى". ويقصد من هذا المثال أنّ المحب لله سبحانه وتعالى لا يعرف لغير الله مكاناً. إنّ الأمر القادر على تغيير وتبديل جوهر وحقيقة الإنسان هو الحب لله سبحانه وتعالى، وهذا ما عبّر عنه: "التوجّه لا يمكن إلاّ بالمحبّة الذاتيّة الكامنة في العبد".

تبصرة:

قولك القطعة من الحديد المجاورة للنار... لا يخفي على أولي الدارية والنبهة أنّ هذا المثال من باب التقريب، إنّ هذه التنظيرات التي وقعت في كلام القوم من باب ضيق مجال التعبير فما من عارف تحدث إلا وقال

بعدما يكمل، أنّ كل ما قلته إنما هو من باب ضيق العبارة، وفقد العبارة الوافية ببيان المراد، وهي ليست مطابقة على المقصود وعلى ما ينبغي ومؤدية للمطلوب كما هو حقّه، فهي المقرّبة من وجه ومبعّدة من وجوه. كيف لا والحديد والنار موجودان عرضيان والطوليّة بينهما إنما هي في وصف الحرارة وما يتبعها من الصفات والآثار.

كلّ الموجودات أثاره وظلاله تعالى:

العلاقة ما بين العبد وما بين الباري متفاوتة، بحيث تكون هذه العلاقة من حيث الوجود طوليّة، وليست كيانيّة بموازاة بعضهم البعض، ولكن أيّهم كان إنساناً أو ملكاً وغيرهما فنفس ذاته من أفعاله تعالى وآثاره. وأثر الشيء ليس بشيء قباله، وظلّ المرء ليس غير المرء، وأثر الشمس ليس شمساً وأثر النار ليس ناراً وصوت الإنسان ليس إنسانا، فيتخيّل الرائي أنه شيء وليس بشيء. كما ورد في أصول الكافي عن الإمام الصادقعليه السلام في باب صحّة إطلاق الشيء على الله تعالى وأنه شيء بحقيقة الشيئية أي فليس غيره تعالى شيئاً موجوداً على الحقيقة[٦].

ملازمة الحبّ للتقوى:

الحبّ يساوي أن لا يعمل المحب إلاّ ما يشاء حبيبه، ويساوي أيضاً أن يترك كل ما لا يرغب به، وهنا يظهر عامل التقوى وهو أن يجتنب...، فالتقوى تصبح ترك كل شيء لا يرضى به الباري سبحانه وتعالى. فالمحبة هي المركب والزاد هو التقوى. وقد يصل الجهل بالإنسان حتى يحسب الظل شخصاً بسيط دون تركيب، عندها لا يدخل النور قلب العبد دون أن يخرق الحجاب ويعزز التهذيب.

ولما كانت ذاته تعالى صرف الحقيقة الأصليّة الواحدة بالوحدة الحقّة الحقيقيّة التي لا مقابل لها أصلاً. وحقيقة الحياة الأزليّة الأبديّة التي لا ثاني لها. ولذلك قيل: لا شريك أصلاً، بل هو لفظ ظهر تحته العدم

فأنكرته المعرفة بالتوحيد الوجودي، فوجود الممكنات بأسرها هي آثار النور الحقيقي للباري وفعل هذا النور وذواتها صرف الفقر والربط بممسك السماوات والأرض وقيّوم الكل، لا الأشياء لها الربط ما للتراب وربّ الأرباب.

العلاقة بين النبوة والولاية:[٧]

إنّ مصطلح الوليّ من الولاية، ومصطلح النبيّ من النبوّة، وقد طُرح هذا المبحث في كتب العرفان، ما معنى الولاية و النبوّة؟ و ما هي العلاقة بين النبوّة وبين الامامة، وهل كل نبيّ وليّ، وكل وليّ ينبغي أن يكون نبّياً أم لا؟ والولاية هل هي مقيّدة بشروط الزمان أم لا؟

من بين من عالج هذه الأسئلة كان محيي الدين بن عربي الذي اعتبر أنّ الولاية اختتمت به، وأنّ الولاية المطلقة اختتمت بالنبي عيسى عليه السلام. وقد خاض مع عرفاء الشيعة نقاشاً في هذا الموضوع باعتبار الولاية المطلقة إنماكانت لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام بخاتميتها، والولاية الخاصة تختتم بقائم آل محمد(عج).

وما يمكن معالجته هنا أنّ النبوة تتحدّث عن دور ووظيفة لمنصب إلهي، والله يصطفي أحد الناس ليؤدّي الإنباء عمّا يريده سبحانه، وفي بعض الأحيان يكون هؤلاء الناس جماعة كُثراً، وفي أحيان أخرى يكونون أسرة كاملة أو يكونون شخصاً واحداً، ويمكن أن لا يكون دوره إلاّ نذيراً.

النبوّة التعريفية:

هي الإنباء وشرطها التطلع على أمر مخفي عن غيره والتنبؤ بهذا الأمر، وهذا التنبؤ ليس محدداً، إذ إنّ وظيفتها ليس تحديد مضمون ما يجب التنبؤ به. وهي بهذا المعنى لم تنقطع، وكلام رسول الله (لا نبيّ بعدي)[٨] بمعنى الوظيفة الإلهيّة أي لا رسول من بعد رسول الله، وهذا لا يعني انقطاع الاتصال بالغيب، بل كل من له نحو علاقة مع عالم الغيب مؤهلاً لأنه يكون منبئاً وليس نبيّاً. إلاّ أنّ الميزة الأساس للنبوّة وباستثناء

نبـوّة نبـيّنا مـحـمـد ﷺ، أنّهـا تتقطع مع انقطاع زمـانهـا، ومـيـزة نبـوّة النبي ﷺ أنه كـان خـاتماً، ونبـوّته تبـقى إلى يوم القـيـامـة وكـذلك رسـالتـه بفعاليتها تبقى إلى يوم القيامة. ولا يمكن أن يقال عن الباري عز وجلّ: إنه نبيّ، وسـرّ الخلود الذاتي السـرمـدي لأيّ أمـر من الأمـور هو أن يكون عبارة عن صفـة منسوبة لصفـة من صفـات الله سبـحانه. فـالوليّ يبـقى مستمراً دون أيّ انقطاع.

وقد تكلم المعتزلة والكثير من فرق الشيعة الكلاميّة، عن أنّ النبوّة ليست بمعنى الإنباء بل بمعنى الارتفاع، فلان نبا أي تعالى وارتفع.

ميزات الولاية:

إذا كـان هناك خـلاف مـا بين مـعنى الولاية ومـعنى النبـوّة، فـيـمكن أن يكون النبيّ له وظيفته من الباري أيضاً، ويشترط أن يكون الولي نبياً، ولا يشترط أن يكون المتصف بالصفة الإلهيّة له هذه الوظيفة وهي الإنباء. من هنا قـال: "الفناء المذكور بمعنى فناء العبـد بالله، ويقـصـد بهـا فناء الصفات البشريّة لهذا العبد وبقاء (من روحي) وهو البقاء بالحق.

الفناء عن الذات والبقاء بالله:

بعـد هلاك الصـفـات البـشـريّة بحيث لا يبـقى في مـيـزاتهـا إلاّ سـمـة الإنسان إلى الحق سبحانه فتصبح هويّته الباقية هي هويّة إلهيّة، وهذا المقـام أتمّ من دائرة النبـوّة وأمـا الولاية دائمـة. وجـعل الوليّ اسـمـاً من أسماء الله تعالى دون النبيّ، فالرسالة والنبوّة والرسالة والولاية صفة إلهيّـة لا تنقطع أبداً، ولا يمكن لأحد من الأنبياء وغيرهم الوصول إلى الحضرة الإلهيّة إلاّ بالولاية التي هي باطن النبوّة (لذلك كل نبيّ هو وليّ) شكل من أشكال الإنباء عن الأمور المخفيّة. و إخبار الإمام عليّ عليه السلام عن طريقة وفاته وكيفية دفنه، هو وجه من الإنباء، ولا يعني هذا أنّ الوليّ نبيّ فالإمام عليّ عليه السلام وليّ وإن أنبأ عليّ عليه السلام عن الكثير من الامور الغيبية.

الهوامش:

(١) - السيد بحر العلوم، الفوائد الرجالية، مكتبة الصادق، طهران الطبعة الأولى، ١٣٦٣ هـ، ج ١، ص ٣٩.

(٢) - سورة آل عمران، آية ٧٦.

(٣) - سورة الحجرات، آية ١٣.

(٤) - سورة آل عمران، آية ٣١.

(٥) - سورة الرحمن، آية ٢٨.

(٦) - عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، عن أبيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن ابن مسكان، عن زرارة بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "إنّ الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه، وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله فهو مخلوق والله خالق كل شيء، تبارك الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

(٧) - الكلام يكون تارة في بيان الفرق بين الولي والنبي، ويلحق بالنبي الكلام في الرسول وأولي العزم والخاتم ويلحق بالولي الأئمة عليهم السلام.

إنّ النبي من الإنباء وهو الإخبار والنبي هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة بشر، وهو أعمّ من أن يكون له شريعة. وقيل: هو من النبوة والنباوة لما ارتفع من الأرض بمعنى أنه ارتفع وشرف على سائر الخلق. وقيل إنّ الفرق بينه وبين الرسول بأن الرسول هو المخبر عن الله بغير واسطة أحد من البشر وله شريعة مبتدأة كآدم عليه السلام، أو ناسخة كمحمد صلى الله عليه وآله وبأن النبي هو الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول هو الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين، وبأن الرسول قد يكون من الملائكة كما صرّح به في الآيات بخلاف النبي. وفي الكافي: كتاب الحجة بإسناد صحيح عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: "وكان رسولاً نبياً" ما الرسول وما النبي؟ قال: "النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك" والرسول الذي يسمع الصوت يرى و يعاين الملك، ثم تلا هذه الآية: **﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي (ولا محدث)﴾**، "وقوله: والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك، أي في اليقظة وإذا عاين الملك في اليقظة فكان سماع الصوت والكلام منه أيضاً في اليقظة، ووقوع ذلك ليس من جهة أسباب خارجية طبيعية بل هو بروز من مكامن الغيب إلى عالم الشهادة، فإنّ الذي يرى بعين الخيال إذا قوي واشتد تمثله انفعل منه الحس الظاهر وتعدّى إلى الخارج من غير أن يكون في مادة طبيعية وكذا ما يسمع بسمع الباطن إذا قوي ينفعل منه ويتعدّى صورته إلى

الكلام الظاهر كما مر.

وها هنا مرتبة أخرى وهي أن يسمع الكلام في اليقظة ولا يعاين المتكلّم، وهذه كلها منشؤها قوّة التخيّل والحسّ الباطن وهي من خواص الرسل ﷺ، بشرط أن يكون من قبل الله ويكون وحياً بالعلوم الحقّة وبما فيه مصالح العباد في المعاش والمعاد، وإلاّ فالكهنة والرهابين وبعض كفرة الهند قد تلقى إليهم بالمغيبات ويسمعون الكلام ﴿يوحي إليهم الشياطين زخرف القول غروراً﴾.

وقوله ﷺ في باب الإمام يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك أراد بسماع الصوت قبول الإلهامات والتعليمات من الله بسمع عقلي من غير رؤية شيء في المنام ولا معاينة ملك في اليقظة وليس كلام الله وحديثه بالحقيقة إلاّ أعلام الحقائق وإلهام الحق والصدق لتنزهه عن الألفاظ المسموعة والأصوات المحسوسة، ثم تلا الآية وكان في مصحفهم عليهم السلام هكذا بزيادة "ولا محدث".

● وفيه بإسناده عن أبي جعفر أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث﴾، قلت: "جعلت فداك هذه قراءتنا، فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال: "الرسول الذي يظهر له الملك فيكلمه، والنبي هو الذي يرى في منامه، وربما أجمع النبوة والرسالة لواحد، والمحدث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة، قال: قلت: "أصلحك الله كيف يعلم أنّ الذي رأى في النوم حق وأنه من الملك؟ قال: يوفق حتى يعرفه لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيكم الأنبياء".

● وقد مرّ معنا معنى الولي وأنه من اسمائه تعالى ﴿وهو الولي الحميد﴾ ولا بد لكل اسم من مظهر لهذا العالم. فالولاية لم تنقطع بخلاف النبوة والرسالة فإنهما ليستا من اسمائه تعالى ولم يرخّص الشارع إطلاقه عليهما تعالى ، فالرسالة انقطعت ونبوة التشريع انسدّ بابها فلم يبق اسم يختص به العبد دون الحق بانقطاع النبوة والرسالة، كما ورد عنه ﷺ: "لا نبي بعدي". وبما أنّ الله تعالى بعباده لطيف أبقى لهم النبوة العامة والتي يقال لها: النبوة التعريفية بإزاءالنبوة التشريعية كما ورد: "إنّ العلماء ورثة الأنبياء" فالفقهاء مظاهر علم النبي ﷺ بما هو نبي، والأولياء والعرفاء مظاهره بما هو ولي".

(٨) - الشيخ الصدوق، الهداية، اعتماد، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ، ص ١٥٧.

الدرس الثالث عشر

الفرق بين النبوة والولاية

بسم الله الرحمن الرحيم

مرّ الكلام حول موضوع الولي والنبي وما معنى البقاء بالحق والفناء به، وكيف أنّ النّبوة هي منصب إلهي يعطيه الباري سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده، وكونها تنقضي بانقضاء الزمان.

وكيف أنّ النبوّة التعريفيه[1] هي للإنباء عن المعارف الإلهية الثابتة للأولياء، والباقية ببقاء الولاية، أي لا تنقطع ما دامت الدنيا باقية، وعند انقطاعها ينتقل الأمر إلى الآخرة ولما كانت الولاية أكبر حيطة من النبوة وبأطوارها شملت الأنبياء والأولياء، فالأنبياء أولياء فانون في الحق باقون به، منبئون عن الغيب وأسراره، ولأن الولي هو الذي فني في الحق تعالى فهو يطلع على الحقائق والمعارف وينبئ عنها وهذا المقام كمقام النبوة اختصاص إلهي غير كسبي.

الفرق بين النبوة والولاية:

عندما يقال: زيد هو ولي، ذلك يعني أنّ الله سبحانه وتعالى ألبسه هذه المرتبة وأضفى عليه اسماً من أسمائه أو صفة من صفاته، والولاية المطلقة لا تكون إلا لله سبحانه، وأي ولي غير الباري عز وجل يسمى صاحب ولاية مقيدة، وهذه الولاية المقيدة منسوبة إلى ولاية الباري عز وجل، ولها مميزات مأخوذة من مصدرها الذي هو الله تعالى، بينما النبوة لا يمكن لاحد أن يقول: إنّ الله نبي، وذلك لأنّ النبي يطلع على الغيب وينبئ العباد بذلك الغيب .

وهذا التعريف لا ينطبق على الباري تعالى، فالله ليس نبياً، اذ ليس هناك اسم أو صفة لله اسمها النبوة، فالنبوة أمر خاص بالناس أو البشر أو بمجموعة من البشر، والله سبحانه يصطفيهم من بين عباده ويعيّنهم في هذا المنصب.

إنّ الاموراالتي لها علاقة بالبشر عادة تكون محدودة مثلهم، وبما أنّ البشر محدودون فإنّ كل ما يختص بهم يجب أن يكون محدوداً، بينما الموضوعات التي هي منّة من الله تعالى هي بالأصل منه وهو الذي يعطيها للبشر، وهذا النحو من الموضوعات لا تكون ميزاته ميزات البشر فهي لا تنقضي بانقضاء الناس، بل تبقى ما دام الله باقياً، والله عز وجل هو الباقي الأبدي السّرمدي الأزلي، وعندما يلبس الله سبحانه صفة من صفاته لعبد من عباده، يصبح سواء كان حياً أو ميتاً ظاهراً أو باطناً الولي.

من هنا هل يمكن القول: إنّ كلّ نبيّ هو وليّ؟

إنّ النبيّ قبل أن يأخذ منصب النبوة يجب أن يكون ولياً، فيصبح ولياً ونبياً. فكلّ نبيّ هو وليّ، والنبي هو الذي ينبئ عن الغيب ومن ثم يطلع عليه العباد، وكذلك الولي لديه بعض الإنباءات عن الحق، فهل كل وليّ نبيّ؟

من هنا يكون التمييز والدخول في المسائل العقائدية، قد يقال: إنّ الولي ينبىء عن الله والله سبحانه أعطاه وظيفة يشتغل بها. لذلك كل ولي منبئ ولكن ليس كل ولي الباري عز وجل أعطاه منصب النبوة، فالنبي هو نبي ولكن الرجل الصالح لم يكن نبياً، بل عبد من عباد الله تعالى، كان ولياً مطلقاً وعنده ما لم يكن عند النبي موسى عليه السلام، من هنا إذا قيل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّه وليّ ذلك يعني أنّه فانٍ بالله باقٍ به.

علاقة الولي بالنبوة.

هل يمكن للولي أن ينبئ عن الله؟

إنّ الولي يمكن له ان ينبىء عن الله تعالى، ولايعني هذا الكلام أن من يقول به كافرٌ، لأنّ القائل بهذا الكلام لا يقصد أن الولي نبي لأن الرسولﷺ قال: "لا نبيّ بعدي"[٢]؛ أي لا منبئ عن الله بمعنى المنصب الإلهي. فالقول: بولاية الولي وكل الصفات المذكورة بحقه، وأنه قد يكون كالنبي أو أعلى من كثير من الأنبياء، لا يتعارض مع كونه غير نبي، لأنّ مسألة النبوة تنقضي مع الأمور الزمانية.

إنّ ولاية رسول الله لا تلغى بولاية عليعليه السلام، بينما بنبوة نبينا محمدﷺ تلغى نبوة عيسى ونبوة موسىعليه السلام، وذلك بمعنى أنّ الوظيفة الموكلة للنبي موسى انتهت مع مجيء عيسىعليه السلام، ومع مجيء نبينا محمد كان الأمر كذلك. وأما مع مجيء أمير المؤمنين عليعليه السلام فإن الأمرمختلف، وذلك لخصوصيات في نبوة محمدﷺ.

الأولى: إنها النبوة الخاتمة وتبقى إلى يوم القيامة.

الثانية: إنّ النبوة إما خاصة وإما عامة، إما مطلقة وإما مقيدة، وهذا البحث سيتمّ فيما بعد بإذنه تعالى.

أما في موضوع الولاية فالمسألة واضحة، وعند سماع الحديث الذي يقول: إنّ علياًعليه السلام هو نفس النبي محمد، "أنا وانت من نور واحد"، [٣] يعني من حقيقة واحدة.

يوجد فارق بين الولي والنبي، فالنبي يشترط أن يكون معصوماً، بينما الولي لا يشترط أن يكون معصوماً. وفي هذا المقام من مقامات الولاية والنبوة يكون الاختصاص إلهيا وليس كسبيّا، أي لا تكتسب اكتساباً، وهنا يكون الكلام حول ما يسمّى بالسير والسلوك.

وقد قسّم أصحاب هذا المسلك هذا الطريق إلى أربعة أسفار، السفر الأول والسفر الثاني هما عبارة عن سير وسلوك يقوم به العارف، وذلك

بعد أن يكون قد قطع ثلاث مراحل:

وهي عند الإشتياني موجودة عند الصنف الأول من الناس، والذي هو من العامة الذين تكون معارفهم إما عن تلقٍ من صادق يحصل معه اليقين، وإمّا عن برهان عقلي يحصل معه اليقين، وإمّا عن كسب يحصل معه اليقين.

المرحلة الثانية: وهي من الصنف الثاني والذي هو للخاصة من الناس وهو العارف، وفي السفر لا يمكن لأحد أن يعد نفسه أنّه بمجرّد الدراسة للأسفار الأربعة قد وضع رجله في أول الطريق بل هناك مجموعة من المراحل التي يجب عليه أن يقطعها ليحّصل حالة الخلوص لله تعالى(٤)، ومن ثم يبدأ في السفر الأول من بعد أن يكون قد ذوّب نفسه في الله سبحانه، وهذا السفر يبدأ من الخلق من عالم الدنيا والشهادة وينتقل إلى مستوى التوحيد الكامل، أي من الخلق إلى الحق.

السفر الثاني: وفي هذا السفر يصبح السالك ولياً لأن سفره من الحق إلى الحق بالحق، وكل عمل يقوم به يكون في محضر الله وبالله سبحانه. وشرط الولي الفناء عن كل ميزة بشرية والبقاء بالله لم يغن عن بشريته، ولكن في الثاني سفر من الحق إلى الحق بالحق، فلذلك عنوان الولي يصدق منذ بدايات السفر الثاني، وفي هذا السفر تقع الشطحات(٥) وذلك باتفاق العرفاء.

وهي تقع في المرحلة الثانية لأنه بحالة الفناء عن عالم الخلق لا يبقى للعبد صلة بهم، وإنما تصبح كل حياته ونفسه وتفكيره ومشاعره بالله عز وجل، حتى أن لغته تصبح ذات طابع إلهي، من هناك يقول العرفاء: إنه يجب لزوم الصمت، و ممنوع الكلام، وعندما يتكلم يتهمونه أنه قد هتك الستر، وهتك الستر هو أن يكون هذا العارف في مقام معين، ويتحدث فيما لا ينبغي التحدث به. وهنا يقع المحذور ويقول: "ما تحت هذه الجبة إلاّ الله"(٦)، لأنه لم ير شيئاً بشرياً، وإنّما كان كل شيء له طابع إلهي، فهو

لم يعد يميز بين البشري والألوهي، وهنا الميزة التي يجب أن يضبطها[٧] حتى ينضبط ذهنه بشكل جيد، مثلاً عندما يمسك أحدهم بحديدة وهو يريد أن يصنع منها شكلاً معيناً، عليه في المرحلة الأولى أن يحمّي الحديدة.

وعندما تحمّى إلى حد أن النار وصلت إلى كل الحديدة، يصبح هناك التواء في الحديدة إمّا أن تكسر أو تبعثر أو تعطى شكلاً معيناً. وحتى تعطى شكلاً محدداً لا بدّ من تبريدها لتثبت عليه، لينتهي إلى المرحلة الثالثة وهذا ما يسمونه بالسفر الثالث.

قد يتساءل أحدهم: ما هي الضمانة في كل حركة تكون في هذه الأسفار؟ من هنا يمكن الإشارة ولو من باب الزاوية الخاصة بالشيعة، إلى أنّ الإنسان بالارتياض النفسي لا يستطيع أن يقطع المرحلة الثانية ويكون على الصراط المستقيم، والسبب في ذلك أنّ الإنسان في مرحلة الفناء يحتاج إلى الولي الكامل المطلق، والولي المطلق ينبغي أن يكون معصوماً، والمعصوم شرطه أن يكون حاضراً في الزمان، و في القلب والنفس وهو الذي عليه شيعة أهل البيت عليهم السلام فأيّ انتقال بدون ما يسمّى باب الله الذي منه يؤتى وبدون معونة الحجة (عج)، بحيث يمسك بيد السالك حتى لا يقع في الزلل. وقد ورد في الأحاديث "يا علي أنت الصراط المستقيم"[٨]، وحينما يقال: يا "علي" يعني: "يا محمد "، وحينما يقال: "يا محمد" يعني: "يا علي"، وهذا ما يراد من قول المعصوم: "أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد"[٩].

من هنا فإن أول الولاية انتهاء السفر الأول[١٠]، والبدايات هو السفر من الخلق إلى الحق، ويكون ذلك بإزالة التعشق بمعنى إزالة أي ميل للقلب عن المظاهر الدنيوية والأغيار، والخلاص من قيود[١١] المادة والشهوات، والعبور من المنازل.

وهذا النوع من المجاهدة له تسميتان: الأولى "سير" والثانية "سلوك"،

وفي حالة السير والسلوك لا بد له من مراقبة نفسه ومراجعتها دائماً[١٢]، وفي بعض الأحيان قد ينتقل السالك إلى مرحلة ثانية ظناً منه أنه قد تخلص من كل العوائق ، وقد غفل أن قسماً من هذه العوائق ما زال موجوداً فيه. فهو في المرحلة الثانية لم يلتفت ماذا يوجد في الأولى، مما يحدث تراكماً في الأخطاء يصل إلى مرحلة تقتل روحه في السير والسلوك، لذلك ينبغي دائماً الوقوف عند المنازل لإجراء رقابة وعرض حال ومحاسبة وتدقيق في كل ما حصل عند السالك [١٣].

فقد ترد عليهم أحوال، وهي الألطاف الإلهية التي تتنزل على العباد منّة من الباري تعالى، والمقامات هي الرتبة التي يصل إليها العبد بالمجاهدة، فهو يعبر من المنازل والمقامات مجاهداً نفسه في قطع مراحل العبودية لله سبحانه وتعالى، ليحصل على المراتب العالية.

مقام تحقق الولاية:

قبل أن يصل السالك إلى هذا المقام لا بدّ له من قطع بعض المنازل التي لها علاقة بالسفر الأول:

أولاً: أن لا يميل القلب إلا إلى الله تعالى، فإذا وصل للثاني والقلب عند غير الله لا يحصل الفناء والشرط أن يحقق هذا المطلب.

ثانياً: أن يبتعد عن مظاهر الدنيا.

ثالثاً: أن لا يتعلق بالأغيار (كل ما سوى الله تعالى).

رابعاً: أن يخلص من القيود والأستار[١٤]، قيود الهوى والشهوات، وأستار الحالات التي تحجب عن السالك المعرفة الصحيحة، فهناك بعض الناس لشدة احترامهم لعقولهم واعتبارها مفتاح حل لكل شيء، لا يسمحون لهذه العقول ان تؤمن إلا بالمباشرة ظناً منهم أنه هذا هو العقل، غافلين عن الحقيقة التي تتجاوز حدود العلم التجريبي، فالفلسفة مثلاً توصل العقل إلى الطور الذي نشأ منه، وهو الطور الغيبي والعلاقة معه.

ومن الأستار أن البعض يكتفي بالإيمان و يحصل على القناعة الذهبيّة

بالنسبة إليه بأنّ علمه وكل عباداته، هي حقّة ومقبولة، ويكون قد أخذ بظاهر العبادة وغفل عن حقيقتها واغترّ بنفسه، أمّا لو انكشفت له الحقيقة ورأى عبادته التي لم يخلص بها لربه، فسوف يراها سوداء مدلهمّة ومصداق قول النبيّ ﷺ : "كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه"(١٥)، فظاهر عبادته الصلاح وباطنها الخيبة والخذلان، و قد يحصل على اللعنات التي يتقرب بها إلى الله تعالى فإذا هي ملآنة بالسيئات ممّا يجعله يغفل عن سيّئاته. فإذا لم يكن القلب ملتهباً بما يؤمن به يصبح هناك قاطع ومانع وفاصل ما بين هذا الإنسان والإيمان الحقيقي.

إذن كشف الستر ورفع الحجب يصبح أمراً ضرورياً، من هنا كان لا بد لهذه الأستار من إزاحتها.

وعبور المنازل والمقامات هو أشبه ما يكون بشخص مسافر من وطنه إلى مكة المكرمة يريد حج بيت الله الحرام، وهو يركب في سيارة. وأثناء هذا السفر لا بد له من الوقوف عند محطات ليتفقد سيارته، بنزين دواليب وغيره وعندما يصل إلى مدينة من المدن يجلس ويرتاح، ومن ثم يبدأ بإجراءات أخرى، فهو ينتقل من بلد إلى بلد. وكذلك الأمر في السفر المعنوي، لذلك في منازل أخرى لا بد من مراقبة الذات وتفقدها قبل الانتقال من منزل إلى آخر.

إنّ الإشتياني يقول: إنه لا يلحق بأهل مقام الولاية والفناء بالله، والسفر الثاني إلا من كان عنده حالات الكشف و المعرفة. وليس كل من يمسك القرآن الكريم ويصلي على النبي يفتح القرآن ويبدأ بالاستخارة، ويشعر أن جو الآية يقول: كذا وكذا، بحيث تنسجم الآية مع المطلب، يصل إلى درجة أنه عند أول منّة الهية ، يعتبر نفسه أنه صاحب إرث فيعلم الناس أذكاراً ويعطيهم برامج، وأحياناً تتكشف له بعض الأمور فيأتي ويقول: إنه من أصحاب القرب وإنه هو الولي الكامل.

إنّ هذه الرتب والأقوال والكشوفات تحصل مع المبتدئين، فهو من أهل

الله إلا أنه لا يمكن أن يقال عنه: وليٌّ، فلا يقلل من قيمته، ولا يعطى أكثر مما يستحق. أما أصحاب الادعاءات فإنّ نفس كلٍّ منهم حجة عليهم في إسقاطهم، وهؤلاء الذين يرشون الأرز على رأس كل واحد يأتي إليهم، فمجرد الكشف الشهودي لا يعني أن يكون ولياً إلاّ أن يكون موجباً لقاء الشاهد في المشهود.

الهوامش:

(١) - إنّ النبوة التعريفية هي الإنباء عن المعارف الإلهية بملاك الفناء في الحق فهي بهذا المعنى ثابتة للأولياء وباقية ببقاء الولاية، أي لم تتقطع ما دامت الدنيا باقية، وعند انقطاعها ينتقل الأمر إلى الآخرة ولمّا كانت الولاية أكبر حيطة من النبوة التشريعية وباطنها لها فلا محالة شملت الانبياء والأولياء جميعاً فالأنبياء أولياء حال كونهم فانين في الحق باقين به منبئين عن الغيب وأسراره، وبما أنّ الولي هو الذي فني في الحق تعالى، وعند هذا الفناء يطلع على الحقائق والمعارف الإلهية فينبئ عنها عند بقائه ثانياً أي بعد الفناء.

(٢) - م.س.

(٣) - راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق، ج١، ص ٦٣.

(٤) - واعتبر السيّد محمد مهدي بحر العلوم في رسالته "تحفة الملوك في السير والسلوك" أنه على المسافر في هذا الطريق أن يقطع اثني عشر عالماً قبل الوصول إلى عالم الخلوص.

-الأوّل: الإسلام الأصغر: وهو الإعلان بالشهادتين، والتصديق بهما باللسان والقيام بالدعائم الخمس بالجوارح والأعضاء، وقد أشير إليه بـ: **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾**، (سورة الحجرات، الآية ١٤)، وهذا هو الإسلام الذي ورد في حديث القاسم الصيرفي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: "الإسلام يحقن به الدم، وتؤدّى به الأمانة، وتستحلّ به الفروج، والثواب على الإيمان"، الكافي، الأصول، كتاب الكفر والإيمان، ج٢، ص ٢٤.

- الثاني: الإيمان الأصغر: وهو عبارة عن التصديق القلبي والإذعان القلبي بالأمور المذكورة ويلزمه الاعتقاد بجميع ما جاء به الرسول من الصفات والأعمال ومصالح ومفاسد الأفعال، ونصب الخلفاء وإرسال النقباء، فالإذعان برسالة الرسول يلزم الإذعان بحقيقة ما جاء به صلى الله عليه وآله. وإلى هذا الإيمان يرجع قول الإمام الصادق المصدّق عليه السلام، والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام."

الكافي، الأصول، كتاب الكفر والإيمان، ج٢، ص٢٥".
- الثالث: الإسلام الأكبر: وتقع مرتبته بعد الإيما ن الأصغر وهو المراد من قوله الحقّ عزّ اسمه: **﴿يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة﴾**، فإنّه أمر المؤمنين بالإسلام وهو عبارة عن التسليم والانقياد والطاعة وترك الإعتراض على الله، والطاعة لجميع واجبات الإسلام .
- الرابع: الإيمان الأكبر: وهو المشار إليه بقوله تعالى: **﴿يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله...﴾** فانه أمر بإيمان ثانٍ .
- الخامس: الهجرة الكبرى: وهي الهجرة بالبدن من معاشرة أهل المعاصي.
-السادس: الجهاد الأكبر: وهو عبارة عن محاربة جند الشيطان بمعونة حزب الرحمان الذي هو جند العقل.
- السابع: الفتح والظفر على جنود الشيطان.
- الثامن: الإسلام الأعظم: وفي هذا المنزل يُشاهد في نفسه صفاءً وبهاءً ونوراً وضياءً فوق إدراك عالم الطبيعة كما يقتضي ذلك، وقد أحيي حياة جديدة، وفاز بالمشاهدات المعنويّة الملكوتية عوضاً عن المعارف الصوريّة الملكيّة لأنه قد عبر القيامة الأنفسيّة الصغرى التي هي موت النفس الأمّارة. وحينها تظهر له كثير من الأحوال العجيبة باعتباره قد وصل إلى القيامة الأنفسيّة الوسطى.
-التاسع : الإيمان الأعظم : وفيه يرتحل السالك من عالم الملكوت ويدخل عالم الجبروت، ويفوز من المشاهدات الملكوتية بالمعاينات الجبروتيّة، وقد قيل في طلب هذه المنزلة :

بيني وبينك إنّي ينازعني   فارفع بلطفك إنيّتي من البين.

- العاشر: الهجرة العظمى: وهي من وجوده ورفضه، والسفر إلى عالم الوجود المطلق، وأشير إليها بـ: **﴿وادخلي جنّتي﴾**.
- الحادي عشر: الجهاد الأعظم: وفيه تفنى جميع آثار وجوده وتمحى فحينها يسير على بساط التوحيد المطلق.
- الثاني عشر: عالم الإخلاص: وهو عالم الفتح والظفر، وأشير إليه بقوله: **﴿احياء عند ربهم﴾، ﴿يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك﴾**.

بدم الحب يباع وصلهم   فاسمح بنفسك إن أردت وصالا

(٥) - وقد ذكر صدر المتألهين في كتاب "كسر أصنام الجاهلية"، ص ٦٩، ٧٠
إعلم أنّ المراد بالشطح والمعني به صنفان من الكلام الصادر منهم:
أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله، والوصال معه، المغني عن القيام بالأعمال الظاهرة، والعبادات البدنية، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد

وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب.
فيقولون: رأينا كذا وقيل لنا: كذا، ويتشبهون بالحسين الحلاّج، الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، وبما يحكون عن أبي يزيد البسطامي من أنه قال: سبحاني سبحاني ما أعظم شأني. وهذا فن من الكلام عظم ضرره في العوام أعظم من السموم المهلكة للأبدان، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى. فإنّ مثل هذا الكلام يستلذه طبائع الأنام، إذ فيه البطالة في الأعمال تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا يعجز الأغنياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلفيق كلمات مخبطة مزخرفة. ومهما أنكر أحد عليهم لم يعجزوا أن يقولوا: إنّ هذا الإنكار مصدره العلم والجدل، وعدم تفطن العلماء الظاهرين بأغوار كلماتنا وأسرار أحاديثنا، لأن العلم حجاب والجدل عمل النفس، وهذا الحديث وأمثاله لا يلوح إلاّ من الباطن بمكاشفة نور الحق، ولا يفهمه إلاّ من هو من أهل المكاشفة، فهذا أحد مغاليطهم للخلق، وإفسادهم لعقائد المسلمين، وإيقاعهم في الزيغ والضلالة، وهو مما قد استطار ضرره في البقاع والبلاد، وإنتشر شره في قلوب العباد، ومن نطق بشيء من هذه الكلمات فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.
وأما أبو زيد البسطامي فلا يصحّ عنه ما حكي عنه لا لفظاً ولا مفهوماً ومعنى، وإن ثبت أنه سمع منه ذلك، فلعله كان يحكي عن الله تعالى في كلام يردد في نفسه، كما لو سمع منه وهو يقول: أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدوني فإنه ما كان ينبغي أن يقال ذلك إلاّ على سبيل الحكاية.
والصنف الثاني من شطحياتهم كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل وتدهش العقول وتحيّر الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريد بها ولا يكون لها مفهوم عند قائلها أيضاً بل عن خطب في عقله، وتشويش في خياله. وقد يكون من قبيل ما يقال له: الطامات، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلاّ الأفهام كدأب الباطنية في التأويلات.
وهذا أيضاً حرام شرعاً وعقلاً: أما في العقل: فلأنّ العوالم متطابقة والنشآت متحاذية، فكما أنّ الحشوية والكرامية ينظرون في الأحكام بالعين العوراء ويقتصرون على الظواهر، وينكرون عالم الأسرار ومعدن الأنوار، فكذلك الباطنية حيث يهملون الكلام والآداب الظاهرة، ويتركون العمل بالشريعة الحقة، ونبذوها وراء ظهورهم.
- أما كونه حراماً في الشرع، فلأنّ الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير

اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، كيف ولو جاز صرف الألفاظ الشرعية من مفهوماتها الأول مطلقاً من غير داعٍ عقلي، لسقطت منفعة كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلّم، فإنّ ما يسبقُ منه إلى الفهم لا يوثق به. والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتّى وأنحاء تتراءى. وهذا أيضاً من المفاسد العظيمة ضررها، والبدع الشائعة عند المتسمين بالصوفية. وبهذا الطريق توسلت الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم. فيجب الاحتراز عن الاغترار بتلبيساتهم، فإنّ شرّهم أعظم على الدين من شرّ الشياطين، إذ الشياطين بوساطتهم يتذرّع إلى انتزاع الدين من قلوب المسلمين.

(٦) - "الحسين بن منصور الحلاّج".

(٧) - والأخطار كثيرة في هذا الطريق، والعقبات لا عدّ لها وقطّاع الطريق لا يعدّون، وبعد عبور هذه العوالم يصبح الخطر أكثر فلا يظنّ السالك أنّه تحرّر من هذه العوالم ونجا من المخاطر لأنه بذلك يكون أصابه الغرور إذ إنه بعد هذه العوالم يوجد عوالم أخرى، وما لم تطو هذه العوالم لا يصل السالك إلى المطلب.

(٨) - الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هجري، ج١، ص٩.

(٩) - م س.

(١٠) - وقد اعتبر القيصري في تعليقاته على "فصوص الحكم": "فأوّل الولاية انتهاء السفر الأوّل الذي هو السفر من الخلق إلى الحقّ بإزالة التعشّق عن المظاهر والأغيار، والخلاص من القيود والأستار، والعبور من المنازل والمقامات، والحصول على المراتب والدرجات، وبمجرّد حصول العلم اليقيني للشخص لا يلحق بأهل هذا المقام، لأنه إنمّا يتجلى الحقّ لمن إنمحى رسمه وزال عنه اسمه".

"ولمّا كانت المراتب متميّزة، قسّم أرباب الطريقة المقامات الكليّة إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين. فعلم اليقين تصوّر الأمر على ما هو عليه. وعين اليقين شهوده كما هو. وحقّ اليقين (يكون) بالفناء في الحقّ والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط ولا نهاية لكمال الولاية، فمراتب الأولياء غير متناهية".

(١١) - وقد يكون من القيود العلم، فهو عند البعض الحجاب الأكبر. وذلك لانهم وقفوا عنده وأصبحو معجبين بأنفسهم بحيث لا يرون أحداً أكبر منهم قدراً أو أعظم منهم علماً.

(١٢) - في كتاب "السير إلى الله" للعلامة "ميرزا جواد الملكي التبريزي" اعتبر أنّ

العزم هو بداية المسير والعودة إلى الباري عزّ وجلّ ،وبعد العزم لا بدّ من توبة نصوحة على ما أدى في حياته من غفلة وذنوب، إذا ظهرت المعرفة وعرف حقيقة الذنب وقبحه وآثاره (مثلاً إذا اعتقد جاداً حين أكله مال اليتيم أنه يأكل ناراً، وأن هذه النار لا تنطفئ بالأكل بل إنها إذا بقيت فسوف تشتدّ بعد الموت وتحرق العروق والأعماق، وكلمّا تحرق من العروق فإنها تبدّل بغيرها) فلا بد من أن يحصل له قهر من الندم بمقدار الشقاء والعذاب الذي جلبه على نفسه، وعليه أن يتحرّك باتجاه رفع ذلك، وبالخصوص عندما يقطع بما سوف يحصل له من لذّة كبيرة وكرامة وشرف عظيم حينما يخمد تلك النار التي اشتعلت في نفسه وفي داخله، كما يبرز عنده شوق في ذلك الوقت بمقدار معرفته لإخماد تلك النار، وسوف يتحمّل كل عمل شاق لأجل إخمادها ويؤديه بشوق تام.

في نهج البلاغة، ج٤، ص ٩٧-٩٨، تحت رقم ٤٠٢(من المختار من قصار كلماته عليه السلام ، وقال لقائل قال بحضرته: (أستغفر الله): ثكلتك أمك أتدري ما الإستغفار؟ الإستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستّة معان:

- أولها الندم على ما مضى.
- والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً.
- والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.
- والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها.
- والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.
- والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك يقول: " أستغفر الله".

(١٣) - حتى يصل السالك إلى مرتبة الولاية لا بدّ من طيّ مراتب منازل الاستعداد والقوّة، وحصول جميع حدود ملكات المراتب التي قد طواها وتحقق فعليتها التامّة، لهذا لا يكفي الدخول في أيّ عالم من العوالم ولو ظهرت فعلية ذلك العالم للمجاهد في هذا الطريق لأنّ بقايا العالم الأدنى ما زالت كامنة في زوايا ذاته، وفي هذه الحالة يكون غير متجانس مع إظهار العالم العلي، وكذلك هو غير مؤهلّ لتلقي الفيض الإلهي الماضي بذلك العالم. وفي هذه الحالة يكون السقوط إلى المرتبة الأدنى أسرع وبأقل سبب أو تقصير.

من هنا فإنّ مجرّد الوصول إلى أيّ مرتبة أو مقام لا يكفي وحده في حصول الإخلاص المؤهّل للسالك بأن يكون ولياً، بل لا بدّ من وصول جميع مراتبه إلى كمال الفعليّة والظهور معاً.

(١٤) - في هذه الحالة التي تخلّص فيها السالك من كلّ القيود وفرّغ نفسه فيها وتجرّد عن العالم الأسفل، فإنّ نور الإخلاص يشرق في زوايا قلبه وفؤاده بحيث تزول جميع آثار أنيّته وعندها يضع قدمه في أول مرتبة من مراتب القرب وهو بداية منزل ظهور ينابيع الحكمة "أبيت عند ربّي يطعمني ويسقين".

(١٥) - النوري، الميرزا، مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ، ج٤، ص ٢٥٠ .

الدرس الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ العلاقة بين العلم والعرفان هي من الأمور الدقيقة والتي ورد حولها الكثير من الجدل، فهل العرفان أمر يختلف عن العلم؟ وهل العلم يضرّ بالعرفان؟ وما علاقة العلم بالعرفان؟

اعتقد البعض بأنّ العرفان هو عبارة عن مجموعة من الاستنتارات العقليّة، والعقل يتقدّم بالدليل والبرهان،الذي بدوره يوصل إلى العرفان والمعرفة[1].

واعتبر البعض الآخر بأنّ العلم شيء والعرفان شيء آخر، وكلاهما طريقه مختلف عن الآخر، ومن أراد أن يكون عارفاً فعليه أن يترك سبيل العلم من أجل الخوض في سبيل العرفان، وهذا القسم من الناس موجود في عصرنا الحالي كما كان أيضاً موجوداً سابقاً بكثرة[2] وقد نُقل عن بعضهم وتحت عنوان التصوّف والعرفان أنه ينبغي ترك سبيل العقل بالكامل، بل أيضاً أنُ يترك سبيل الشرع، وهؤلاء قد لبسوا في عيون الناس ثوب القداسة. وهم فرق لها امتدادها التاريخي، والبعض منهم كانوا مشهورين تاريخيّاً بكونهم يقومون بنصب خيم خاصّة بهم في الشوارع ويطيلون شواربهم، وذلك تحت عنوان التصوّف والذوبان والفناء في سبيل الله عزّ وجلّ، كما أنهم كانوا يقومون باحتساء الخمر (حالة السُكر) على أساس أنّهم فوق التكليف، ويعتبرون أنه قد أصبح لهم قداسة خاصّة تميّزهم عن غيرهم .

أمّا القسم الآخر، فإنه كان يقول: بأنّ سلوك درب الشرع والعقل بشكل متين هو عين العرفان، ولا بد من القيام بالتكاليف الإلهية حتى يصل الإنسان إلى المعرفة الحقيقية، واعتبر البعض أن العقل ليس له أيّ اعتبار أو أهميّة في معرفة الله تعالى[٣]، والملفت في هذا العصر أنه عندما أصبح هناك نحو من الاهتمام في المسألة العرفانيّة، نقل كلام بعضه عن الإمام الخميني (قدس) أنّ العلم هو الحجاب الأكبر وجعلوا هذا الكلام دليلاً على ذلك.

تفاوت الناس في تحصيل اليقين:

إنّ صاحب هذه الرسالة يتحدّث عن صنفين من الناس:

الصنف الاول: قد قسّمه إلى ثلاثة مستويات:

أ: الذي يتلقى اليقين تلقيناً.

ب: الذي يؤخذ من خلال البرهان.

ج: يكون من خلال الكشف. وهؤلاء لا يمكن تسميهم بأولياء الله، لأنّه شرط الوليّ أن يفنى في الله عز وجلّ وأن يبقى به.

الصنف الثاني: وهم الذين تتحقق فيهم ميزتا الفناء في الله والبقاء به، وذلك يكون بخلع الميّزات الخاصّة على مستوى الأفعال والصفات والذات وإبقاء كلّ ما ينتمي إلى التجلي الإلهي (الرّوح) **﴿ونفخت فيه من روحي﴾**[٤]، وهذا الصنف يتحقق من خلال الجذبة الإلهيّة والاصطفاء، وليس بإرادة الناس بل بالتعلّق بإرادة الباري سبحانه وتعالى، فاذا كان الأمر كذلك فهل هذا يعني أنّ العلم وتحصيله يصبح أمراً لا داعي له، للوصول إلى كون الإنسان من الصنف الثاني؟ وهل يمكن للعلم المسمّى بالحجاب الأكبر حينها أن يكون عائقاً عن الوصول ليكون لدى الإنسان القابليات ليُعد من الصنف الثاني أم لا؟

من المفيد هنا الحديث عن مجموعة من النقاط:

أولاً: في العرفان الشيعي تحديداً كما في أيّ إتجاه عرفاني صحيح

عند المسلمين إذا لم يكن هناك توافق ما بين ظاهر الشريعة وباطنها [٥] فالذي يسمّى نفسه عارفاً يكون ما عليه هو ضلالة وليس عرفاناً، إذ إنّ شرط أن تكون خطوات العارف صحيحة هو موافقتها للجانب الشرعي، بدءاً من الفقه مروراً بالمستحبّات والمناسك والشعائر، وصولاً للمعتقدات الحقّة. فلا عرفان بدون المعتقدات الحقّة. ومن المفيد التصدّر لأناس يعتبرون أنّ لظاهر الشريعة طريقاً ولباطن الشريعة طريقاً آخر، فيصبح هنا طريقان.

وبعض الدراسات المعاصرة التي تحدثّت عن التصوّف، كانت إقامة قراءاتها مبنيّة على أساس أنّ ظاهر الشريعة شيء وحقيقتها وباطنها شيء آخر، وذلك لقولهم: أصحاب الظاهر أو أصحاب الباطن، وكأنهم إثنان ويوجد معركة بينهما.

نظرة الشيعة إلى العرفان:

عند العرفاء الشيعة، الظاهر هو الخطوة التي لا بدّ منها في المسير إلى الباري عزّ وجلّ. وليكون أحدهم من أهل الحقيقة، فإنه بدون هذا السير لا يمكن له أن يصل إليها. وهذا الظاهر هو مفتاح الدخول إلى الحقائق، وحتى يمكن السير عليه يجب تعلّمه، لأنه بدون معرفة الأحكام لا يمكن المسير عليها، وإن تعلّم موارد الابتلاء واجب وتركه حرام، من هنا فإن مسألة العلم شرط ضروري للارتباط والتقيّد بشأن ظاهر الشريعة، وهو الذي حثّ عليه الباري عزّ وجلّ ورسوله وأئمته (ع)، وهو نفسه الرابط بين الإنسان وبين ما يعتقد من معارف[٦] . لذلك فإن موضوع المعارف الاعتقاديّة يسأل عنه المرء في قبره وموضوع الأحكام يترك للحشر. وشرطها أن تعرف من المرء وتكون تعيينيّة وثابتة.

أمّا السلوكيّات التي ينبغي على المؤمن أن يتحلى بها، فهي لكونها مبنيّة على محور عنوانه التأسّي (المشي والأكل والكلام) بالرسولﷺ، فكيف يكون التأسّي دون علم حتى يلتزم بها، ومن التأسّي ما هو بادٍ وواضح

(كالنبيّ ﷺ كان لا يأكل في الطريق) ومنه ما يحتاج إلى تدقيق (ككلام النبيّ ﷺ مع الناس) للالتزام بدين الله سبحانه وتعالى.

وقد كان الرسول ﷺ لا يطلب من الناس سوى طلب واحد، كالاعرابي الذي أتاه وقال له: "علّمني معاقد الحكم"، قال له الرسول: "لا تغضب"، ثمّ يطرح السؤال ثانية وثالثة والرسول ﷺ يجيبه: "لا تغضب" لأنّ تقديرات الرسول أنّ الرجل ضمن ظروفه الفعليّة التي يعيشها، موضوع الغضب بارز، بينما آخر قال له الرسول ﷺ : "لا تكذب"، وفي حالة الإبلاغ هذا مستوى أعلى من مجرّد الظاهر، والتعمّق أكثر في حالة الارتباط بالله عزّ وجلّ[٧]. وقد كان رسول الله ﷺ يخيّر نفسه بين الأمور ليختار ما كان فيه رضاً لله أكثر، وهذا يحتاج إلى مستوى أعمق من المعرفة والعلم بهذه الأمور الضروريّة.

رد شبهة:

إنّ العلم بدون الالتزام به لا يمكن أن يحققّ شيئاً، وعندما يصل هذا العلم المقدّس عند العرفاء ليقولوا: إنّه الحجاب الأكبر، فليس المقصود بالعلم هنا مطلق العلم أو نحواً خاصاً من العلم، كالعلم العقلي أو غيره...

وإنّما المقصود هنا بأنّ العلم في هذه المرحلة لا يكفي، فإذا كان العلم لا يكفي واعتقد السالك بأنه يكفي فإن هذه الحالة هي الحجاب الأكبر، والكثير من الناس يعتبرون أنّ لديهم ثقة بما هو متصور في مسألة العلاقة مع الباري عزّ وجلّ، كثقة المرء بأنه سيدخل الجنّة من خلال فعل معيّن يقوم به، وكأنه ضمن الرّضا والجنّة، أو أنّ أحداً يقوم بعمل جهادي في سبيل الله واعتبر أنّ هذا يكفي فيتوقف عن التكامل، هنا يصبح العلم عند أهله حجاباً أكبر ويكون أكبر عائق للتقدّم إلى الأمام خطوات.

حقيقة العلم والشهود عند الولي[٨].

في هذه الرسالة بيان أن هناك مستوى من العلم ليس تلقينيّاً وليس

بالبرهان بل عن كشف، والكشف يتمّ بالارتياض العقلي والعبادي (السير والسلوك)، وهو ما يعبّر في هذه الرسالة، بما فيهم كشف الحجاب الأكبر، وهو لا يوصل المرء إلى الصنف الثاني، ولا يصل الإنسان إلى الصنف الثاني إلاّ بعد الفناء حتّى يكون عند ربّه(٩)، كما ينبغي عليه ترك كلّ الأغيار.

وفي الكشف يوجد المرء والستار والمكشوف، وليس هناك فناء. وهنا يوجد الحاظ للنفس فقول المرء: إرادتي وفكري وعقلي ... هو الذي يعمل هنا المرء لا زال حاضراً، وقوله: إنّ الله تعالى يصطفي لا يعني ذلك أن الباري يختار بشكل عبثي (والعياذ بالله) بل لسبب وهو اصطفاء الحكمة. ومنشأ ذلك لعلّه لكون العبد انتفت إرادته، وبقيت إرادة الله عزّ وجلّ، فكلّ من خلع إرادته لم يبق من البين إلاّ إرادة الباري، والمشكلة في الاصطفاء عند الإنسان، حقيقة تمسكه ومقدار صدقه مع نفسه، فيجب خلع الإرادة المعبّرة عن الأنا ليحصل الفناء والبقاء بالله سبحانه وتعالى.

والبقاء بالله لا يلغي الإرادة بل تصبح إرادة الإنسان هي إرادة الباري سبحانه وتعالى. ولا يلغي له عقلاً وإنما يصبح عقله عقل الرحمان، ولا علماً، بل علمه يصبح علم المتألهين. فقد عبّر أنّه بمجرّد حصول اليقين للشخص لا يلحق بأهل هذا المقام، ولا يحصل الكشف الشهودي أيضاً إلا أن يكون موجباً لفناء الشاهد في المشهود الذي هو الباري تعالى، ومحو العابد في المعبود، فلا يتوهّم العارف غير الواصل والمشاهد بقوّة استعداده للغيوب والمتصف بالصفات الحميدة والأخلاق المرضيّة غير السالك طريق الحق، بالفناء عن الأفعال والصفات والذات المتحقق بمقام قرب النوافل والفرائض، أنّه وليّ واصل لأنّ وصوله علمي أو شهودي.

صفات الوليّ:

إن بعض الناس يصلون لليقين من خلال البرهان العلمي أوالكشف الشهودي(١٠)، وهؤلاء لم يصبحوا من الواصلين الكاملين، وإنما الولي من

كان واصلاً كاملاً. وشرط الوصول الكامل هو الفناء والبقاء بالله عزّ وجلّ.

هناك فارق بين أن يستعين المرء بآخر كأخ مؤمن، وبين أن يكون المرء ولياً لآخر، فبعض الناس يأتون إلى مكان التعلم أو المحاضرة وبعقليّتهم يوجد عنوان أن يذهب ليتربّى من هذا المكان حتى يصل، فيرجو الخلاص من العباد، فمن يتعلم منهم، كفلان الشيخ أو الحج... عن قصد أو غير قصد، يوحي بمجموعة من التصرفات بأنه خشبة خلاص، وأنّ الولي الفعلي فقط هو وأنه يستطيع علاج ذلك الإنسان بنظرة مدعياً أن له تأثيرات ككبار العرفاء. فقد روي: أن السيّد بحر العلوم صاحب كتاب رسالة في السير والسلوك كان في بداياته معانداً للكلام في العرفاء وأنّهم مسلّطون .... وولاية تصرّف عقله لم يقبل بها، فيقول: ذهبت إلى فلان من الناس قلت له: بأنّي سمعت عنك وأريد أن أعرف الحقيقة يقولون: إنّك لديك الولاية على قلوب الناس ونفوسها ... وهذه كرامة من الباري عزّ وجلّ، فأريد أن تبيّن لي ما هو دليلك، يقول ذلك الرجل: اذهب، ففعلت. فيقول بحر العلوم: خرجت، وعرفت فيما بعد أنّ سرّ النظرة إلى ذاك الرجل، قد غيّرت ذاتي وقلبي قد تبدّل، و هنا مستوى التأثير الفعلي. والراضون عن أنفسهم هم أكثر إيقاعاً في الخطأ، ومن يدّعي أنّه في مقام ما شديد الخطورة. فكلّ المعتقدات والمشاهدات الباطلة (شعوذة) ليس لها علاقة بكون صاحبها وليّاً، والولي دوره الفعلي هو السير في سبل الهداية للنفوس وللقلوب وللأرواح، فلا يحقّ لأحد أن يدّعي هذه الرتبة وهذا المقام إلا بعد تحقق هذا الأمر[١١].

ومن هنا استنكار أهل العرفان بكثير من الأحيان وتشنيعهم على كلّ من يعطي ولو ذكراً، لأن من يفعل ذلك لا يكون سالكاً لطريق الحقّ، فالأصل هو طريق الحق، وهو بالفناء عن الأفعال والصفات والذات، المتحقق بمقام قرب النوافل والفرائض، موضوع النوافل والفرائض عند

مصطلح العرفاء هما رتبتان من رتب القرب إلى الله عزّ وجلّ. وليس المقصود بها الواجبات والمستحبات.

وقال ابن سينا في كتاب الإشارات: "من آثر العرفان للعرفان فقد قال: بالثاني (أشرك)". فإذا كان المقصود الباري عزّ وجلّ فالإنسان ملزم بالالتزام بالواجبات وترك المحرمات وليس الأذكار ... إنمّا يتجلّى الحقّ لمن محى رسمه وزال عنه اسمه فالأولياء هم الذين تطهروا من الصفات النفسيّة.

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ : "الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها فاهتموا بآجلها حين اهتمّ الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خافوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن يتركوه فما عرض لهم عارض إلاّ رفضوه ولا خادعهم من رفعتها خادع إلاّ وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها وخربت بينهم فما يعمدونها وحلّت في صدورهم فما يحبونها، فليهدمونها فيبنون لها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلّت بهم المثولات فما يرون أماناً دون ما يرجعون وخوفاً دون ما يحذرون"(١٢).

الهوامش:

(١) - قد ورد في شرح أصول الكافي لصدر المتألهين كتاب العقل والجهل ص٢٣٨، أنّ العقل درجات متفاضلة والذي هو التام الكامل هو أول المبدعات وأكرم المخلوقات، وهو العبد المطيع والممكن الأشرف وليس فيه إلاّ طاعة الباري عز وجل، وما دونه من العقول النازلة المتصرفة في الأبدان البشرية، لكونها مقترنة بالأبدان الحسيّة والشهوات الدنيوية، بحسب زيادة قوة العقل نور البصيرة ونقصانهما بحسب طاعتها للباري عز وجل أو معصيتها له تعالى.

قال ابن الغضائري : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : فلان من عبادته ودينه وفضله، فقال: كيف عقله؟ قلت: لا أدري، فقال: إنّ الثواب على قدر العقل، أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة كثيرة الشجر ظاهرة الماء وأن ملكاً من الملائكة مرّ به فقال: يا رب: أرني ثواب

عبدك هذا. فأراه الله ذلك فاستقله الملك، فأوحى الله إليه أن اصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: إن مكانك لنزه وما يصلح إلاّ للعبادة، فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً، فقال له وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار لرعيناه في هذا الموضع، فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: وما لربك حمار فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك إنما يثيبه على قدر عقله.

(٢) - وقد تحدّث صدر المتألهين الشيرازي عن هذه الجماعات في مقدمة كتابه "كسر أصنام الجاهليّة في الردّ على الصوفيّة": "منهم من يدعّي لنفسه ولاية الله وقربه ومنزلته، وكونه من الأبدال المقربين والأوتاد والواصلين، لمّا سمعوا كلمات واهية ومزخرفات شطحيّة يخيل له ولهم أن فيها شيئاً من الكرامات والمكاشفات، ويسمعه أخباراً إلهيّة وأسراراً ربانيّة. فلهذا تركوا تعلم العلم والعرفان ورفضوا اكتساب العمل بمقتضى الحديث والقرآن، وعطلوا ما أعطاهم الله تعالى من المشاعر والمدارك عن أعمالها في سبيل الهداية والرشاد وحرّموا ما رزقهم الله افتراء عليه بصرفها في غير ما خلق الله لأجله، بسبب الجهل والفساد. ثم لا يخفى على أولي الدراية والنهى: إنّ العقول السليمة والنفوس الساذجة مما لا خير لهم في ترك الظواهر من الأعمال والأفعال البدنية، التي يحضر فيها ضرب من النجاة ولا ثمرة لوجودهم إلاّ ثمرة في مزاولة المكاسب والصنائع المدنيّة التي فيها نوع معاونة لابناء جنسهم ومعاملة ومكافآت، وبها يتخلّصون من عذاب الله تعالى في المعاد وينجون من عقوبته على المعاصي والسيئات لقصور الفطرة والاستعداد. وقد نرى جماعة من هؤلاء العميان وأمثالهم ونظائرهم في العقل والاستدلال والاستعداد أو أعلى منهم قليلاً في درجة المعرفة والسداد تشبثوا بذيل ناقص منهم في العلم والعرفان قاصر مثلهم في العمل والإيمان. أمّا نقصانه في العلم والمعرفة فلشهادة جهله وإصراره وضلاله واغتراره وكثرة سهوه وخطئه وفور غلطه وعمائه. وأما قصوره في العمل فلكونه محترقاً بنار الشهوات في بحر اللذات، أسيراً لأيدي الظلمات.

وجدت جماعة من العميان وطائفة من أهل السفه والخذلان، ادّعوا فيه علم المعرفة ومشاهدة الحق الأول ومجاورة المقامات عن الأحوال والوصول إلى المعبود والملازمة في عين الشهود ومعاينة الجمال الأحدي، والفوز باللقاء السرمدي، وحصول الفناء والبقاء وأيم الله أنهم لا يعرفون شيئاً من هذه المعاني إلاّ بالأسامي والمعاني، وربما ينظر أحدهم إلى أصناف العلماء بعين الازدراء حتى إنّ أرباب

الصناعات والحرف يتركون صنائعهم وحرفهم، ويلازمونها أياماً عديدة وتلقنوا منهم تلك الكلمات المزيفة المزخرفة واستحسنوها فضلاً عن غيرهم من العوام. فهو يرددها لهم كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن أسرار الخلائق وضمائر القلوب بل يخبر عن سرّ الأسرار. فيستحقر بذلك جميع العلماء والعباد، فيقول في العباد: إنهم أجراء متبعون ويقول في حق أهل العلم: إنهم بعلومهم عن الشهود لمحجوبون، وبالحديث عنهم من الوصول مشبعون ويدّعي لنفسه ولبعض الحمقاء من مريديه أنهم الواصلون إلى الحقّ وأنهم من المقربين. والحال أنهم من عند الله من الفجار المنافقين، **﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾** (سورة المنافقين، آية ١)، وهو عند أهل الله وأرباب القلوب من الحمقاء والمجانين، والأشقياء المردودين: ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً وقال: أُوحي إليّ ولم يوحِ إليه شيئاً ومن قال: **﴿سأنزل مثل ما انزل الله﴾** (سورة الأنعام،آية ٩٣)، **﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلاّ الظن وإن انتم إلاّ تخرصون﴾** (سورة الأنعام،آية ١٤٨). وربما يقول بعضهم: الأعمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله، واصلة إلى معرفة الله، عاكفة في حظائر القدس، وإنما نخوض في الشهوات واللذات بالظواهر والأبدان لا بالبواطن والقلوب، ويزعمون أن مباشرة الشهوات ومزاولة المعاصي والخطيئات لا يسدهم عن طريق الله، لقربهم منه، ومنزلتهم لديه، ولا يعلم الأحمق السفيه الزنديق أنهّ بهذاالكلام المزخرف المنتج لعذاب الحريق، يرفع درجة نفسه الخسيسة عن درجة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات! إذا كانت صدتهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون على ما يعدّونه معصية وذنباً، وينوحون عليه سنين متوالية". انتهى كلامه قدس سره.

(٣) - إنّ النشأة الآخرة للإنسان وبناءها تكون بما يتقرر في نفس الإنسان من معتقدات وصور لها. والله تعالى مدح المتفكرين في ماهيات الأشياء وفي خلق السموات والأرض وعلى جنوبهم، والعمل والطاعة لله تعالى لا يكفي وحده وإنما يجب بالإضافة إلى ذلك الحصول على العلم والمعرفة، الذي يكون العمل الصالح بالنسبة إليه وسيلة وهو كالنتيجة والعمل كالمقدمة والزرع **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾** إذن معرفة الله تعالى هي الأصل والعمل فرع له. وقد حثّ تعالى عباده في كثير من الآيات على التعلم بالنظر والاعتبار والتأمل والتدبّر في أفعاله وآياته ولآثاره **﴿فاعتبروا يا اولي الأبصار﴾**، **﴿اولم ينظروا﴾**، **﴿اولم يتفكروا﴾**.

(٤) - سورة الحجر، آية٢٩.

(٥) - وقد أشار إلى ذلك صدر المتألهين : إنّ أفعال النفس الإنسانيّة وأفكارها

التي تقوم لها أو تتصور بها سراً وعلانية بالقياس إلى فطرته الأصلية، سواء كان بحكم الشرائع الإلهية من الأوامر والنواهي أو بحسب ذاتها وصفاتها الذاتية العقلية لا يخلو عن خمسة وجوه، والتفطّن بمعرفة خواص كل منها والإطلاع عليها على وجه الكمال إنما يظهر من مطالعة أقوال أهل القدس والطهارة من الأنبياء والأولياء الذين يأخذون علومهم من عالم الوحي والإلهام، ويوصلونها إلى الأمة، وهذه الأحكام والأعمال الشرعية هي مطابقة لما في نفس الأمر في كل أحوالها وليس كما يتوهم البعض أنّ هناك اختلافاً بين الظاهر والباطن....."فمن الأعمال والأقوال ما يكون الإتيان بها نافعاً في السعادة الأخروية، ومثمراً للنجاة السرمديّة، ولا بد للمكلف أي الإنسان المستقيم الخلقة الباطنية البالغ حد السلوك المعنوي والسير الأخروي، المعبّر عنه بالعاقل البالغ، أن يشتغل به على وجهه، ولم يتركه إلا إلى بدل من غير عذر شرعي أصلاً، وهو المسمى بالفرض. ومنها: ما يكون الاشتغال به مستتبعاً للتقرب إليه تعالى، ورفع المنزلة للعبد عند الرب، وسبباً لكونه ممدوحاً مشكوراً، ولكنه مما يجوز تركه من غير لزوم ملامة واستتباع مضرّة، وهو المسمّى بالمندوب والنافلة.

ومنها ما يكون ارتكابه موجباً لظلمة جوهر النفس، واقترانه مستلزماً لكدورة الباطن ولا سبيل لمكلف في الإصرار بمزاولته أو الجسارة في مباشرته وهو المحظور والحرام.

ومنها ما يكون تركه والإعراض عنه سبباً للمحمدة والثناء، ولا يكون الإتيان به موجباً للمذمة واللوم وهو المكروه.

ومنها ما لا يترتب على فعله وتركه نفع ولا ضرر ولا يتوجه إلى شيء منه مدح ولا ذمّ بحسب الشرع والعقل، وهو المباح.

وهذه الأحكام المنحصرة في الخمسة بحسب التقسيم العقلي والشرعي، كما يجري في الأعمال والأفعال الظاهرية التي تصدّى لمعرفتها وضبط مسائلها الفقهاء، شكر الله سعيهم، ودوّنوا فيها علماً يسمى "علم الفقه" كذلك في الأعمال الباطنية، وتحصيل المعارف اليقينية وإقتناء العلوم الإلهية الكشفية التي تصدّى لها علماء الباطن وترقوا على معارجها وأظهروا وما كتموا شيئاً. بل هذه الأقسام الخمسة جارية بحسب الاحتمال في كل تجارة أو طلب مطلوب وتخلص عن مرهوب، سواء كان في دين أو دنيا، ظاهر أو باطن، شريف أو خسيس. فمقصود الشريعة الظاهرية تهذيب الظاهر عن الأخباث والأنجاس الجسمانية، وإلزام الإنسان بهيئة الأعمال والعبادات التي يكون فيها خضوع الجوارح وترك المستلذات وإيتاء الصدقات للفقراء والمساكين من نوعهم، وتكثير أعداد أهل الإيمان والسداد

بالمناكحة.، وتقليل أعداد الكفر والنفاق والفساد بالمجاهدة، وإجراء الحدود وإصلاح الظلمة والفسقة الفجرة بالديات والتعزيزات، وضبط الأمر بحسب السياسة البدنية، ليحفظ النظام ولا يكون هملاً وسدى كالأنعام الهيام.
ومقصود الشريعة الباطنية العملية، تهذيب الباطن عن الفواحش والظلام الباطني، وتصفيتها عن الصفات الحيوانية الشهوية والغضبية، كطلب المشتهيات، والترفع على الغير في تحصيل الرئاسات، وعن الوساوس الشيطانية كالمكر، والخديعة، والحيل في اكتساب الفانيات. ومقصود الشريعة الباطنية الملية تهذيب الجنبة العالية من النفس والقوة العقلية عن الاعتقادات الفاسدة الجهلية، وتخليتها عن الأحكام الوهمية الكاذبة، وتجليتها بالعقائد الحقة اليقينية الدائمة الضرورية، أو بالمواعظ الخطابية، إن لم يكن بعد من الكاذبين في العالم، بل ربما ينتفع أيضاً في بعض الأحايين بالمقدمات المشهورة المقبولة، وقد تسمى الأولى بالشريعة، والثانية بالطريقة، والثالثة بالحقيقة.
والغاية القصوى في الجميع سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى، والانخراط في سلك المقربين إليه، وقد مرت الإشارة إلى أنّ الأقسام الخمسة جارية في كل من الطرق الثلاث: أما الأوليان فمما لا يخفى، وأما الثالثة فالفرض فيه صناعة البرهان، والحرام هو السفسطة، والمندوب هو الخطابة، والمكروه هو الشعر، والمباح هو الجدل.
(٦) - إن الروح الإنسانيّة من شأنها أن تتجلى فيها الأشياء كالمرآة الصافية وذلك في أصل الفطرة وأولها. هذا الأمر يكون لكل الناس وموجود عند كل الناس بالقوة. ومن خلال الأعمال والقيام بالتكاليف الشرعيّة والتقوى يخرج هذا الأمر من القوة إلى الفعل، وأما إذا ظهر من العبد من الأعمال ما يخالف أوامر الباري عز وجل فإن هذا الأمر ينتهي إلى الزوال والحرمان.
وتصقيل مرآة النفس يكون بأمرين:
- الأول: من خلال السلوك العلمي.
- الثاني: من خلال الرياضة الدينية والتكاليف الشرعية، ومن لم يخرج ذاته في طريق الآخرة بالتصفية والرياضيات والتطهير من القوة إلى الفعل لا يمكن لنفسه أن تصبح كمرآة صافية تتراءى فيها صور الموجودات على ما هي عليه.
(٧) - في طريق فقه النفس كل إنسان طريقه غير طريق الآخر، ومرضه يختلف عن غيره ومعرفة مقدار المرض وحجمه وتشخيص العلاج والدواء في هذا الطريق صعب لأنّ معرفة مرض واحد مشكل ، وعقبات الطريق غير محدودة، والمنافقون المدَّعون كثر، ومعرفتهم مستعصية لأنّ أكثرهم متلبّس بلباس المؤمنين العارفين. من

هنا لا بد من مرشد لهذا الطريق ، ولا بد للسالك التأسي برسول الله ﷺ في قوله وفعله ولا سبيل للطالب إلاّ الرجوع إلى الرسول أو الإمام المعصوم، وإذا تعذّر من يقوم مقامه، والذي يعبّر عنه بالأستاذ أو الشيخ والمشكلة أنّ معرفة الأستاذ في هذا العالم صعبة جداً، وشروط هذا الأستاذ كثيرة.

خليليَّ قطاع الفيافي إلى الحمى كثير وأما الواصلون قليل.

واعتبر بحر العلوم أنّ الشيخ والأستاذ على وجهين : الأستاذ الخاص، والأستاذ العام.

والأستاذ الخاص هو النبي وخلفاؤه الخاصون عليهم السلام.

وأما العام فهو الذي لم يكن مأموراً بالهداية بخصوصه ولكنه داخل في عموم **﴿فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** (سورة النحل، آية ٤٣) ولا يمكن للسالك أن ينتقل في كل الأحوال بدون الأستاذ الخاص وتوليه، لأنه عندما يصل إلى موطنه، فإنه هو الذي يعلمه آداب الوطن. لأنه والي تلك الديار. وأما ضرورة العام في حال السلوك وخاصته في أواخره والتي تحصل فيه التجليات الذاتية والصفاتية ولا يعرف الأستاذ العام إلاّ بمرافقته في الخلا والملا وبمعاشرته الباطنية، وملاحظة جميع إيمان جوارحه ونفسه.

(٨) - إذا تمت المحبة لله تعالى وأخلص العبد في حبه له، فإنّ حركاته وعبادته لا يمكن لها أن تكون مخلوطة بغرض نفسي. وهذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلاّ باكتساب المعارف والحقائق الإلهية، وهو يتوقف بوجه ما على العرفان الذوقي الذي هو العلم الحاصل عن طريق المشاهدة والعيان لا عن طريق الاستدلال والبرهان، لأنّ من لم يدرك طعم حلاوة المعارف الإلهية لا يمكن له الإخلاص في النية كما لا يمكن لقلبه أن ينقطع كلياً عن حبّ الشهوات، حتى العابد الورع مع غاية عبادته العملية ورياضته البدنية، إذا لم يكن عنده المعارف اليقينية ولا يكون سعيه مشفوعاً بالعلوم الإلهية لا يتيسر له إخلاص النية عند القيام بالأحكام والتكاليف الشرعية. فكلما كانت محبة العبد لله تعالى أخلص وعبوديته وافتقاره له أشد، وفناء وجه وجوده في وجود الحق أقوى وكان مقصده رب العالمين جعله الله تعالى في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

(٩) - مقام العندية،" أبيت عند ربي يطعمني ويسقين".

(١٠) - وهذا الكشف بعضه متعلّق بالدنيا والبعض الآخر بالآخرة، وما هو متعلّق بالدنيا سمّي رهبانيّة، وذلك لاطلاع أصحابها على المغيبات الدنيويّة وذلك من خلال الرياضيات الروحيّة والمجاهدات النفسيّة. وأما أهل الآخرة لعدم توقفهم عند الأمور الدنيوية، لا يلتفتون إليها وذلك لأنهم يعتبرون أنها من قبيل الاستدراج

والمكر بالعبد. وذلك كجعلها في الأمور الأخروية. ومن كان مقصده الفناء في الله والبقاء به لا يلتفت إلى هذا الكشف حتى في الأمور الأخروية، لكونه عالماً بالله ومراتبه وظهوره في مظاهر الدنيا والآخرة فهو لا يرى غيره ويرى جميع ذلك تجليات إلهيّة، فينزل كلّ منها منزلته.

(١١) - هداية النفوس إلى معرفة الله تعالى التي هي نور طامس قيومي يظهر في قلب الولي وهذا بكماله هومقام الولاية الكبرى الإلهية التي يكون بأتمها لمحمد وآله عليهم السلام كما ورد عن الإمام السجاد: "ليس بين الله وبيني حجبة ستر ولا دونه حجاب".

(١٢) - نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام.

الدرس الخامس عشر

أقسام النبوّة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتبر العرفاء أن النبوة مثلها كمثل الولاية لها اعتباران أو تقسيمان:

الأول: النبوَة المطلقة.

الثاني: النبوة المقيّدة.

وحتى نعرف الفرق بين النبّوة المطلقة والنبّوة المقيدة[1] لا بد لنا من التعرّف على الفارق بين المطلق والمقيّد.

إنّ المطلق هو عبارة عن أمر يعمّ كل شيء، مثلاً: عند ملاحظة أحدهم أن السماء تمطر وهو في السيارة، بالتالي يمكنه أن يلاحظ وجود الماء على الرصيف، في الشارع، في الحفر،... ويلاحظ أنّ كل هذه المياه تنتهي إلى مياه تسقط من السماء وهي مياه المطر. فالمطلق في هذا المثال هو المياه المتساقطة، والتي تعم الشوارع، الحفر، والأرصفة، وقد تعمّ هذه المياه أيضاً البيوت والمحلات....إذاً فالمطلق هو الذي يعم كل شيء أما المقيّد فهو الذي يأخذ أمراً محدداً جزئياً. أي يأخذ قسماً خاصاً، جزءًا معيناً. مثلاً: عند القول: إنّ المياه طافت في بيت زيد هنا يلاحظ أمراً خاصاً جزئياً وقد يلحظ حفرة معينة، ويلحظ عمقها وكميّة المياه فيها. ومرّة يلحظ الشتاء بعمومه، بإطلاقه، ومرة تلحظ مياه الشتاء بجزء محدد قد أخذ من هذه المياه.

العلاقة بين المطلق والمقيّد:

لا يمكن أن يتحقق مقيّد إذا لم يكن هناك مطلق سابق له. مثلاً: لا

وجود للماء في الحفرة إن لم يكن هناك مطر، فشرط المقيّد أن يكون له مصدر مطلق. أو وجود مطلق. ولكن أين يمكن أن يلحظ المطلق؟ في مثال ماء المطر إما يلحظ في السماء، وإما على الرصيف، وإما في الحفرة.. هكذا يمكن اكتشاف المطلق في المقيّد. إنّ المقيد هو الذي يظهر لنا الأمر المطلق، إلا أنّ المطلق موجود في هذا المقيّد وفي غيره أيضاً. فالمطلق هو ما يعم كل الأمور والمقيّد هو أمر من الأمور، والمطلق يدخل فيه وفي غيره كما أن المطلق يكون قبل المقيد، والمقيّد هو الذي يظهره.

سريان الولاية في الأشياء:

إنّ الولاية المطلقة هي ولاية الباري تعالى، وكل ولاية غير ولاية الله هي ولاية مقيدة نابعة من ولاية الله تعالى. فولاية الله قبل كل ولاية لأنها هي المطلقة، وهي تسري في كل شيء في كل ولاية، تدخل فيها تعمّها. وهذه الولاية تظهر في الولاية المقيّدة، إذ أنّ حكم الله يظهر فيما حكم به نبي الله محمد ﷺ، وفيما يأمر به أمير المؤمنين عليه السلام إذاً فحكم الله سارٍ في الولاية المقيدة(٢).

العلاقة بين النبوة العامة والنبوة الخاصة:

كما هي العلاقة القائمة بين الولاية المطلقة والولاية المقيدة كذلك هي قائمة بين العلاقة بين النبوّة المطلقة والنبوة المقيّدة. يوجد نبّوة مطلقة ونبوّة مقيّدة. النبوّة المقيّدة يمكن أن تكون محددة في زمن معين، أو بظرف معيّن، أما النبوة المطلقة فهي نبوّة كانت في الأزل، كانت من الأزل أي قبل أن يخلق الله الخلق وأتت مع أول نبي، ثم مع الثاني والثالث والرابع .... إلى آخر السلسلة، فهي موجودة قبل أن يخلق الخلق، وكانت مع كل نبي نبي، وستبقى إلى أبد الآبدين هذه ميزة لها.

ميزات النبوّة المطلقة:

إنّ النبوّة المطلقة تعطي إنباء، وتخبر كل صاحب قابلية بما ينفعه.

مثلاً: في زمن نبي الله نوح عليه السلام كانت قابليات الناس الذهنيّة بمستوى محددٍّ، وهذه النبوّة تعطي الناس ما يمكن لهم الأخذ به ولا تعطيهم أكثر من ذلك. لأن مستوى القابلية هو بهذا القدر، قابلية فهمهم وقابلية علمهم، وما يمكن لهم أن يستوعبوه. وتطور الزمن وزيادة القابليات تعطي هذه النبوة من يأتي بعد النبي نوح عليه السلام بالمقدار الذي زاد من الاستيعاب. إذاً فالنبوة المطلقة هي:

أ) منذ الأزل إلى الأبد وهي مع كل نبيّ نبيّ.

ب) تعطي وتنبأ كل واحد من الخلائق بالمستوى الذي يمكن له أن يستوعبه.

ت) المطلقة تظهر في المقيّدة.

كيفية معرفة مقدار عطاء النبوة المطلقة:

عندما يأتي النبي آدم عليه السلام ويقول: التكليف هو هذا الأمر فقط، نعرف أنّ هذه النبوة المطلقة تريد هذا القدر، ثم تكبر المسألة مع نوح عليه السلام وتتسع مع إبراهيم عليه السلام ثم أكثر مع موسى وعيسى عليه السلام... وهي تقدّم لكل بمقدار، ويظهر المقدار المطلوب من خلال الأنبياء المحدودين، إذا هي قبل ويظهر حكمها في المقيّد.

النبوّة لمطلقة عند العرفاء [٢]:

إنّ العرفاء المسلمين يرون أنّ النبوة المطلقة هي لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وآله، فالباري تعالى قبل أن يخلق الخلق، خلق نور نبينا محمد صلى الله عليه وآله. وهذا النور كان يسري مع آدم ونوح.. إذ إنّ حقيقة النبوة المطلقة كانت تسري عندهم، فإذا كانت النبوة هي الإنباء والإخبار، فهل الإخبار هو دائماً بكلام يقال؟ أم أنّ هناك طرقاً أخرى للإخبار؟

مما لا شك فيه أنّ أحد أهم وسائل الإخبار هي الكلام، إلا أنّه يمكن الإخبار بطرق أخرى، بالكتابة، بالإشارة، بالرمز... فالإخبار ليس أمراً

محصوراً بالكلام. وإذا كان الإخبار عن الباري عز وجل، يمكن أن يكون هذا الإخبار تعليماً ليتحقق كمال كل موجود، فقد أرسل الله تعالى النبي صلوات الله عليه وآله حتى يوصل هذا الإنسان إلى الكمال اللائق به. فالإخبار إذاً هو واسطة لإيصال هذا المخلوق إلى كماله الخاص به. هل هذا الإخبار خاص بالإنسان؟ أم يتعداه ليصل إلى الملائكة؟ وإلى عالم الجن؟

إنّ الروايات قد صرحت بأن الملائكة كانوا بحالة من الهيام بالله عز وجل وسمعوا إخباراً - إنباء - ردّدوا خلفه، وهذا الإنباء كان فيه ذكر لاسم الله سبحانه وتعالى، وأنّ الذي كان يردد أسماء الله تعالى هي حقيقة نبينا محمدﷺ. لذلك فإن أمير المؤمنين والرسولﷺ هما المعلم للملائكة، مما يعني أنّ النبوة وصلت إلى حقل الملائكة. وأما بالنسبة إلى الجن فهو واضح بنص القرآن أنهم تعلموا من آيات الباري تعالى. مما يؤكد أن الإنباء يصلهم وكذلك النبوة، فكمال الإنسان مشروط بتعاليم النبوة المطلقة، وكمال عالم الملائكة مشروط بتعاليم النبوة المطلقة.

هل هذه التعاليم تعلم الإنسان ما تعلمت منها الملائكة أم أن هناك شيئاً آخر؟ المفروض أن تعلمه شيئ آخر، لأن الإنسان يتعلم من النبوة بحسب ما يقتضيه وضعه، والجن يتعلمون بحسب ما يقتضيه وضعهم، والملائكة يتعلمون أيضاً بحسب ما يقتضيه وضعهم. **﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾**[٤].

إنّ الحصى يسبح بحمد الله كما الشمس والقمر والبحار والشجر، والطير والدواب. إلا أننا لا نفقه تسبيحهم، فإذا كان لهم تسبيح بحمد الله فهذا يعني أن لهم القابلية لبناء علاقة مع الله، وهذه العلاقة مبنية على أساس منطق العبودية لله. فكمال العبودية الخاص بهم ينبغي أن يكون منشؤه تعاليم النبوة المطلقة لكن كل بحسبه. فالنبوة المطلقة تسري في كل الأشياء لتعطيها كمالها الخاص بها، كمالها الذي أوجدها الله لأجله.

ومن هنا فإن النبوة عند العرفاء، إيصال كل الوجود إلى الكمال الخاص به. وعلى هذا فإن معنى النبوة هنا يختلف عن المعنى الذي علمنا إياه علم الكلام، والذي إحدى وجوهه الأمور التشريعية والمواعظ والتحسينات الأخلاقيّة. إلا أنّ هناك رتبة من رتب الكمال الخاص بكل موجود، وهو أن يحصل له حقيقة وجوده أو حقيقة تكوينية. إذ إن النبوة المطلقة تتدخل في هذا الشأن بحسب فهم العرفاء.

وعلى ضوء هذا تكون نبوة آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام هي رشحات من نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وأيضاً تكون نبوته صلى الله عليه وآله هي المظهر الذي تحدث الباري عنه حتى ينبأ بآخر حلقة لهذه النبوة المطلقة. لهذا أورد في الروايات أنّ الأنبياء وكأنهم باب فيه ثلمة، يقول النبي صلى الله عليه وآله : "فجئت لأسدّ هذه الثلمة"[٥]. وهكذا يكمل النبأ الواحد الذي هو النبوة المطلقة[٦].

أبدية النبوة المطلقة:

إنّ نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله هي نبوة خاتمه، وهذا معنى خاتم النبوة، فهل تظهر هذه النبوة في يوم القيامة؟ إنّ الآيات القرآنية تقول: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾**[٧] إذن تستمر هذه النبوة المطلقة إلى قيام الساعة والوقوف بين يدي الله رب العالمين.

دفع شبهة:

وقد يعتقد البعض أنه لا قيمة في الدين، في الإسلام لنبينا محمد صلى الله عليه وآله، وخاصة بعد أن مات صلى الله عليه وآله، وبعضهم اعتبر أن شخص الرسول ليس بالأمر المهم في الإسلام. هذا الكلام لا يتصادق مع الآيات القرآنية ولا مع الروايات، لأن الآيات تبجل رسول الله صلى الله عليه وآله. وفي مورد الإسراء والمعراج والوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وكذلك في مورد القيامة والدور المنوط به صلى الله عليه وآله حتى سمي بصاحب المقام المحمود. أما في الروايات فالقيّم على القرآن الكريم هو رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيت النبوة عليهم السلام والتعبد

يكون بتوجه الله تعالى إلى عظمة النبي ﷺ.

وأمـا قـول: "نحن باب الله الذي منه يؤتى"[٨] لا يلغي أبداً أنه ليس هناك واسطة بين الله والعبد، وهنا لا يحكى عن واسطة بل أمر قدره الله عز وجل، والوصول إلى الله تعالى يكون من خلال طريق واحد مما يستدعي طرح السؤال التالي: إذا كان أشرف الموجودات هو النبي محمد ﷺ وما من مسلم إلا يقول: إن الإنسان إذا ترقى صار أفضل من الملائكة... فكيف إذا وصل الأمر إلى النبي ﷺ؟ وكيف تلقى النبي أوامر الله تعالى؟ أليس من خلال جبرائيل؟ وهل هذا يعني أن هناك واسطة أخلت بأنه لا واسطة بين الرب والمربوب؟

إنّ الأمر ليس كذلك على الإطلاق، إلا أنّ الله في هذا المورد أمر وارد أن تصبح الأمور على هذه الطريقة، وهناك فارق بين أمرين.

الأول: أن يكون النبي لا يستطيع الوصول إلى الله إلا من خلال الوحي لكونه قد فرض نفسه على النبي والولي والعياذ بالله.

الثاني: أن يكون الباري قد وضع لإيصال أمره، مسألة من المسائل، وهي الإيصال من خلال جبرائيل عليه السلام والأمر هنا ما زال بيد الله تعالى. وهناك فارق بين الأمرين. ومن يشكل على الكلام بأن الأئمة عليهم السلام أو أنّ النبي ﷺ هم باب الله الذي منه يؤتى وهم حجج الله بمعنى أنهم هم الواسطة بين الله والناس فأولى له أن يشكل على العلاقة بين الله والنبي بواسطة الوحي. وهذا الإشكال غير وارد لأنه مبنى الدين ومن الأصول الدينية أساساً.

إشراق عقلي:

قال بعض الأعلام: لكل من النبوة والولاية اعتباران: اعتبار الإطلاق واعتبار التقييد أي العام والخاص. والنبوة المطلقة هي النبوة الحقيقية، الحاصلة من الأزل الباقية إلى الأبد ولسانها: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين"[٩]، و"حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى

يوم القيامة"[١٠]. وهي اطلاع النبي المخصوص بها على استعداد جميع الموجودات بحسب ذواتها وماهياتها وإعطاء كل ذي حق حقه الذي يطلبه لسان استعداده من حيث الإنباء الذاتي والتعليم الحقيقي الأزلي. وصاحب هذا المقام هو الموسوم بالخليفة الأعظم وقطب الأقطاب، والإنسان الكبير، والآدم الحقيقي المعبّر عنه بالقلم الأعلى والعقل الأول والروح الأعظم، وباطن هذه النبوة الولاية المطلقة.

الهوامش:

(١) - النبوّة المطلقة هي النبوّة العامّة والنبوّة المقيّدة هي النبوّة الخاصّة.
- **الأولى** تتقسم إلى نبوّة تعريفيّة وتشريعيّة وإخباريّة و النبيّ عليه السلام ينبئ عن الغيب، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أبو آدم في المعنى وفي الروح وليس في المادّة، ونبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله في عرض نبوّة الأنبياء وفي طول نبوّة الأنبياء هو بعد النبيّ عيسى عليه السلام. فنبوّته مطلقة قبل الكلّ وبعد الكلّ فهو كان معهم ويخبرهم. والنبوّة المطلقة هي النبوّة التعريفيّة وهي دائماً أبديّة أزليّة. وباطن هذه النبوّة المطلقة هي الولاية المطلقة.
- والثانية هي أيضاً تعريفيّة وتشريعيّة وإخباريّة. وباطن النبوّة المقيّدة الولاية المقيّدة. وكل من النبوّة والولاية من حيث هي صفة إلهيّة مطلقة، ومن حيث استناده إلى الأنبياء والأولياء مقيّدة.
(٢) - الولاية المطلقة لله تعالى وحده سبحانه وهي تختص بالذات ولكن من حيث استنادها إلى الأنبياء مقيدة، ويعبّر عنها بالولاية الظلّيّة. والمقيد قيامه بالمطلق فقيام الولاية المقيدة بالولاية المطلقة. ويوجد نبوة تشريعية ونبوة إنبائية ونبوة مقاميّة، والنبوة الإنبائية (نبوة الأنبياء) هي جزئيات النبوة الإنبائية المطلقة.
(٣) - إن النبوة المطلقة الحقيقية هي إظهار ما في غيب الغيوب في حضرة الوحدانية حسب استعدادات المظاهر بحسب التعليم الحقيقي والإنباء الذاتي، فالنبوة مقام ظهور الخلافة والولاية هي مقام بطونها.
إن الإنباء والتعليم بحسب نشأة الوجود ومقامات الغيب والشهود مختلف المراتب فإن لكل قوم لسانا **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾** فلهما مراتب شتّى تجمعها حقيقة الإنباء والتعليم. فمرتبة منها ما وقع لأصحاب سجن الطبيعة

ومرتبة منها ما وقع لأهل السرّ من الروحانيين والملائكة المقربين وفي الرواية" سبّحنا وسبّحت الملائكة وهللنا وهللت الملائكة.."
ومرتبة منها ما وقع في الحقيقة الإطلاقيّة من حضرة الاسم الأعظم ربّ الإنسان الكامل.
ومرتبة منها ما وقع للأعيان الثابتة من حضرة العين الثابت المحمدي. ومرتبة عالية منها ما وقع لحضرة الاسماء في مقام الواحدية والنشأة العلميّة الجمعيّة من حضرة اسم الله الأعظم بمقام الظهور، وفوق ذلك لا يكون إنباء وظهور بل بطون وكمون." راجع: "الإمام الخميني ، مصباح الهدية، المشكاة الأولى ".
(٤) - سورة الإسراء، آية٤٤.
(٥) - الثلمة هي الخلل او النقص الواقع في الحائط.
(٦) - قد يتساءل البعض أنّ الحديث حول النبوة المطلقة للنبي لم يتم إثباتها وإنما جرى فقط الحديث عنها. كما أن هذه الرسالة الموسومة برسالة في العرفان، فلو كانت هذه الرسالة رسالة برهانية أي بالفلسفة أو بعلم الكلام لكان من المفترض تقديم الأدلة على الأمور المطروحة. لكن رسالة العرفان تتحدث عن الأمور كما هي، ولإثباتها اعتمد المصنف الدليل الروائي: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين" والعرفان يأتي بالكلام الوارد في الآيات والروايات للدلالة على الفكرة. وليس من وظيفة العرفان إقامة الدليل والبرهان. نستطيع بعد تقرير المسألة على مستوى العرفان أن نأتي بالأدلة عليها، لنفترض مثلاً: أدلة عقلية إلا أن الأدلة العقلية لا تشير إلى الشخص عادة. وحتى بالنسبة للباري عز وجل، العقل يقول: إن هناك خالقاً، هناك موجداً لهذا الوجود. ويعطينا أنه لا بد أن تكون المسألة كذا وكذا. لكن من يمثل هذا الموضوع؟؟ ليس العقل، وظيفة العقل تقديم الكليات.

هناك فارق أن نتحدث عن الحقيقة المحمدية وبين أن نتحدث عن شخص النبي محمد ﷺ، مثلاً: الله عز وجل خلق الإنسان وهذاالإنسان له أحكام خاصة به، يقول: ﴿ونفحت فيه من روحي﴾.

الحديث هنا عن كل إنسان مع أنه تعالى يتحدث عن مفرد، وهذا لا يلغي أنه في الخارج يوجد أحمد ومحمد وعلي وحسن... أحمد وعلي وحسن هم نفس الإنسان وإن كان هذا له حكم ذاك، أي أن قيوده حدّته. وأما بالنسبة للنبي ﷺ حينما تنزل إلى الدنيا فإن هذا الأمر أعطاه خصوصيات جديدة تختلف بنحو ما عن حقيقة كونه الحقيقة المحمديّة. وإذا كان "أنا وعلي من نور واحد" هذه هي الحقيقة المحمدية ولكن عندما ينزلون إلى الدنيا يصبحون محمداً وعلياً وحسناً وحسيناً...

إحدى أحكام هذه الخصوصيّة في الأرض أنه هناك بعض التجارب التي يمرّ بها النبي ومنها تجربة الوحي، ومنها تجربة الإسراء والمعراج، ليصل من خلال هذه التجارب إلى حدّ الاتحاد ما بين الفرد والحقيقة. وعندما اتحد الفرد مع الحقيقة قال جبرائيل: إنه لن يستطيع التقدم ولا خطوة واحدة، أي أنه ليس له أي استحقاق آخر. هذا من جهة خصوصيته في الدنيا التي تقتضي هذا الأمر.

من جهة ثانية، إن كل الحقائق كانت موجودة في قلب نبينا محمد ﷺ وللتحدث عن حقيقة من هذه الحقائق تكون المسألة بواسطة جبرائيل عليه السلام الذي يخبره بالإذن تارة، وتارة أخرى يكون هذا الإخبار بطرق أخرى.

إن شأنيّة النبي أنه عبد يطيع، وعظمة النبي بأنه عبد يطيع. هذه حقيقة عظمته. إذ إن النبي ليس إلهاً مستقلاً حتى يكون عنده كل الإمكانات لأن يحدد متى وكيف يقوم بالعمل أو يمارس الدور... فطبيعة النبي، تكوين النبي. عظمة النبي، حقيقة أنه عبد مطلق لله. الأصل أن النبي يمارس كل منطق العبودية في هذا الشأن. فالنبوة المطلقة تستمر إلى الأبد لذاك العالم أيضاً.

وفي قوله تعالى لإبليس: ﴿**استكبرت ام كنت من العالين**﴾ هناك روايات تفسر بأن العالين هم خلق الله لم يكن مأموراً بالسجود لآدم عليه السلام وهؤلاء العالون هم الذين كان ينظر إليهم آدم عليه السلام وقد كانوا أنواراً .... والحديث كان عن نور محمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة صلوات الله عليهم أجمعين.

(٧) - سورة النساء، آية ٤١.

(٨) - م.س.

(٩) - م.س.

(١٠) - م.س.

الدرس السادس عشر

الولاية المطلقة والمقيّدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مرّ الكلام عن النبوّة المطلقة والمقيّدة وكيف أنّ لكلا هذين المعنيين اعتبارين:

❖ الأول: هو الجهة التي تتصل فيها النبوّة بالباري سبحانه وتعالى أو بمعنى آخر بجهة الباطن.

❖ الثاني: جهة الظاهر. وفيها تكون النبوّة عبارة عن الإخبار الذي يستمد من الباري، ويتمّ الحديث فيه عن كلّ ما له علاقة بالأمور الغيبيّة وإبلاغ الناس بها، وتكتمل المسألة حين وصولها إلى مستوى الشريعة، بحيث يكون هناك شريعة ويكون النبيّ رسولاً.

كما مرّ أيضاً أنّ باطن كل نبوّة هو الولاية[1]، فكلّ نبيّ وليّ لله سبحانه وتعالى، وباطن النبوّة هو الولاية ولا يمكن للنبيّ أن يكون نبيّاً ما لم يدخل إلى محضر الولاية.

كما تمّ التفريق بين النبوّة المطلقة والنبوّة المقيّدة، والولاية المطلقة والولاية المقيّدة وأنّ النبوّة والولاية المطلقتين منذ الأزل وإلى الأبد. فأيّهما أهمّ الولاية أم النبوّة؟

إنّ هذا التساؤل قد تمت معالجته في علم الكلام. وبما أنّ النبوّة باطنها الولاية، وباعتبار أن الولاية هي الباطن فهي درجة أعلى من النبوّة، وباطن كلّ شيء هو حقيقته وسرّه. فإذا كانت كلّ نبوّة باطنها

الولاية يعني حقيقة كلّ نبوّة هي الولاية، مما يعني أنّ الولاية أعلى مستوى من النبوّة[٢].

رد شبهة:

قد يقول أحدهم: بما أن علياً وليّ الله وكذلك الأئمة من ذريّته، ونبيّ الأمّة هو رسول الله محمدﷺ، هل هذا يعني أنّ رتبة أمير المؤمنين عليه السلام أعلى من رتبة النبيّﷺ؟[٣].

وهنا يرد مسألتان:

❖ الأولى: وجود النبيّ له أتباع نبوّة، ومن أتباع نبوّته أمير المؤمنين عليّعليه السلام، وهذا النبيّ الذي له أتباع من الأولياء هو وليّ، فمقتضى ولاية النبيّ الذي له أتباع من الأولياء أنّها ليست أقلّ من مستوى ولاية أتباعه، فموسىعليه السلام كنبيّ باطن نبوّته الولاية، وهوعليه السلام عنده أتباع من الأولياء، وليست ولايته أخفض من ولايتهم حتماً، بدليل أنهم من أتباعه والباطن لا يلغي الظاهر، بل الظاهر يكشف عن الباطن. فإذا كان أمير المؤمنينعليه السلام من أتباع محمدﷺ فولاية النبيّ ليست أقلّ أبداً من ولاية أمير المؤمنين عليّعليه السلام [٤].

❖ الصورة الثانية: عند وجود وليّ ونبيّ ، كأمير المؤمنينعليه السلام والنبي موسىعليه السلام، وكلاهما ولي، هل يمكن أن تكون رتبة أمير المؤمنينعليه السلام كوليّ أعلى من رتبة النبي موسىعليه السلام؟

هذا الامر ممكن لأنه ليس من أتباعه، وكذلك الأمر إذا قيست ولاية أولياء النبي موسىعليه السلام لنبوّة أحد الأنبياء كالنبي نوحعليه السلام مثلاً، ممكن أن يكون رتبته أعلى مستوى من ولاية نوح على سبيل المثال. وهذا الأمر يرى في ترجمة الروايات: "إنمّا أنا عبد من عبيد محمد"[٥]. وفي الحديث الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "علماء أمّتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل"[٦] وذلك بحسب موقعيتهم ودرجتهم في الولاية.

من هو النبيّ؟.. من هو الرسول؟.. من هو الولي؟.. ومن هو الإمام؟..

الفرق بين النبيّ والرسول والوليّ والإمام:[٧]

● النبيّ: من أوحِي إليه بالعمل الذي كلّف به من خلال الوحي بتكليف ما، والعمل قد يكون في وسط أمّة أو في مستوى قرية، وقد يكون عمل على مستوى أسرة أو على مستوى نفسه فقط. لكن طريقة التكليف هي الوحي لذلك هناك بعض الأنبياء نبوتهم لأنفسهم فقط.

● الرسول: هو من أوحُي إليه بالعمل والتبليغ، يبلغ رسالة ربّه، فهو نبيّ مكلّف بالعمل والتبليغ.

● الوليّ: هو من حدّثه الملك (المقصود هنا بالغالب جبرائيل عليه السلام أو ألهم إلهاماً بالعمل، وهنا فرق بين الوحي والإلهام.

لكن بالإجمال الفرق بينهما، ان الذي يُوحى إليه يُوحى إليه من خلال جهة تبعث له بمعنى الكلام، ويصبح الإلهام عنده عبارة عن قوّة من الحضور النفسي، بحيث يعرف المطلوب عن الباري عزّ وجلّ من دون أن يُحدَّث به فيصبح ملهماً[٨].

● الإمام: هو من حدّثه الملك بالعمل والتبليغ، لذلك كان إبراهيم إماماً **﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾**[٩]. فكلّ رسول نبيّ ولا عكس وكلّ رسول أو إمام أو نبيّ هو وليّ ومحدّث ولا عكس. يعني ليس كلّ وليّ ومحدّث شرط أن يكون إماماً أو نبيّاً أو رسولاً.

وكل رسول إمام ولا عكس، ولا نبيّ إلاّ وولايته أقدم على نبوّته، ويجب على كل نبي أن يكون وليّاً قبل نبوّته، ولا رسول إلاّ ونبوّته أقدم على رسالته، ولا امام إلاّ وولايته أقدم على إمامته، والولاية باطن النبوّة، والإمامة والنبوّة باطن الرسالة وباطن كلّ شيء أشرف وأعظم من ظاهره لأنّ الظاهر محتاج إلى الباطن والباطن مستغنٍ عن الظاهر، ولأنّ الباطن أقرب إلى الحقّ فكلّ مرتبة من المراتب المذكورة أعظم من لاحقتها وأشرف.

رواية عن الإمام الرّضا عليه السلام في البصائر، عن الحسين بن العباس أنّ

هماماً كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام قال: " جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبيّ والإمام"؟ قال الرضا: "الفرق بين الرسول والنبيّ والإمام هو أنّ الرسول الذي نزل عليه جبرائيل فيراه ويسمع كلامه (شرطان رؤية جبرائيل وأن يسمع كلامه) وينزل عليه الوحي وربمّا نبئ في منامه - كرؤيا إبراهيم عليه السلام - والنبيّ ربمّا يسمع الكلام وربمّا رأى الشخص ولم يسمع الكلام (النبيّ إمّا يرى أو يسمع) والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص[١٠]. لذلك ورد لدينا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لأمير المؤمنين عليه السلام: تسمع ما أسمع[١١]، إذن يمكن له أن يسمع ذلك، هنا على طريقة الفيض الكاشاني[١٢].

عن مولانا الصادق عليه السلام قال:" كان عليّ عليه السلام محدَّثاً وكان سلمان محدَّثاً، سأله شخص وما آية المحدَّث- يعني ما هي علامته أن يكون محدثاً ؟ أجابه عليه السلام:" يأتيه ملك فينكث في قلبه (يوقر في قلبه) كيت وكيت"[١٣]. حتّى أنّه هناك رواية لعلّها عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه سُئل من أحد أصحابه: "أحياناً نسألكم فتجيبون بسرعة وأحياناً نسألكم فتطرقون إلى الأرض قليلاً ثمّ تجيبون لماذا؟ يقول الإمام عليه السلام ما مفاده: "ما من كلام نأتي به إلاّ وينكث في قلوبنا تارة ينكث سراعاً وأخرى نطرق حتى يُنكث في القلب - حتى يحصل هذا النحو من الإلقاء لذلك إن هو إلاّ وحيٌ يوحى كما عند النبي" صلى الله عليه وآله وعند آله عليهم السلام تأسيّاً بذات رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.

إنّ من الأمور المطروحة هي ولاية السيّدة الزهراء عليها السلام وما كان يقال: بأنّها كانت محدَّثة، وكذلك موضوع صحيفة السيّدة الزهراء عليها السلام[١٤] وجفر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بأنّه هل كان من باب حديث الملك أم لا.

في علم الكلام إذا كان من حديث الملك (الذي هو جبرائيل عليه السلام وهو الوحي) وقلنا: بأنه انقطع الوحي مع النبيّ صلى الله عليه وآله فكيف يبقى مستمراً

نزول جبرائيل عليه السلام فجبريل عليه السلام تارة ينزل من باب أنه وحي وأخرى من باب أنّه ملك، إن كان وحياً فهو مكلّف بأمر ليعمل به وليبلّغ وهذا يكون للنبيّ، وفي حالة أخرى ينزل جبريل بدون أن يكون له هذه الوظيفة. والكلام عن أنّها عليها السلام محدّثة منسجم مع كثير من موارد الروايات الواردة.

من هنا يكون الفارق بين النبيّ والرسول والإمام والوليّ واضحاً. وبما أنّ النبيّ حتماً باطنه الولاية والرسول حتماً باطنه النبوّة والولاية، مرّة يكون الإمام هو النبيّ ومرّة يكون الإمام بمعنى الهادي، والإمام النبيّ شيء والإمام بمعنى الهادي شيء آخر، والإمام النبيّ هي الرتبة العليا التي تأتي بعد الرسالة والنبوّة والولاية، وهي التي ورد فيها **﴿وإذ ابتلي إبراهيم ربّه بكلماتٍ فأتمهّن قال إنّي جاعلك للناس إماماً﴾**(15)، وبحسب الموارد في نصوص القرآن الكريم لعلّ التسمية بالاسم للأنبياء على أنّهم أئمة واردة بشكل واضح عن النبي إبراهيم عليه السلام وعن غيره من الأنبياء بدون ذكر أسمائهم **﴿وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا﴾**(16). ويقول المفسّرون بهذا الشأن: إن نوعيّة إمامة النبي إبراهيم عليه السلام للناس أرفع مقاماً **﴿إنّي جاعلك للناس إماماً﴾** وأنّ هذا الأمر لم يحصل إلاّ لإبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

اختلاف العرفاء في تعيين صاحب الولاية المطلقة والولاية المقيّدة:

أجمع العرفاء أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو صاحب الولاية المطلقة، "كان نبيّاً وآدم بين الماء والطين"(17). فهو منذ الأزل نبيّ وإلى الأبد نبيّ.

وأما في موضوع الولاية فقد قالوا: بضرورة أن يكون هناك وليّ مطلق ووليّ خاتم وذلك بشرطين:

أولاً: ورد في الحديث عن النبيّ أنّ النبوّة هي عبارة عن بيت من طين، كل نبيّ يمثّل حجراً من هذا البيت، و فيه فراغ محدّد والأنبياء بمجموعهم يشكلون هذا البيت، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد أتمّه بنبوّته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد اختتم بناء النبوّة بنبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. اعتبر العرفاء أنّ الوليّ في الولاية

ينبغي أن يسدّ حجرين رمزوهم برمز، قالوا: يجب أن يسدّ حجر من ذهب وحجر من فضّة - كرمز- الحجر الأوّل من باب أنّ الوليّ يمثّل تمام الاتباع لنبوّة النبيّ الخاتم، والحجر الثاني يمثّل تمام خاتميّة الولاية الإلهيّة على الأرض، والولاية تنتقل من وليّ إلى وليّ وصاحب الولاية المطلقة هو صاحب ولاية خاتم.

قد يرد هذا السؤال: هل صاحب الولاية مفصول عن صاحب النبوّة الخاتم؟ يقول العرفاء: عندما ينفصل الوليّ عن النبوّة لا يبقى من الأسرة الإلهيّة، وإحدى أهمّ القيم لديه أن يكون متبعاً تمام الاتباع للنبوّة الخاتمة.

ثانياً: أن يكون آخر حلقة في الولاية الخاتمة، والسؤال هنا: من هو صاحب الولاية المطلقة ومن هو صاحب الولاية الخاتمة؟[١٨].

وقد اختلف العرفاء في تعيين صاحب الولاية المطلقة والمقيدة، واعتبر ابن عربي أنّ صاحب الولاية المطلقة هو النبيّ عيسى عليه السلام وأنّ صاحب الولاية الخاتمة هو محيي الدين ابن عربي نفسه. بينما عند العرفاء من الشيعة اعتبروا أنّ صاحب الولاية المطلقة هو أمير المؤمنين عليه السلام وصاحب الولاية المقيدة هو الحجة ابن الحسن(عج).

إنّ شرط الوليّ المطلق أو الخاتم أن يكون في ولايته من أتباع النبوّة المطلقة بحيث يكون صاحب تمام الأنبياء عليهم السلام لصاحب النبوّة المطلقة وبالإجماع صاحب النبوّة المطلقة هو النبيّ محمد صلى الله عليه وآله فلا يصحّ أن يكون عيسى ابن مريم عليه السلام هو صاحب الولاية المطلقة لأنّه ليس من الأتباع في النبوّة، وانما هو من تجليّات النبوّة لأنه صاحب نبوّة مقيّدة.

إن العرفاء الشيعة حين وصلوا إلى هذه النقطة عارضوا ابن عربي وقالوا له: لا يصلح أن يكون صاحب الولاية المطلقة إلاّ علياً عليه السلام، والمسألة في هذه الصلاحيّة إنمّا تكون لعليّ عليه السلام الولاية المطلقة لكونه هو الذي يمكن له أن يعبّ عنها. وصاحب الولاية المطلقة هو الذي يكون أزلاً وأبداً ولايته سرمديّة بدليل "أنا وعليّ من نور واحد"[١٩]. في موضوع الخاتم

أن يكون ابن عـربي الولـي الخاتم - الولـي الخاتم ينبغي أن يكشف عنهـا وهذا الأمـر لـم يكن لأحـدٍ على الإطلاق إلاّ لفـتـرة زمـانيّـة يكاد أن يكون إطباقاً في الحديث عنها بأنّ الناس قائدها يحكم بواقعيّات الأمور في الروايات وليس بالظاهر منها. هذه الفترة هي التي يحكم فيها محمد بن الحسن (عج) قـائم آل محـمد، فـالوليّ الخاتم هـو الإمام المهـدي (عج)، والملفت في هذا المقام أنّ الأشعار المنسوبة إلى بن عربي تحكي عن عصر الإمـام المهـدي (عج) بطريقـة مـذهلة وعن الذي يحـصل وعـلامـات ظهوره(عج).

بين الولاية المطلقـة والولاية الخـاتمة كـانت المسـألة عن أمـيـر المؤمنين عليه السلام والإمام الحجّة (عج)، إذا تمت حلقة النبوّة المطلقة والولاية المطلقة مع الولاية الخاتمة عند الحقيقـة المحمديّة صلى الله عليه وآله تصبح نهاية القيادة في الاهتداء والهداية إنمّا هي عندهم عليهم السلام سواء في الدنيا أو في الآخرة، وسيتم ذكر موردين من الروايات يحكيان عن هذه الولاية:

المورد الأوّل: في تفسير الإمام العسكري عليه السلام حول المؤمن الذي يوالي النبيّ صلى الله عليه وآله إذا حضره من أمر الله تعالى ما لا يردّ (وهو طريح الفراش) ونزل به من قضائه ما لا يُصدّ، وحضره ملك الموت وأعوانه (يلتفت يمنة ويسرى) وجد عند رأسه (المحتضر) محمداً صلى الله عليه وآله ومن جانب آخر عليّاً سيّد الوصيين عليه السلام، وعند رجليه الحسن من جهة سبط النبيين والحسين سيّد الشهداء من جهة أخرى، وحواليه بعدهم خيار خواصهم ومحبيهم الذين هم سادة هذه الأمّة بعد ساداتهم من آل محمد صلى الله عليه وآله ينظر العليل المؤمن إليهم فيخاطبهم فيقول المؤمن: بأبي أنت وأمّي يا رسول ربّ العزّة، بأبي أنت وأمّي يا وحي رسول ربّ الرّحمة بأبي لأنتما وأمّي يا شبلي محمد ودرغاميه يا ولديه وسبطيه يا سيّديّ شباب أهل الجنّة المقربين من الرحمة والرضوان.

مرحباً بكم معاشر خيار أصحاب محمد وعليّ وولديها ما كان أعظم

شوقي إليكم وما أشدّ سروري الآن بلقائكم يا رسول الله هذا ملك الموت قد حضرني ولا شكّ في جلالة في صدره لمكانك ومكان أخيك فيقول رسول الله ﷺ: كذلك هو، فأقبل رسول الله ﷺ على ملك الموت فيقول: يا ملك الموت إستوص بوصيّة الله في الإحسان إلى مولانا وخادمنا ومحبنا ومؤثرنا، فيقول له ملك الموت: يا رسول الله أمره أن ينظر إلى ما أعدّ الله له في الجنان، فيقول له رسول الله: أنظر، فينظر إلى العلو فيرى ما لا تحيط به الألباب ولا يأتي عليه العدد والحساب، فيقول ملك الموت: كيف لا أرفق بمن ذلك ثوابه وهذا محمد وعترته زواره يا رسول الله ، أن الله جعل الموت عقبة لا يصل إلى تلك الجنان إلاّ من قطعها لما تناولت روحه لكن لخادمك ومحبّك هذا أسوة بك وبسائر أنبياء الله ورسوله وأوليائه الذين ان يقولوا: الموت لحكم الله تعالى، ثمّ يقول: محمد يا ملك الموت هاك أخانا قد سلّمناه إليك فاستوص به خيراً، ثمّ يرتفع هو(النبيّ) ومن معه إلى روض الجنان وقد كشف من الغطاء والحجاب لعين ذلك المؤمن العليل، فيراهم المؤمن هناك بعدما كانوا حول فراشه فيقول المؤمن: يا ملك الموت الوحي الوحي تناول روحي ولا تلبثني ها هنا فلا صبر لي عن محمد وأعزّته وألقني بهم، فعند ذلك يناول ملك الموت روحه فيسلها كما يسلِ الشعرة من الدقيق، وإن كنتم ترون أنّه في شدّة فهو في رخاء ولذة فإذا دخل قبره وجد جماعتنا هناك.

وفي القبر إذا جاءه منكر ونكير قال أحدهما للآخر، هذا محمد وعلي والحسن والحسين وخيار صحابتهم بحضرة صاحبنا فلنتضع لهم (نتواضع لهم) فيأتيان فيسلّمان، ثمّ علمنا يا رسول الله زيارتك في خاصتك لخدمتك ومولاك، ولو أنّ الله يريد إظهار فضله لمن بهذه الحضرة من الملائكة ومن يسمعنا من ملائكته بعدهم لما سالناه ولكن أمر الله لا بدّ من امتثاله ثمّ يسألانه فيقولان: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ ومن إمامك؟ وما قبلتك؟ ومن شيعتك ومن إخوانك؟ فيقول: الله

ربّي ومحمد نبيّ وعليّ وصي محمد إمامي والكعبة قبلتي والمؤمنون الموالون لمحمد وعليّ وآلهما وأوليائهما المعادين لأعدائهما إخواني، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ أخاه علياًّ وليّ الله وأنّ من نصّبهم للإمامة من أطائب عترته وخيار ذريته خلفاء الأمّة، وولاة الحق والقوامون بالقسط فيقولان له: على هذا حُييت وعلى هذا مُت وعلى هذا تبعث إن شاء الله تعالى وتكون مع من تتولاه في دار كرامة الله ومستقرّ رحمته.

نفس الرواية تكفي لكن مع أناس تركوا ولو لفترة من حياتهم ولاية النبيّ والأئمة عليهم السلام سواء كانت في الاعتقاد أو في العمل: الإمام العسكري عليه السلام يقول نقلاً عن الرسول صلى الله عليه وآله : وإن كان لأوليائنا معادياً ولأعدائنا موالياًولأضدادنا بألقابنا ملقباً، فإذا جاءه ملك الموت لنزع روحه مثّل الله عزّ وجلّ بذلك الفاجر سادته الذين اتخذتهم أرباباً من دون الله عليهم مثل له من أنواع العذاب ما يكاد نظره إليهم يهلكه ولا يزال يصل إليه من حرّ عذابهم ما لا طاقة له به فيقول له ملك الموت يا أيّها الفاجر الكافر تركت أولياء الله إلى أعدائه فاليوم لا يغنون عنها شيئاً ولا تجد إلى مناص سبيلاً، فيردّ عليه من العذاب ما لو قُسم أدناه (أقلّه) على أهل الدنيا لأهلكهم ثمّ إذا أدلى في قبره رأى باباً في الجنّة مفتوحاً إلى قبره يرى منه خيراتها فيقول له منكر ونكير: أنظر إلى ما حرمت من تلك الخيرات ثمّ يفتح في قبره باب من النار يدخل عليه من عذابها فيقول: يا ربّ لا تُقم الساعة يا ربّ لا تُقم الساعة"[٢٠].

ننتقل إلى أصحاب الوسيلة الذين هم محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله، عن النبيّ صلى الله عليه وآله سألناه عن الوسيلة فقال: هي درجتي في الجنّة وهي ألف مرقاة (ألف درجة) ما بين المرقاة إلى المرقاة حضر الفرس (الجواد) شهراً وهي ما بين المرقاة يقول: وهي ألف مرقاة جوهرة إلى مرقاة زبرجد إلى مرقاة لؤلؤ إلى مرقاة ذهب إلى مرقاة فضّة، فيؤتى بها يوم

القيامة حتّى تنصب مع درجة النبيين فهي درجة نبينا محمد ﷺ في درجة النبيين كالقمر بين الكواكب فلا يبقى يومئذٍ نبيّ ولا شهيد ولا صديق إلاّ قال: طوبى لمن كانت هذه درجته فينادي المنادي ويسمع النداء جميع النبيين والصديقين والشهداء والمؤمنين هذه درجة محمد ﷺ فأُقبل يومئذٍ مئزراً بريطة من نور عليه تاج الملك وإكليل الكرامة، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام أمامي وبيده لوائي وهو لواء الحمد مكتوب عليه لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، المفلحون هم الفائزون بالله. فإذا مررنا بالنبيين قالوا: هذان ملكان لم نعرفهما لم نرهما، وإذا مررنا بالملائكة قالوا: هذان نبيّان مرسلان حتّى أعلو الدرجة وعليّ يتبعني فإذا صرت في أعلى الدرجة منها وعليّ أسفل منيّ بيده لوائي، فلا يبقى يومئذٍ نبيّ ولا مؤمن إلاّ رفعوا رؤوسهم إليّ يقولون: طوبى لهذين العبدين ما أكرمهما على الله فينادي المنادي ويسمع النبييون وجميع الخلائق، هذا حبيبي محمد وهذا وليّي عليّ بن أبي طالب طوبى لمن أحبّه وويلٌ لمن أبغضه وكذب عليه ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا عليّ فلن يبقى يومئذٍ في مشهد يوم القيامة أحد يحبّك إلاّ استروح إلى هذا الكلام وابيضّ وجهه وفرح قلبه، ولا يبقى أحد ممن عاداك ونصب لك حرباً أو جحد لك حقّاً إلاّ اسوّد وجهه واضطربت قدماه فبينما أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إليّ أمّا أحدهما فرضوان خازن الجنّة، وأمّا الآخر فمالك خازن النّار، فيدنو رضوان ويسلّم عليّ ويقول: السلام عليك يا رسول الله فأردّ عليه وأقول: أيّها الملك الطيّب الرّيح الحسن الوجه الكريم على ربّه من أنت؟ فيقول: أنا رضوان خازن الجنّة أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح الجنّة فخذها يا محمد فأقول: قد قبلت ذلك من ربّي فله الحمد على ما أنعم به عليّ أدفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب عليه السلام فيدفعها إلى عليّ ويرجع رضوان ، ثمّ يدنو مالك خازن النّار فيسلّم ويقول: السلام عليك يا رسول الله يا حبيب الله، فأقول: وعليك السلام أيّها الملك ما أنكر رؤيتك وأقبح وجهك من أنت؟

فيقول: أنا مالك خازن النّار أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح النّار فأقول: قد قبلت ذلك من ربّي فله الحمد على ما أنعم به عليّ وفضلّني به ادفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب عليه السلام فيدفعها إليه ثمّ يرجع مالك فيقبل إلى عليّ ومعه مفاتيح الجنّة ومقاليد النّار، حتّى يعقد على عجرة جهنّم ويأخذ زمامها بيده وقد علا زفيرها واشتدّ حرّها وكثر تطاير شررها فتنادي جهنّم: يا عليّ جزني قد أطفأ نورك لهبي فيقول عليّ لها: ذري هذا وليّي (اتركيه) وخذي هذا عدوّي، فلجهنمّ يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعليّ من غلام أحدكم لصاحبه فإن شاء يذهب به يمنة وإن شاء يذهب به يسرة ، ولجهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعليّ من جميع الخلائق وذلك أنّ عليّاً عليه السلام يومئذٍ قسيم الجنّة والنار.."(٢١)

الهوامش:

(١) - في الكافي الجزء الأوّل ص ١٠، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: "لمّا خلق الله العقل استنطقه ثمّ قال له: " أقبل فأقبل ثمّ قال له: أدبر فأدبر" والمخاطب هنا بخطاب أقبل هو الوليّ بينما المخاطب بخطاب أدبر بعد أقبل هو النبيّ، وذلك لأنّ الولاية باطن النبوّة والباطن أصل الشيء، لذلك كان الخطاب الأول للباطن الذي هو الولاية، وكان الإقبال إليه، وأمّا الإدبار بعد الإقبال هو من مختصّات النبوّة، وقد اعتبر صدر المتألهين في كتابه شرح أصول الكافي، "كتاب العقل والجهل"، ص ٢١٨، ومن أمعن النظر في هذا المقام وجد كلّ ما وصف به العقل الأول وحكي عنه كان من خواص روحه صلى الله عليه وآله وسلّم، فقوله: استنطق، أي جعله ذا نطق وكلام يليق بذلك المقام، وقوله: (ثمّ قال له أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر) هذا حال روحه صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قال له:"أقبل إلى الدنيا واهبط إلى الأرض رحمة للعالمين فأقبل، فكان نوره مع كلّ نبيّ باطناً ومع شخصه المنعوت ظاهراً، كما روي عنه (نحن الآخرون والسابقون) يعني الآخرون بالخروج والظهور كالثمرة، والأولون بالخلق والوجود كالبذر، فهو بذر شجر العالم. (ثمّ قال له: أدبر) أي ارجع إلى ربّك، فأدبر عن الدنيا ورجع إلى ربّه ليلة المعراج. وعند المفارقة عن الدنيا ...).

(٢) - إن الولاية وإن كانت في الحقيقة أعظم من النبوة والنبوة أعظم من

الرسالة إلا أن الولي المتبع لنبيه ليس أعظم منه، وكذلك النبي ليس أعظم من الرسول، لأن النبي كما أنه له مرتبة النبوة كذلك له مرتبة الولاية، وكذلك الرسول له مرتبتان بعد الولايه .

وعندما يقال: إن الولاية أعظم من النبوة فذلك يعني أن الولاية الموجودة في الشخص المعين أفضل من نبوته ، ورسول الله كان ولياً ونبياً ورسولاً، وولايته أعظم من نبوته ونبوته أعظم من رسالته. وعندما يقال: إن الولي أفضل من النبي والنبي أفضل من الرسول فإن ذلك يتحقق في شخص واحد.

(٣) - إن الرسول والنبي هو الولي أيضاً لأن الولاية باطن النبوة فالنبي هو الولي ، ثم إن النبي قد يتكلم بكلام خارج عن التشريع فهو من حيث هو ولي لا من حيث هو نبي، كقوله ﷺ: "لو أدليتم بجبلٍ لهبط على الله" ونحوه، ثم إنه بما هو ولي أتم وأكمل بما هو نبي، لأن ولايته جهته إلى الحق تعالى واشتغاله بالحق ونبوته جهته إلى الخلق وتوجهه إليهم، فالولاية في حقيقة الرسول ﷺ أشرف لكونها أبدية بخلاف النبوة فإنها منقطعة، فلو قال أحدهم: إن الولاية أفضل من النبوة فإنه يعني بذلك في شخص واحد وهو أن النبي من حيث هو ولي أفضل منه من حيث هو نبي ، والأئمة عليهم السلام أولياء تابعون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن فضلهم من فضله صلوات الله عليهم أجمعين. فإنه فيه الرسالة والولاية بالأصالة وفيهم عليهم السلام بالتبع أي المنتقلة منه ﷺ إليهم عليهم السلام.

(٤) - إنّ أمير المؤمنين مرتبته أعظم من جميع الأنبياء والأولياء بعد نبينا محمد وذلك من حيث الولاية، وإلا فإن مرتبة النبوة والرسالة أعظم من أن يكون فوقها مرتبة. فالوليّ دائماً محتاج إلى النبيّ والرسول في الأحكام الإلهية كقول أمير المؤمنين عليه السلام: "تعلّمت من رسول الله ألف باب من العلم، ففتح لي في كلّ باب ألف باب". من هنا تكون الولاية الحاصلة لأمير المؤمنين بالوراثة والخلافة من الله ورسوله. وقد أشار ابن عربي في "الفص الشيتي" وقال: " إنّ الوليّ وإن كان أعلى بوجه فهو يكون أنزل بوجه آخر، ولا يكون أعلى من النبيّ أصلاً وإن كان جميع الأنبياء والأولياء ما يأخذون الفيض إلاّ منه".

(٥) - للشيخ الطبرسي، الاحتجاج، دار النعمان، ج١، ص ٢١٣.

(٦) - بحر العلوم، السيد محمد، بلغة الفقيه، مكتبة الصادق، طهران، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ، ج١، ص ٢٢٩.

(٧) - عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل. وكان رسولاً نبياً، ما الرسول وما النبي؟ قال: النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا

يعاين الملك والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام الملك. قلت: الإمام ما منزلته؟ قال: " يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك، ثم تلا هذه الآية **﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍ ولا محدث﴾**.

وقال صدر المتألهين في شرح أصول الكافي.ص ٤٤٠-٤٤١: إن الإنسان الكامل ذو أجزاء ثلاثة : طبيعة ونفس وعقل ويقال: الروح أيضاً، وكل منهما من عالم آخر ولكل منهما كمال ونقص وقل من الإنسان ما يكون كاملاً في الجميع. فكمال الروح وهو العقل النظري بالعلم بالحقائق والأمور الإلهية. كمال النفس وهي القوة الخيالية باستثبات الصور الجزئيّة.

وكمال الطبيعة هو التصرّف في المواد بالإحاطة والقلب والتحريك والنبي هو الشخص الكامل في الجزء النظري من جهة الإلهام من الله تعالى. فإذا حصلت له الرسالة أيضاً فقد كمل في القوة النفسانيّة أيضاً، وإذ كان صاحب شريعة حزم فقد صار جامعاً للكمالات كلها فكأنه رب إنسان تجب طاعته بعد طاعة الله.

(٨) - تارة يكون النبي قد أوحى إليه وتارة يلهم إلهاماً وكذلك الولي في بعض الحالات يوحى إليه وفي حالات أخرى يلهم إلهاماً إلا أن الوحي الخاص يختص فقط بالنبي، وقد اعتبر حيدر الآملي في بيانه "الوحي والإلهام والكشف" أن الوحي تارة يكون خاصاً وأخرى عاماً".

- الوحي الخاص: وهو مخصوص بالأنبياء والرسل، وهو يكون بواسطة الملك أو بغير واسطة. وما يكون بواسطة الملك خاصاً بالرسل وأولي العزم، وما يكون بغير واسطة الملك هو خاص بالأنبياء. وقد عبّر عن الأول بالوحي الجلي وعن الثاني بالوحي الخفي.

- الوحي العام: هو مشترك بين الحيوانات والجمادات والإنسان والشياطين، وكذلك بين جميع الموجودات، لقوله تعالى: **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾** (النحل، آية ٧)، وقوله تعالى: **﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾** **﴿وجعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم لبعض﴾** (القصص، آية ٦)، وأما الإلهام أيضاً تارة يكون خاصاً وتارة أخرى يكون عاماً.

- الإلهام الخاص: وهو مخصوص بالأولياء والأوصياء، ويكون بواسطة وبغير واسطة. الذي يكون بواسطة يتم بصوت خارج عن الشخص ويسمعه ويفهم منه المقصود كالرؤيا وغيرها من أول حالات الأنبياء، والبعض يعتبره من أقسام الوحي الخفي. والذي يكون بغير واسطة يتم بقذف المعاني والحقائق في قلوب الأولياء من عالم الغيب.

- الإلهام العام: وهو يكون بتوبة النفس وتجليتها وتهذيبها بالأخلاق المرضية والأوصاف الحميدة، موافقاً للشرع ومطابقاً للدين، لقوله تعالى: **﴿ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها﴾** (راجع: جامع الأسرار ومنبع الأنوار بتصرّف).

(٩) - راجع: النقوي، السيد حامد، خلاصة عبقات الأنوار، مطبعة سيد الشهداء، قم، ج١، ص ١٢.

(١٠) - راجع: الكافي للشيخ الكليني، ج١، ص ١٧٦.

(١١) - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، ج١٣، ص١٩٧.

(١٢) - وهو تلميذ صدر الدين الشيرازي وكان من المحدثين والإخباريين الكبار وكان فيلسوفاً وعرفانياً وإخبارياً وقد اعتبر ما مفاده أن كل إمام محدّث وقد أتى بروايات بهذا الشأن.

(١٣) - العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص ٣٢٧.

(١٤) - مصحف فاطمة عليها السلام تكرر ذكره في أخبار أهل البيت عليهم السلام، فعن الإرشاد والاحتجاج في حديث: كان الصادق يقول: وإن عندنا الجفر الأحمر والجفر الأبيض ومصحف فاطمة.... الحديث، ويظهر منهم عليهم السلام أن مصحف أمهم فاطمة عليها السلام كان أحد منابع علومهم، وليس فيه من القرآن من شيء، وكأن المراد به دفع توهم أنه نسخة من نسخ القرآن أو أنّ فيه علوماً مختصة بأهل البيت عليهم السلام تعد من الأسرار، ليس منه في ظاهر القرآن شيء ولم يذكره القرآن لمصالح يعلمها الله.

❖ وفي الكافي: بسنده عن أبي بصير في حديث ساقه إلى أن نقله عن أبي عبد الله عليه السلام كلامه هذا: وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام قال: وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام ، قال: قلت: وما مصحف فاطمة؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد، قال: قلت: هذا والله العلم قال: إنه لعلم وما هو بذاك ثم سكت ساعة ثم قال: قلت جعلت فداك هذا والله هو العلم، قال: إنه لعلم وما هو بذاك، قال: قلت: جعلت فداك فأي شيء العلم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار، الأمر بعد الأمر والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة.

- وفي الكافي الشريف بسنده عن حماد بن عثمان في حديث عن الصادق ما يدلّ على أنّ مصحف فاطمة عليها السلام كان من تحديث الملك لفاطمة وأمير المؤمنين عليه السلام وقد كتبه أمير المؤمنين عن تحديث الملك، ويدل الحديث بآخره على ليس في ذلك المصحف شيء من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون، ثم لا عجب فيما

يذكره الحديث من حديث الملك لفاطمة وعلي عليهما السلام فإنهما وأولادهما المعصومين الأحد عشر محدثون مكلمون، وقد دلت على ذلك روايات كثيرة متظافرة.

(١٥) - سورة البقرة، آية ١٢٤.

(١٦) - سورة الأنبياء، آية ٧٣.

(١٧) - م.س.

(١٨) - إن أشرف الموجودات صاعدة إليه تعالى وعلى قاعدة الإمكان الأخس كالنوع ما لم يستوف كمالات النوع الأخس منه لم يتخط إلى مقام النوع الأشرف، وهكذا إلى أن ينتهي إلى نوع لا أشرف في الأنواع منه، وهكذا في أفراد ذلك النوع الأشرف حتى ينتهي إلى فرد أشرف لا أشرف فوقه سوى الواجب الوجود تعالى شأنه، وثبت أنه صلى الله عليه وآله خاتم كل كمال إنساني وإن كل كمال وجمال وجلال فيما دونه، وخزانته عندها صلى الله عليه وآله وسلم وكأنه قد جعل هذه الخزائن في مخزنه وغلق بابه وضرب عليه خاتمه فهو صلى الله عليه وآله الخاتم وختم الكمالات قاطبة، وأن كل ما بعده أظليته لكليته. فإن كل ما كان غاية يكون بداية والغاية متأخرة عيناً مقدمة علماً وأول الفكر آخر العمل وإليه أشار عليه السلام :"نحن الآخرون السابقون".

(١٩) - م.س.

(٢٠) - الحلي، حسين بن سليمان، المحتضر، منشورات المطبعة الحيدرية، الطبعة الأولى، ١٩١٥م، ص ٢٢.

(٢١) - المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ج٧، ص٦٤٤،٦٤٥.

الدرس السابع عشر

الولاية بين النبي والولي

بسم الله الرحمن الرحيم

حتى هنا كان الكلام حول أنّ صاحب الولاية المطلقة هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام وصاحب الولاية الخاتمة فيها هو قائم آل محمد(عج) . ولابد في ختام هذا البحث من الإشارة إلى نقطتين:

❖ النقطة الأولى: لا بدّ من التمييز كما يشير صاحب هذه الرسالة الى أنّ الولاية يمكن أن تلحظ في كونها ولاية مطلقة على نحوين: الولاية المطلقة بمعنى أنها الولاية التي اختتمت فيها ولاية الانبياء قبل نبينا محمدصلى الله عليه وآله. وقد مر الكلام أنّ النبوّة مطلقة ومقيّدة. وبما أن هناك خصوصيّة يحملها النبيّ عيسىعليه السلام في ولايته هي أنّه آخر نبيّ قبل رسول الله، فإنّ نبوّته المقيّدة تظهر بعد نبوّة النبيّ محمدصلى الله عليه وآله، وهذا الظهور لا يكون بعنوان أنّه نبيّ، بل ليدعم رسالة النبيّ محمدصلى الله عليه وآله وليدعم ولاية قائم آل بيت محمد(عج) و يصلّي خلفه في بيت المقدس.

أما بالنسبة للولاية المطلقة عند الأنبياء الذين عبّر عن نبوّتهم بأنها مقيّدة، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام له مطلق الولاية، بمعنى أنّ ولاية كلّ ولي هي جزء من ولاية أمير المؤمنين، سواء كان هذا الولي نبيّاً أو غير نبيّ، وولاية كل ولي تابعة لولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

وهنا يطرح السؤال نفسه: أين ولاية النبيّ محمدصلى الله عليه وآله؟

إنّ ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام هي عنوان موحد وواحد لولاية النبي محمدصلى الله عليه وآله لقوله: "أنا وعليّ من نور واحد"[1] وقد مر سابقاً

أنّ النبوّة الخاتمة هي للنبيﷺ، وهذه النبوّة الخاتمة هي الكمال لنبوّة كلّ الأنبياء، وكما يكمن في النبوّة الخاتمة لنبيّنا محمدﷺحكمة الله التي لم تكن لتبلغ مداها لولا نبوّة النبي محمدﷺ، لأنّ كلّ المطلوب من كلّ نبيّ تحقق عند نبوّة النبي محمدﷺ وهذه هي الخاتمية بالنسبة للنبي.
وقد مرّ الكلام عن ولاية مطلقة وعن ولاية خاتمة، و قيل أنّ الولي المطلق هو علي ابن أبي طالبعليه السلام والولي الخاتم قائم آل محمد هو المهدي المنتظر(عج).. من هنا تكون ولاية الإمام المهدي هي كمال ولاية قائم آل محمد (عج) .

ورد في عدد من الروايات ما مفاده: "أنّ الملائكة حينما كانوا ينظرون إلى العرش كانوا يرون أنواراً، وفي وسط الأنوار نور ساطع[٢] وحينما يسألون عن الأنوار، التسمية إبتدأت بنبيّنا محمدﷺ ثمّ أمير المؤمنينعليه السلام ثمّ السيّدة الزهراءعليها السلام ثمّ الحسنعليه السلام ...إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام أجمعين، وأنّ هذه الأنوار كانت تشكّل الدائرة والنورالساطع في الوسط ، وحينما سئل عنه كانت الإجابة بأنه نور الحجّة ابن الحسن(عج)، وكأنّ النقطة حينما تكون في الدائرة تصبح مورد التقاء جميع النقاط الأخرى فيها. من هنا أنّ ما يضبط كل الدائرة هو هذا المحور [٣] وتصبح ولاية آل قائم محمد هي المحور لولاية كل وليّ[٤].

هل يمكن القول: إنّ كمال الدين وتمام النعمة قد تمّ بنبوّة محمدﷺ؟

إنّ القرآن الكريم يقول: ﴿**اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[٥] هذه الأدوار الثلاث:

❖ كمال الدين.
❖ تمام النعمة.
❖ الرضا بالإسلام.

يشعر الإنسان بأنّ السيادة والقيوميّة المطلقة هي للإسلام فهل تحقق

هذا الأمر مع نبوّة النبي محمدﷺ؟ من الواضح أنّه لم تحصل الحاكميّة المطلقة عل الناس بنبوة النبيﷺ ومن الواضح أنّ الكثير من الأحكام الدينيّة والمعارف الحقيقية، لم تبيّن في حياة النبيّ وبعده ﷺ، وكذلك في حياة أمير المؤمنينعليه السلام وفي حياة كلّ إمام إمام. لذلك فإنّ كمال الدين لم يتمّ بعد، لأنّ الدين ليس مجموعة من النظريّات، وإنمّا هو عبارة عن الشريعة التي تنزل إلى الناس، والمعارف التي تملأ عقولهم وقلوبهم، وبما أنّ الشّريعة لم تطبّق بحذافيرها والمعارف الإلهيّة لم تحصل بكمالاتها في عقول ونفوس النّاس، فإن كمال الدين لم يتم وتمام النعمة لم تحصل والرضا لم يتحقّق.

وقد ورد في الروايات أنّ عصر الإمام المهدي(عج) يكون فيه مستوى من الاجتهاد الفقهي بحيث إنّه حتى المرأة في خدرها تصبح مجتهدة، ولها الرأي الذي يمكن أن تدلي به. وفي بعض المرويّات، ورد أنّ العلم قد قسّم إلى ثمانية وعشرين حرفاً، وأنّ هناك حرفين منها وزّعا على العالم، وبقيّة أحرف هذا العلم تنتشر مع خروج الحجّة ابن الحسن (عج)، وأنّ الإمام الحجة يحكم بما بين الناس بالدقّة بما أنزله الله وعلى حسب الأمر الواقع.

إن كلّ هذه المؤشرات تشير إلى نضج علمي خاص وخارق جداً و نضج روحي وعبادي، بحيث يكون في ذلك الوقت اتصال بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بشكل يمكن للبشر التواصل مع عالم الملائكة. كما يصبح هناك نضج في تحقيق العدالة والقسط في الدنيا.

بما أنّ هذا الأمر لا يتّم إلاّ على عهد وعاتق قائم آل محمد(عج) فإنّ كمال الدين وتمام النعمة والرضا بالإسلام هو عند الوليّ الخاتم الإمام المهدي(عج) .

❖ النقطة الثانية: إنّ كلّ هذا المبحث قائم على حقيقة الولاية المحمديّة أي على ولاية محمد وآل محمد عليهم السلام .

رد إشكال:

البعض يعتبر أنّ أهل الخلاص في الآخرة هم أتباع محمد وآله، وغيرهم له مشكلة فعليّة يواجهونها. هذا النوع من الكلام يثير في أذهان الناس سؤالين:

الأول: إذا كان هناك من يقوم بالخيرات والصالحات وغيرها من الأعمال لكنه ليس شيعياً فهل هذا يعني أنّه لن يقدر على أن ينال الخلاص في الآخرة؟

الثاني: إذا كان هناك مسلماً شيعيّاً لكنه يرتكب الموبقات والرذائل، فهل ينجو وينال الخلاص لمجرّد أنه شيعي أم لا؟

السؤال الأول يحتاج إلى بحث لا يسع هذا المقام الإجابة عنه، وإنما الاجابة تكون على الموضوع الثاني، وقد مر أنّ الولاية هي قيادة لشؤون الحياة وقيادة للروح، والولي هو صاحب ولاية على الأوامر التي يطرحها في الحياة الدنيا (إعمل أترك)، وكذلك الرتب المعنويّة للانسان تجعل له ولاية على قلوب الناس ونفوسهم وأرواحهم .

للولي عموماً مثل هذه الوصاية والولاية والقدرة على الهداية، وشرط الهداية وجود وليّ، لذلك لا يمكن للناس أن يهتدوا في عصر الغيبة إلا مع وجود قائم آل محمد(عج) حتى ولو كان غائباً عن الأنظار، وبهذا الصدد ستُذكر روايات يعرف من خلالها موقف الإمام من الوليّ المخطئ.

في رواية يذكرها صاحب الكتاب يقول في باب خلقة النبي والأئمة الطاهرين قبل خلق السماوات والأرض، عن محمد بن سنان قال: "كنت عند أبي جعفر الثاني، أجريت اختلاف الشيعة (أي تكلمت بموضوع اختلاف الشيعة)"، فقال يا محمد: "إنّ الله لم يزل متفرداً بوحدانيّته ثمّ خلق محمداً وعليّاً وفاطمة فمكثوا ألف عام[٦]، ومن ثمّ خلق جميع الأشياء" فأشهدهم خلقه[٧]، وأجرى طاعتهم عليها[٨]، وفوّض أمورهم إليهم[٩] فهم يحلون ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون، ولم يشاؤوا إلاّ أن

يشاء الله تبارك وتعالى"[١٠].

من هنا فإنّ التفويض إليهم هو فعل الله ومشيئتهم هي مشيئة الله وليس لهم مشيئة غير مشيئة الله، وهم ليسوا بإله جديد والعياذ بالله. ثمّ قال: "يا محمد، هذه الديانة التي من تقدّمها مرق ومن تخلف عنها مُحِق ومن لزمها ألحق بالحق، خذها إليك يا محمد"[١١].

علاقة الموالي بوليّه:

قد ورد في كتاب الأربعون حديثاً للإمام الخميني (قدس سرّه) في الحديث الثالث والثلاثون هذا الإشكال: هل الشيعي الموالي المخطئ[١٢] يدخل الجنّة؟ ذكر قدس سرّه هذه الرواية "ويل لمن كان شفيعه خصمه". قلت لأبي عبد الله عليه السلام: حديث روي لنا أنك قلت: "إذا عرفت، فاعمل ما شئت"،(ما معنى إذا عرفت؟ أي أنك إذا عرفت حقّ الله، حقّ النبيّ، حقّ الأئمة فاعمل ما شئت). فقال: قد قلت ذلك، قال :"قلت: وإن زنوا وإن سرقوا وإن شربوا الخمر"، فقال لي :" إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما أنصفونا أن نكون قد أخذنا بالعمل ووضع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره فإنه يقبل منك"[١٣]. إن هناك بعض الناس يقومون بقليل الخير وكثيره ولا يقبل منهم.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه يؤتى يوم القيامة، يوم السفر الطويل وقد جاءت لحظة الموت التي تحتضن كلّ عناصر الندامة.

في حديث عن أميرالمؤمنين وسيد الموحدين عليه السلام في نهج البلاغة عن كيفيّة دخول الموت في جسم ابن آدم وكيف يمرّ سجلّ الأحداث عنده، كل لحظة تمرّ، المال الحرام والفعل الحرام، ويتمنى لو يعود ليتقرّب الى الله ولكنه لم يعد قادراً أن يعيد أموال الناس لأصحابها، ويأتي نداء خذوه فغلوه، وعندها يشتدّ النّدم، فإنّ عشرة من زبانية الجحيم ينهرونه وهو يصرخ بمن يحمله: لا تأخذوني إلى قبري على هذه الحالة، ثمّ يصل إلى القبر وينزل وهو يصرخ صرخة يسمعها من في

السـمـاوات والأرض، يدفن ويتـرك وحـده ويرى من الدود وهوام الأرض تأكل من لحـمـه وهو يعـاني قـرينـه في قـبـره الذي هو ألدّ أعـدائه، قـرينه الذي هو شيطانه، ويحـرق بالسؤال إلى يوم القيـامـة إلى يوم الحسـاب من حرارة الموقف.

وقد ورد في الروايات أن البعض يكاد أن يغرق بعرقه، وبرّزت الجـحيم لولا أنّ الله قـضى أن لا يموت ابن آدم إلاّ مـرّة واحـدة لأخـذته نـار جـهنّم فقتلته في تلك اللحظة. في هذا الموقف وعندمـا يحضـر عـرش ربك، كل الناس تطأطئ رؤوسها سـجّداً وهم يبكون ويدعون الله، فينشـر الكتـاب، والموازين القسط... . هنا يؤتى يوم القيامة أناس وأعمالهم كجبـال تهامة فيأتي الأمـر أن خذوه ويُلقى به في النار، قيل: ولِمَ يا رسول الله؟ فيقول صلوات الله عليـه وآله: لأنه كـان في قلبـه حبّ الدنيـا ليس على أسـاس العلاقـة مع الله والولاية لله ورسوله وللأئمة الأطهارعليهم السـلام، من هنا نجد أنّ هناك من لا يقبل منهم العمل. وعندما يرد عن المعصوم أنه يقـول: إنّ الـشـيـعـة يدخلون الجنّة بدون أعـمـال، ومـرّة أخـرى أنّهم لا يدخلونها إلاّ بالأعمال يلاحظ أنّ الأمرين متضاربين؟

إيضاح:

عن أبي جعفرعليه السلام أنه قال لخيثمة: "أبلغ شيعتنا أننا لا نغني من الله شيئاً، وأبلغ شيعتنا أنه لا ينال ما عند الله إلاّ بالعمل، وأبلغ شيعتنا أنّ أعظم الناس حسـرة يوم القيـامـة من وصف عـدلاً ثم خالفـه إلى غيـره أي قال كلمـة الحقّ ولم يعمل بهـا، وأبلغ شيعتنا أنهم إذا قامـوا بما أمروا أنهم هم الفائزون يوم القيامة"(١٤).

وفي رواية قال طاووس الفقيه عن الإمام زين العابدينعليه السلام: "ويتـعبّـد فلمّـا لم ير أحـداً رمى بطرفـه وقـالعليه السلام: "إلهي غـارت نجـوم سـمـاواتك وهجـعت عـيـون أنامك وأبوابك مـفـتحـات للسـائلين، جـئـتك لتـغـفـر لي

ولترحمني وتريني وجه جدّي محمدﷺ في عرصات القيامة. ثم بكى وقال: "وعزّتك وجلالك ما بك شاك ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرّض ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرضي به علي فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنيّ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين: جوزوا وللمثقلين حطّوا، أمع المخفّين أجوز أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربّي، ثمّ بكى وأنشأ يقول: أتحرقني بالنار يا غاية المنى، فأين رجائي ثمّ أين محبتّي؟ أتيت بأعمال قباح زرية وما في الورى خلق جنى كجنايتي" ثمّ بكى وقال: "سبحانك تُعصى كأنك لا تُرى، وتحلم كأنك لم تُعص، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت يا سيّدي الغني عنهم "ثمّ خرّ إلى الأرض ساجداً، فدنوت منه ورفعت رأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خدّه، فاستوى جالساً وقال: "من الذي شغلني عن ذكر ربّي، فقلت:" أنا طاووس يا ابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون أبوك الحسين بن عليّ وأمك فاطمة الزهراء وجدّك رسول اللهﷺ، قال:" فالتفت إليّ وقال:" هيهات هيهات يا طاووس دع عنّي حديث أبي وأمّي وجدّي خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيّاً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون**﴾ والله لا ينفعك غداً إلاّ تقدمة تقدّمها من عمل صالح﴾[١٥].

إذن هذا في القسم المتعلّق بضرورة تقدمة الأعمال، الرواية الأولى في الكافي بإسناده عن أبي جعفرعليه السلام قال: "ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته الا لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف

ولاية وليّ الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حقّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان"[١٦].

الرواية الأخرى تقول: "والله لو أنّ إبليس لعنة الله عليه سجد لله بعد المعصية والتكبّر عمر الدنيا ما نفعه ذلك وقبله الله ما لم يسجد لآدم كما أمره الله عز وجل أن يسجد له"[١٧].

وقد ورد في الحديث القدسي الذي ينقل عن لسان السيّدة الزهراء عليها السلام "إنّ الباري عزّ وجلّ يقول: عبدي أريد أن أُعبد من حيث أُريد لا من حيث تريد"، إذاً لو أنّ إبليس سجد عمر الدنيا ما نفعه ذلك وما قبله الله تعالى ما لم يسجد لآدم كما أمره الله، وكذلك الأمة العاصية المفتونة بعد تركهم الإمام الذي نصّبه نبيّهم لهم فلا يقبل الله لهم عملاً ولن يرفع لهم حسنة، حتّى يؤتوا الله من حيث أمرهم ويتولوا الإمام الذي منحه الله ورسوله لهم.

إلى هنا اتضّح أنّ شرط النّجاة من الصّعاب وشرط قبول العمل، والشفاعة في المعصية هو الولاية لمحمد وآل محمد عليهم السلام. ويكفي النظر في هذا المشهد الوارد في الروايات، من أنّ النبيّ ﷺ هو الذي يحمل الحبل الذي على عنق الفرس الذي تمتطيه السيّدة الزهراءعليها السلام وتمشي بها والسيّدة الطاهرة تتوقف ولا تقبل الدّخول الى الجنّة قبل أن ترى الإمام الحسين عليه السلام على أي حالة استشهد، لأنها غادرت الدنيا وقلبها ملهب على ما سيجري على الإمام الحسينعليه السلام، وقد كان في حياتها يُقبّل الرسول الحسينعليه السلام في عنقه والسبب هو موطئ الخيل والذبح، وأنّ أمير المؤمنين يبكي الحسينعليه السلام كما كانت تحادث السيدة زينب عليها السلام أن انتبهي، ينبغي أن توصيه وتقبّليه وتقولي له هذه وديعة أمنّا فاطمة لك، كل هذا الأمر في الحياة الدنيا وهي تفكر بالإمام الحسين، وأما في الآخرة فترفض أن تمشي طالبة أن ترى الإمام الحسينعليه السلام كيف كان حاله قبل أن يخرج من الحياة الدنيا، يقول لها

النبيّ: دعي عنك هذا الأمر يا فاطمة وهي مصرّة فيقول لها: انظري عن يمينك يا فاطمة، تقول الرواية أنه حينما تلتفت الزهراء عن يمينها وترى كيف أنّ جسد الحسين مقطّع إرباً، وأنّ رأسه عليه السلام مرفوع على الرمح، فتصرخ صرخة من عمق أعماقها واحسرتاه عليك يا ولدي يا حسين...، في هذا الموقف تقول الروايات: إنّ السيدة الزهراء تبكي وتبكي معها الملائكة وتبكي الناس حتى ينادي منادٍ من بطن العرش أن يا محمد قل لفاطمة الزهراء أنّي أدخل ببركة شفاعتها وبدمع كل من بكى على الإمام الحسين إلى الجنّة دون حساب، فالولاية للزهراء عليها السلام بهذا المستوى فكيف بولاية نبيّنا محمدﷺ صاحب المقام المحمود، "ولسوف يعطيك ربك فترضى" ليقدّم مثل هذه الهديّة لمن والى السيدة الزهراء والإمام الحجّة(عج) فكيف سيكون الحال في ذاك الموقف، إن هذه الولاية مشروطة أن تكون في القلوب وتبرز في الأعمال، وينبغي أن يكون البكاء الفعلي هو بسبب الخوف من اللحظة التي تتزلزل فيها الولاية للأئمة الأطهار ولنبيّنا محمدﷺ، والفرصة الحقيقية تكون في الثّبات على ولايتهم عليهم السلام. وقد اختصر الامام قدس سرّه بقوله: «إنّ الإيمان لا يحصل إلاّ بواسطة ولاية عليّ عليه السلام وأوصيائه من المعصومين الطاهرين عليهم السلام، بل لا يقبل الإيمان بالله ورسوله من دون الولاية».

والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش:

(١) - م.س.

(٢) - إنّ بقاء ما في هذا العالم من الشمس والقمر وغيرهما إنمّا سببه وجود القائم فلا جرم تكون إضاءتهما وإشراق نورهما من آثار نوره في غيبته وحضوره.، إشراق نوره هو قسمان: إشراق باطني وإشراق ظاهري.

أمّا الأول:" فإشراقه في قلوب المؤمنين فإنهم يرون إمامهم عليه السلام بحقائق الإيمان كما يشاهدونه بالعيان معهم نصب أعينهم في كلّ زمان ومكان .

بنيت بقلبي منزلاً لجانبكم أقمت بها مذ كنت في غاية الحبّ

أماوالذي لوشاءماخلق النوى لئن غبت عن عيني فما غبت عن قلبي

يوهمينك الشوق حتى كأنما أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

ومنها ما رواه الشيخ الصدوق في كمال الدين عن جابر الأنصاري في حديث: نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على الأئمة الإثني عشر إلى أن قال صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :"ثمّ سميي وكنيتي حجّة الله في أرضه وبقيّته في عباده، ابن الحسن بن عليّ ذاك الذي يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان". قال جابر : فقلت له : يا رسول الله فهل يقع لشيعته الإنتفاع في غيبته؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه: إي والذي بعثني بالنبوّة إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته، كإنتفاع الناس بالشمس وإن تجلّلها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علم الله فاكتمه إلاّ عن أهله.....الخبر. وأما الثاني: فإشراق نوره لبعض الأخيار وقد ورد :" قال محمد بن أحمد بن حيدر الحسني الحسيني لما كنت مجاوراً في النجف الأشرف لأجل تحصيل العلوم الدينية وذلك في حدود السنة الخامسة والسبعين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية كنت أسمع جماعة أهل العلم، وغيرهم من أهل الديانة، يصفون رجلاً يبيع البقل وشبهه، إنه رأى مولانا الامام المنتظر سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين فطلبت معرفة شخصه حتى عرفته فوجدته رجلاً صالحاً متديناً ، وكنت أحب الاجتماع معه في مكان خال، لاستفهم منه كيفية رؤيته مولانا الحجة روحي فداه.

فصرت كثيراً ما أسلّم عليه، وأشتري منه، مما يتعاطى بيعه حتى صار بيني وبينه نوع مودة، كل ذلك مقدمة لتعرّف خبره المرغوب في سماعه عندي، حتى اتفق لي أني توجهت إلى مسجد السهلة للاستجارة فيه، والصلاة والدعاء في

مقاماته الشريفة ليلة الأربعاء، فلما وصلت إلى باب المسجد، رأيت الرجل المذكور على الباب، فاغتنمت الفرصة، وكلفته المقام معي تلك الليلة، فأقام معي حتى فرغنا من العمل الموظف في مسجد السهلة، وتوجهنا إلى المسجد الاعظم مسجد الكوفة على القاعدة المتعارفة في ذلك الزمان حيث لم يكن في مسجد السهلة معظم الإضافات الجديدة من الخدام والمساكن.

فلما وصلنا إلى المسجد الشريف واستقر بنا المقام وعملنا بعض الأعمال الموظفة فيه سألته عن خبره والتمست منه أن يحدثني بالقصة تفصيلاً فقال ما معناه: إني كنت كثيرا ما أسمع من أهل المعرفة والديانة إن من لازم عمل الاستجارة في مسجد السهلة أربعين ليلة أربعاء متوالية بنيّة رؤية الإمام المنتظر وفق لرؤيته، إن ذلك قد جرب مراراً فاشتاقت نفسي إلى ذلك، ونويت ملازمة عمل الاستجارة في كل ليلة اربعاء، ولم يمنعني من ذلك شدة حر، ولا برد، ولا مطر، ولا غير ذلك حتى مضى لي ما يقرب من مدة سنة وأنا ملازم لعمل الاستجارة، وأبات في مسجد الكوفة على القاعدة المتعارفة.

ثم إني خرجت عشية يوم الثلاثاء ماشياً على عادتي، وكان الزمان شتاء، وكانت تلك العشية مظلمة جداً لتراكم الغيوم مع قليل المطر، فتوجهت إلى المسجد وأنا مطمئن بمجيء الناس على العادة المستمرة، حتى وصلت إلى المسجد وقد غربت الشمس، واشتد الظلام وكثر الرعد والبرق فاشتدّ بي الخوف وأخذني الرّعب من الوحدة لأني لم أصادف في المسجد الشريف أحداً أصلاً حتىّ أن الخادم المقرر للمجيء ليلة الأربعاء لم يجئ تلك الليلة، فاستوحشت لذلك للغاية ثم قلت في نفسي ينبغي أن أصلي المغرب، وأعمل عمل الاستجارة عجالة وأمضي إلى مسجد الكوفة.

فصبرت نفسي، وقمت إلى صلوات المغرب، فصليتها ثم توجهت لعمل الاستجارة وصلاتها ودعائها، وكنت أحفظه، فبينما أنا في صلوات الاستجارة، إذ حانت مني التفاتة إلى المقام الشريف المعروف بمقام صاحب الزمان وهو في قبله مكان مصلاي فرأيت فيه ضياء كاملاً، وسمعت فيه قراءة مصل فطابت نفسي و حصل كمال الأمن والاطمئنان وظننت أن في المقام الشريف بعض الزوار وأنا لم اطلع عليهم وقت قدومي إلى المسجد فأكملت عمل الاستجارة وأنا مطمئن القلب.

ثم توجهت نحو المقام الشريف ودخلته، فرأيت فيه ضياء عظيماً، لكني لم أر بعيني سراجاً ولكني في غفلة عن التفكر في ذلك، ورأيت فيه سيداً جليلاً مهاباً بصورة أهل العلم، وهو قائم يصلي، فارتاحت نفسي إليه، وأنا أظن أنه من الزّوار الغرباء، لأني تأمّلته في الجملة فعلمت أنه من سكنة النجف الأشرف.

فشرعت في زيارة مولانا الحجة سلام الله عليه عملاً بوظيفة المقام، وصليت صلوات الزيارة فلما فرغت أردت أن أكلمه في المضي إلى مسجد الكوفة، فهبته وأكبرته، وأنا أنظر إلى خارج المقام فأرى شدّة الظلام، وأسمع صوت الرّعد والمطر فالتفت الي بوجهه الكريم برأفة وابتسام، وقال لي تحب أن تمضي إلى مسجد الكوفة، فقلت: نعم يا سيدنا، عادتنا أهل النجف إذا تشرفنا بعمل هذا المسجد نمضي إلى مسجد الكوفة ونبيت فيه لأن فيه سكاناً وخداماً وماء.

فقام وقال: قم بنا نمضي إلى مسجد الكوفة فخرجت معه وأنا مسرور به وبحسن صحبته فمشينا في ضياء وحسن هواء وأرض يابسة لا تعلق بالرِّجل، وأنا غافل عن حال المطر والظلام الذي كنت أراه حتى وصلنا إلى باب المسجد، وهو روحي فداه معي وانا في غاية السرور والأمن بصحبته ولم أر ظلاماً ولا مطراً.

فطرقت باب الخارجة عن المسجد وكانت مغلقة فأجابني الخادم: من الطارق فقلت: افتح الباب فقال: من أين أقبلت في هذه الظلمة والمطر الشديد؟ فقلت: من مسجد السهلة، فلما فتح الخادم الباب، التفتّ إلى ذلك السيد الجليل فلم أره، وإذا بالدنيا مظلمة للغاية، وأصابني المطر، فجعلت أنادي يا سيدنا يا مولانا، تفضل فقد فتحت الباب، ورجعت إلى ورائي أتفحص عنه وأنادي فلم أر أحداً أصلاً، وأضر بي الهواء والمطر والبرد في ذلك الزمان القليل فدخلت المسجد وانتبهت من غفلتي، وكأني كنت نائماً فاستيقظت، وجعلت ألوم نفسي على عدم التنبه لما كنت أرى من الآيات الباهرة وأتذكر ما شاهدته وأنا غافل من كراماته، من الضياء العظيم في المقام الشريف، مع أني لم أر سراجاً ، ولو كان في ذلك المقام عشرون سراجاً لما وفى بذلك الضياء، وذكرت أن ذلك السيد الجليل سمّاني باسمي، مع أني لم أعرفه، لم أره قبل ذلك.

وتذكرت أني لما كنت في المقام كنت أنظر إلى فضاء المسجد فأرى الظلام الشديد، وأسمع صوت المطر والرعد، وأني لماّ خرجت من المقام مصاحباً له سلام الله عليه كنت أمشي في ضياء بحيث أرى موضع قدمي، والأرض يابسة والهواء عذب، حتى وصلنا إلى باب المسجد ومنذ فارقني شاهدت الظلمة والمطر وصعوبة الهواء إلى غير ذلك من الأمور العجيبة التي أفادتني اليقين بأنه الحجة صاحب الزمان(عج) الذي كنت أتمنى من فضل الله تعالى التشرف برؤيته، وتحملت مشاق عمل الاستجارة عند قوة الحر والبرد لمطالعة حضرته سلام الله عليه، فشكرت الله تعالى شأنه والحمد لله. انتهى كلامه. رفع مقامه".

(٣) - إنّ وقوعه عليه السلام في وسط الأنوار دليل الشرف وعلامة الرفعة وقيل: إنّ الوسط في كل شيء أعدله وأفضله. ويؤثر ذلك أن الله تعالى جعل البيت المعمور

وهو أفضل الأماكن في وسط السماوات وجعل الكعبة المشرّفة في وسط الأرض وجعل قلب الإنسان وهو أشرف أعضائه في وسطه وجعل الفردوس في وسط الجنّة. ولا يتوهم أحد أن هذا معناه أنّه عليه السلام أفضل من رسول الله وباقي الأئمة عليهم السلام، وإنما هذا الفضل وهذا الشرف العظيم هو إشارة إلى كمال ظهوره وانتشار نوره من جهة، ومن جهة أخرى هو إشارة إلى إنتهاء كمالات الأئمة والمعصومين عليهم السلام والأنبياء السابقين وعلومهم صلوات الله عليهم لكونه المركز والنقطة التي تنتهي إليها كل كمالاتهم وعلومهم عليهم السلام.

وقد ورد في الروايات ان إشراق حميع الانوار من الشمس والقمر وغيرهما من إشراقات نوره وفيوضاته في غيبته وحضوره.

وذلك لأن الشمس والقمر إنما خلقت من نوره صلوات الله عليه كما دلت على ذلك الروايات، وهذا لا ينافي ما مرّ من أن الشمس والقمر من نور الحسن عليه السلام، لأن نورهم وأرواحهم وطينتهم واحدة. أي من أصل واحد فيصحّ أن يقال: إن القمر خلق من نور رسول الله صلى الله عليه وآله كما يصح أن يقال: إنه خلق من نور أمير المؤمنين عليه السلام ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى القائم عليه السلام. وبما أنه في كل زمان لا بد من حجّة في الأرض حتى لا تسيخ بأهلها كما في المرويّات، وكون أن الإمام المهدي صلوات الله عليه هو سبب بقاء ما في العالم من الموجودات بأسرها من الشمس والقمر وغيرها فإضاءتهما وإشراقهما من آثار نوره في زمان غيبته وحضوره عليه السلام.

(٤) - من هنا يكون السلام عليه بالزيارة على أنه وريث الأنبياء بل هو غاية آمال الأنبياء والأولياء.

(٥) - سورة المائدة، آية ٣ .

(٦) - (ألف عام): وهذه الألف سنة هل هي من حساباتنا أو من باب إنّ يوماً عند ربّك كألف سنة مما يعدوّن أو أكثر.

(٧) - إنّ الله عز وجل أشهدهم خلق السماوات والأرض أي أشهدهم خلق السماوات والأرض أو جميع الأشياء، و القرآن عندما يحتجّ على بعض القوم الذين يدّعون الألوهيّة يقول: " أشهدتم خلق السماوات والأرض؟ حتى يحق لهم أن يتكلموا عن السماوات والأرض وعندما يقول: وأشهدتهم خلقها، أي لهم دخالة في خلقها أي العلم التفصيلي في خلق جميع الأشياء.

(٨) - أجر طاعة محمد وعلي وفاطمة عليهم السلام على جميع الأشياء.

(٩) - سلمهم مقاليد الأمور.

(١٠) - البحراني، السيد هاشم، حلية الأبرار، مؤسسة المعارف الإسلامية،

الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ج١، ص١٨.

(١١) - راجع: شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني، ج٧، ص١٤٧.

(١٢) - البعض يعتبر أنّ الشيعي ولو أذنب أي ذنب كبيراً كان أو صغيراً فإنه يدجل الجنّة على قاعدة (سوّدت صحيفة أعمالي ووكلت الأمر إلى حيدر).

(١٣) - العاملي، الحر، وسائل الشيعة آل البيت، مطبعة مهر، قم، ج١، ص١١٥.

(١٤) - م.س. ص ٩٣.

(١٥) - الصحيفة السجادية، للإمام زين العابدين، ص١٧٦.

(١٦) - راجع: الكافي للشيخ الكليني، ج٢، ص١٩.

(١٧) - الروحاني، السيد محمد صادق، فقه الصادق، دار الكتاب، قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ، ج٩، ص ٢١٢.

المصادر والمراجع:

١- الإشتياني، أحمد بن محمد، مقدمات تأسيسية في التصوف والعرفان، الطبعة الأولى، بيروت لبنان دار الأدب.

٢- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنورا، الطبعة الثانية المصححة، بيروت لبنان، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.

٣- القمي، عباس، مفاتيح الجنان، الطبعة الأولى، بيروت، دار الصفوة، ١٩٩٩ .

٤- المازندراني، مولى، شرح أصول الكافي.

٥- الشيخ الصدوق، الهداية، الطبعة الأولى، مطبعة اعتماد، قم.

٦- الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، الطبعة الرابعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت لبنان، ١٤١٢هـ. ١٩٩٢م.

٧- الشيخ البهائي العاملي، مفتاح الفلاح.

٨- السبزواري، الملا هادي، شرح الأسماء الحسنى، مكتبة بصيرتي.

٩- الإحسائي، ابن أبي حمود، عوالي، الطبعة الأولى، مطبعة سيد الشهداء، ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م.

١٠- الطباطبائي، السيد محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة.

١١- محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، طهران، مؤسسة الأعلمي، مطبعة الأحمدي.

١٢- بحر العلوم، محمد مهدي، تحفة الملوك في السير والسلوك، ط١ تحقيق ياسين الموسوي، بيروت، دار البهجة، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

١٣- بحر العلوم، بلغة الفقيه، الطبعة الرابعة، طهران، مكتبة الصادق، ١٤٠٣هـ.

١٤- النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات مطبعة النجف الأشرف، ١٣٨٣هـ. ١٩٦٣م..

١٥- الحكيم، سعاد، المعجم الصوفي، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ. ١٩٨١م..

١٦- الآملي، حيدر، جامع الأسرار ومنبع الأبرار، ط٢، شركت انتشارات علمي وفرهنكي، ١٣٦٨هـ..

١٧- الآملي، حيدر، رسالة نقد النقود، المطبوعة مع جامع الأسرار.

١١٨- البحراني، السيد هاشم مدينة المعاصر، الطبعة الأولى، مؤسسة المعارف الإسلامية.

١٩- القيصري، شرح فصوص الحكم، الطبعة الأولى، تحقيق دار الاعتصام، مؤسسة محبين للطباعة والنشر، ١٤٢٣هـ ق..

٢٠- الطوسي، نصير الدين، أوصاف الأشراف، ط١، تحقيق المنصوري، علي، بيروت، مؤسسة البلاغ، ٢٠٠١.

٢١- الصحيفة السجادية، (مجموعة أدعية ومناجاة)، ط١، تحقيق مؤسسة الإمام المهدي (عج) قم، إيران، ١٤١١ هـ.

٢٢- القاشاني، عبد الرزاق، شرح منازل السائرين، ط١، قم- إيران، انتشارات بيدار، ١٤١٣، ١٣٧٢ هـ. ش.

٢٣- القاشاني، كمال الدين عبد الرزاق، اصطلاحات الصوفية، ط؟ ضبط وتعليق موفق فوزي الجبر، دمشق- سوريا، دار الحكمة، ١٩٩٥.

٢٤- الطوسي، نصير الدين، شرح الإشارات والتنبيهات للشيخ ابن سينا، حاشية على شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا، تحقيق دنيا، سليمان، بيروت، مؤسسة النعمان، ١٩٩٢.

٢٥- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، الطبعة الأولى، دار الحديث.

٢٦- الأميني، الشيخ عبد الحسين، الغدير، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتاب العربي،١٣٩٧ هـ.

٢٧- الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة من المدرسين بقم المشرّفة.

٢٨- القاضي ابن البرّاج، جواهر الفقه، الطبعة الأولى، قم، الناشر جامعة المدرسين، ١٤١١.

٢٩- محمد جواد كربلائي، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، دار الحديث.

٣٠- الجرجاني، كتاب التعريفات، بيروت- لبنان، دار السرور.

٣١- آملي، حسن زاده، شرح العيون في شرح العيون، الطبعة الثانية، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي.

٣٢- الطوسي، محمد، تجريد الاعتقاد، الطبعة الثانية، قم، انتشارات أشكوري، هـ. ق.

٣٣- أبو الحسن بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ط٣، تصحيح طيب الجزائري، قم، مؤسسة دار الكتاب، ١٤٠٤.

٣٣٤- الصدوق، الآمالي، ط، قم، تحقيق ونشر مؤسسة البعثة، ١٤١٧ هـ.

٣٥- الكليني، الكافي، ط٤، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥هـ.

٣٦-العاملي، السيد حسين علي مكي، الطبعة الثانية، مؤسسة العروة الوثقى، ١٤١٤هـ.

٣٧- الصدوق، عيون أخبار الرضا، تحقيق حسين الأعلمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ.

٣٨- العاملي، الحر، وسائل الشيعة، الطبعة الثانية، قم، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ.

٣٩- صدر المتألهين، شرح أصول الكافي، كتاب العقل والجهل.

٤٠- صدر المتألهين، شرح أصول الكافي، كتاب العلم.

٤١- صحيح البخاري، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ.

٤٢- مصطفى الخميني، تفسير القرآن، الطبعة الأولى، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (قدس)، ١٤١٨ هـ.

٤٣-الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، الطبعة الثانية، قم المقدسة، مؤسسة الهادي.

٤٤- العاملي، الشيخ البهائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٤٥- بحر العلوم، الفوائد الرجائية، الطبعة الأولى، طهران، مكتبة الصادق ١٣٦٣هـ.

٤٦- الشيخ الصدوق، الهداية، الطبعة الأولى، قم، اعتماد، ١٤١٨هـ.

٤٧- صدر المتألهين، كسر أصنام الجاهلية في الرد على الصوفية، ط١، بيروت، معهد المعارف الحكمية، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

٤٨- التبريزي، الميرزا جواد الملكي، السير إلى الله.

٤٩- نهج البلاغة، تحقيق محمد عبدو، بيروت، دار المعرفة.

٥٠- النوري، الميرزا، مستدرك الوسائل، الطبعة الثانية، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٤٨٨هـ.

٥١- الخميني، مصباح الهداية، ط١، بيروت- لبنان، مؤسسة الوفاء. ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.

٥٢- النقوي، حامد، خلاصة عبقات الأنوار، مطبعة سيد الشهداء، قم.

٥٣- الحلي، حسين بن سليمان، المختصر، الطبعة الأولى، منشورات المطبعة الحيدرية، ١٩١٥م.

٥٤- البحراني، السيد هاشم، حلية الأبرار، الطبعة الأولى، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١١هـ.

٥٥- الروحاني، السيد محمد صادق، فقه الصادق، الطبعة الثالثة، قم، دار الكتاب، ١٤١٣هـ.

٥٦- الأصفهاني، الميرزا محمد تقي الموسوي، ط٣، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي، قم، الحوزة العلمية، ١٤٠٤ هـ ق.

٥٧- بحر العلوم، محمد مهدي، السير إلى الله، ط١، ترجمة ياسين الموسوي، قم، المطبعة العلمية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.